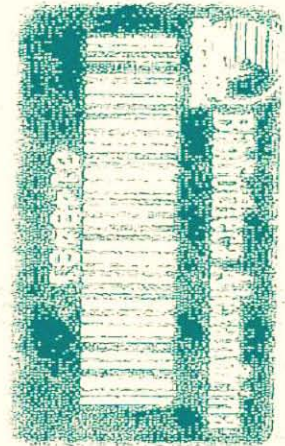


ایشان سے توجیہ

رویین

منتدی مکتبۃ الاسکندریة



توجیہ
ابراہیم رکنی مورخ



دارالمعارف

رودین

رودین

تألیف
أ توجنیف

ترجمة
إبراهیم زکی فورسید



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع

مقدمة

عاش تورجنيف حياة مضطربة في عصر حافل بأسباب القلق ، ملئ بالحركات الاجتماعية والسياسية والانتفاضات العقلية ، وقد عشق الحرية ورفع رايتها وكافح في سبيلها ، وهو يجيأ في جو ساد العسف والطغيان والكبت والحرمان .

ولد تورجنيف سنة ١٨١٨ لأسرة من أعيان الريف ، وتزوج أبوه زواجاً مادياً من امرأة موسرة أكبر منه سناً . فساقها العقد النفسية التي كانت تملكها إلى معاملة أطفالها وعبيدها معاملة كلها طغيان في طغيان . وتعلم تورجنيف في وطنه روسيا ، ودرس في جامعتي موسكو وسانت بطرسبرج ثم في برلين أخيراً (١٨٣٩ - ١٨٤٠) وفيها اختلط بشباب الروس المثقفين وتطبع بطباع الغربيين . وفي سنة ١٨٤٣ نشر قصته المنظومة « پاراشا » وقد عرض لها الناقد الكبير بلينسكى فأنى عليها . وترك تورجنيف الخدمة المدنية واتجه إلى الأدب ، وتدله في حب المغنية

المسهوره يوليز جارسيا (مدام فياردو) فديت القطيعه بينه وبين أمه من أجل ذلك . وتوقفت عن مده بالمال ، فعاش عيشة بوهيمية حتى وفاتها سنة ١٨٥٠ ، وهنالك أصبح تورجنيف من الأغنياء . ولم تستجب مدام فياردو لحبه الذي شغله طوال حياته . وإن سمحت بلقائه . فترك ذلك أثراً عميقاً في رواياته . وهجر تورجنيف الشعر إلى المسرح . ثم ترك المسرح بعد عام ١٨٥٢ واتجه إلى الرواية . وكانت أول رواية كتبها ولقيت نجاحاً هي « صور قلمية لرياضي » ظهر فيها الفلاحون أكثر جاذبية من أسيادهم . وفي سنة ١٨٥٢ نفي إلى ضيخته وقضى فيها ردهاً من الزمن . فقد أخذ عليه رثاؤه لجوجول وثناؤه عليه . ومن روائع رواياته رودين ، والحب الأول . وآباء وأبناء ، والدخان . والتربة العذراء .

كان تورجنيف ينتمي إلى فئة من الروس قليلة العدد جداً . فئة تلتقت تعليماً أوروبياً خالصاً لا يقل عما يتلقاه الإنكليزي أو الفرنسي أو الألماني . واتفق أن كان عمه نيقولاس قد اشترك في الحركة التي كانت ترمي إلى إقامة حكومة دستورية في روسيا بقوة السلاح ، وفشلت هذه الحركة ونجح نيقولاس في الهرب من انتقام القيصر نيقولا الأول ، واستقر به المقام في فرنسا . ونشر فيها أول دفاع عن الثورة الروسية . وكان تورجنيف وهو يدرس الفلسفة في برلين يزور عمه زيارات قصيرة في فرنسا . وزرع فيه عمه أفكاراً عن الحرية لم يتخل عنها في حياته كلها . وفي الستينات أصدر ألكساندر هرتزن في لندن صحيفة « كولكول » وكان هرتزن من أكثر كتّاب الروس موهبة ، لامعاً عاطفياً ذكياً .

وصحفيًا قديرًا وكاتب مقالات مبدعاً . واتصفت صحيفته هذه بالثورية والتطرف . وأصبح لها في روسيا سلطان كبير ، وقد اشترك تورجنيف في تحريرها ، بل كان عضواً في هيئة التحرير .

وقد ظهرت هذه الحقيقة مؤخراً وتكشفت من خلال الرسائل المتبادلة بين هرتزن وتورجنيف ، والحق أن هذه الرسائل قد ألفت ضوءاً جديداً على حياة كاتبنا . فقد بينت أن هذا الروائي العظيم كان أيضاً من أقوى المفكرين السياسيين في عصره وأبعدهم بصراً وبصيرة . ولا شك أن هذا يتجلى بأجلى بيان في آثاره .

وبعد فما قيمة تورجنيف بين الروائيين الروس العظام . بل بين أئمة الكتاب في العالم ؟ الواقع أن تورجنيف لم يعد كاتباً روسياً وحسب ، بل هو قد كسب في الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته نفسها جمهوراً من القراء في فرنسا ثم في ألمانيا وأمريكا ، ثم في إنكلترا .

وحسبنا أن نذكر ما قاله في رثائه الفيلسوف والفنان العظيم رينان : « إن هذا المعلم الذي سحرت آثاره الرائعة القرن الذي نعيش فيه أصبح يُعدُّ أكثر من أى كاتب آخر تجسيداً لجنس بأسره . ذلك أن عالماً كاملاً يعيش فيه ويتكلم هو بلسانه » .

ولا جرم أن تورجنيف بفضل خُصْبِ موهبته الخلاقة يقف على قدم المساواة مع أعظم الكتاب في جميع العصور . . ونظرة واحدة إلى هذا المعرض الذى استحدثه من أناس يجيشون بالحياة . رجالات بعامة . ونساء بخاصة . وكل منهم مختلف عن الآخر متفرد بشخصيته . وجميعهم

مخلوقات منتزعة من واقع الحياة ، وذلك الحشد الحاشد من الحقائق النفسية الذى كشف عنه ، والظلال العميقة لمشاعر البشر التى يجلوها لنا جلاء لا يستطيعه إلا روائى عظيم بين روائيين عظماء - كل أولئك قد زدنا بتراث فى يفخر به وطنه ، بل يفخر به العالم ويعتر .

أما عن أسلوبه فى تناول مادته والقالب الذى يصبا فيه فإن قدرته فى ذلك تفوق قدرة الكاتب المبدع وحسب . صحيح أن تولستوى أكثر منه قدرة على التشكيل ، كما أنه بلا شك لا يقل عن تورجنيف عمقاً وأصالة وقدرة على الخلق ، وكذلك دوستويفسكى فإنه أقوى منه عاطفة وأحر منه انفعالا وأعظم منه إثارة . إلا أن تورجنيف الفنان والأستاذ فى جمع التفاصيل فى كل واحد متناسق ، والمهندس البارِع فى إقامة البناء من نسج الخيال - يفوق جميع كتّاب النثر فى بلاده ، وقلّ أن نجد له نظيراً بين الروائيين العظماء فى سائر البلاد . وشاهد ذلك أنه ما إن صدرت ترجمة فرنسية لقصته القصيرة « آسيا » حتى كتبت إليه الروائية الفرنسية العظيمة جورج ساند فى عز شهرتها تقول : « أيها المعلم إننا جميعاً لا نملك إلا أن نسعى إليك لتدرس فى مدرستك » .

والخبر بآثار تورجنيف يتبين له أنه يملك مفاتيح جميع مشاعر الإنسان وانفعالاته أجلها وأحطها ، النيل منها والحسيس . وهو يرى من قمة عليائه الجميع ويفهم الجميع ، فلا الطبيعة ولا الناس لها أسرار تختجب عن عينيه الهادئتين النفاذتين .

كان تورجنيف يحب الضياء والشمس المشرقة والشعر

الإنسانى الحى ، ويكره كل الكراهية القبح والغلظة والسوقية والنشاز حتى لقد أصبح شاعر الجانب اللطيف من الطبيعة الإنسانية . صحيح أنه فى الصور التى يرسمها يكشف لنا عن الجرائم والآثام وضروب القسوة ويصور أحوال الحياة وأقدارها ، إلا أنه لا يلبث طويلا فى هذه الأجواء الكئيبة ، بل يعود مسرعاً إلى عوالم الشمس والأزهار والمناظر البهيجة والحرن الشاعرى الذى يضيفه نور القمر فى هدأة الليل وسكونه . وكان يتحاشى الغيرة والحسد والحقد الذى هو الظل الأسود للأحاسيس الإنسانية الشاعرة ، فقد كان فناً دقيق الحس مرهف المشاعر . وما من روائى أفسح مجالا عريضاً لشعور الشباب الخالد بالحب مثلما أفسح تورجنيف ، أجل الحب فى شفافيته وصفاته حتى ليحس لنا أن نقول إنه وصفه وصف الموكل به المكابد له العلم بمظاهرة وعذاباته ومباهجه وصنوفه وألوانه . عرف الحب المستأنى المستوعب كما عرف الحب المفاجئ الذى يأخذ الغافل على غرة منه فيزلزله زلزلة ويهز كيانه هزاً كأنما هو المرض الملح لا خلاص منه ولا فكاك .

وصفوة القول أن تورجنيف كان أشعر الروائيين الواقعيين . على أنه يصدق فيه المثل المشهور لآكرامة لنبى فى وطنه ، فقد تنكر له قومه أول الأمر حتى لقد فكر فى أن يعتزل الأدب ، ولكن هيات كما قال الدكتور طه حسين ، ذلك أنه قد أدركته حرفة الأدب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب . وعلة ذلك أن تورجنيف قد قصر رواياته على تصوير طبقة واحدة من الشعب الروسى ، ونحن لا نجد فيه تلك الصورة المترامية

الأطراف التي نجدها عند تولستوى الذى يستعرض أمام القراء روسيا كلها ، فقد انصرف إلى الكتابة عن روسيا المتعلمة أو على المفكرين فيها الذين يعرفهم هو حق المعرفة فهو منهم وهم منه . ونحن لا نأسف لهذا فقد يقف الكيف أمام الكم أحياناً . والصفوة على قلوبهم ، هم الخميرة التي تقلب العجين . ولهذا ذاع صيت تورجنيف في الخارج أكثر من ذيوعه في روسيا . وأخذت دائرة قرائه تتسع يوماً بعد يوم .

فقد نشأ تورجنيف في عصر ملئ بالكفاح السياسى والاجتماعى . وكان الناس فيه مستغرقين في مصالحهم الخاصة . لا يقدرّون الفن الخالص ولا يستمتعون به ، وهذا أمر مفرّج بالنسبة لفنان يعيش في عصر بعيد عن الفن . فقد كان أسمى طموحه وأنبل مساعيه يجرح أولئك القوم من مواطنيه الذين كان تورجنيف يخلص لهم أشد الإخلاص ويحبهم أصدق الحب . أجل لقد أعطى تورجنيف بلاده خير ما في نفسه ، وخير ما انطوى عليه عقله وجاد به خياله الخلاق ، كان هو المعلم والنبي الذي يبشر بآراء جديدة ، والشاعر الذي يبدع والفنان الذي يصور فينطق الجهاد ويشيع الحياة في الحجر والصخر ، ولكنّ مواطنيه مجدّوا فيه المعلم وحسب ، وظلّوا أمداً طويلاً لا يدركون الصفات الأخرى .

كان الرجل في فترة من أهم الفترات في تاريخ بلاده القومى حامل علم روسيا الحرة المفكرة ، ومن آياته أنه جمع بين الفكر والفنان بلا تنافر ولا تعارض حتى لقد أصبحت رواياته خلاصة للحياة الفعلية في روسيا الحديثة وأداة قوية في تقدمها العلمى .

ورواية « رودين » هي أولى روايات تورجنيف الاجتماعية . وهي بمثابة المدخل الفنى لما سيأتى بعدها من روايات لأنها تتناول حقبة سابقة على الحقبة التى بدأت فيها الحركات الاجتماعية والسياسية . وهذه الحقبة قد جرّ عليها النسيان أذباله . ولولا روايته (رودين) لكان من العسير أن ندرك هذه الفترة حق الإدراك ، وهى إلى ذلك جديرة بالنظر . لأننا نجد فيها جرائم التقدم الذى حدث من بعد . كانت حقبة كثيفة . فقد كان القيصر نيقولا الأول طاغية قد خلا قلبه من الشفقة أو الرحمة ، يجمّ على صدر شعبه يبطش بكل كلمة وكل فكرة لا تمشى مع سياسته المعتة الضيقة الأفق . وكان لا يمثل روسيا التقدمية إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد يسبقون زمنهم بمراحل . ويعسون بأنهم يعيشون فى وطنهم معزولين لا حول لهم ولا قوة ، بعيدين عن الإحساس بحقائق الحياة حولهم ، كأنما هم غرباء بين قوم لا يمتون إليهم بعاطفة ولا فكر . وكان لا بد هؤلاء من متنفس تلوذ به طاقاتهم الروحية . فقد عجزوا عن مشاركة سائر مواطنيهم فى التفاهات والصغائر التى يعنون بها . فخلقوا لأنفسهم دنيا وأنشطة واهتمامات من صنعهم . وكان من الطبيعى أن تربطهم هذه العزلة بعضهم ببعض . وفى هذه الدائرة التى هى وسط بين النادى غير الرسمى والجماعة التى يتصل بينها النقاش أصبحت هى المفرع الذى يرضون فيه نوازع عقولهم ونبضات قلوبهم . صحيح أن هؤلاء الناس كانوا يلتقون ويتحدثون . وهذا هو كل ما يستطيعونه .

كان هؤلاء خبير من أنجبتهم هذه الحقبة ، فقد امتلأت جوانحهم بالآمال العريضة والمعارف الواسعة ، وكان بحمهم المجرد عن الحق مطلباً نبيلاً ، وكان من حقهم بلا نزاع أن ينظروا من علي إلى جيرانهم الذين يتمرغون في وحل المادية الأنانية الدنيئة ، ولكن حياتهم في ذلك الملاذ الروحي يداعبون فيه آمالهم وأحلامهم ويستغرقون في تأملاتهم الفلسفية وتجربداتهم - أبعدتهم أكثر وأكثر عن المشاركة في الحياة الحقيقية ، وأقصتهم إقصاءً شديداً عن الإحساس بالحياة في وطنهم .

وكان ديمتري رودين بطل روايتنا يمثل هذا الجيل خير تمثيل ، فقد كان ضحية وبطلا لزمانه في آن ، أجل كان رجلاً مارداً في أقواله قرماً في فعاله ، أوفى فصاحة سحبان ، ولدد المجادل الذي لا يُشق له غبار ، لا يقف أمام منطق من منطق ، ومع ذلك فإنه لم يكن دجلاً محتالاً . كانت حماسه تعدى الآخرين لأنها حماسة صادقة لا زيف فيها ، وفصاحته مقنعة لأن إخلاصه لمثله كان عشقاً يأخذ عليه نفسه ويطغى على قواده ، ولا يحجم عن الموت في سبيلها ولا يتزحزح عنها قيد أنملة مهما بذل له من غم وما يمكن أن يلاقيه في سبيلها من متاعب ومشقات . وكان هذا العشق وتلك الحماسة نابعين من عقله فحسب . أما قلبه الذي يمكن أن ينطوى على أعمق المشاعر من حب ورحمة وشفقة ، فكان غافلاً مستسلماً للنعاس . وأما الإنسانية التي كان خليقاً أن يبذل في سبيلها آخر قطرة من دمه فكانت في نظره طائفة من الأجانب الفرنسيين والإنكليز والألمان الذين درسهم في الكتب أو لقيهم في الفنادق في

الخارج وهو طالب أوسائح .

وهذه الإنسانية المجردة العجيبة لا يمكن أن يحس المرء بحب حقيق لها . فبرغم حساسة رودين فإنه كان في أعماق قلبه بارداً كالثلج . أجل كانت حماسته تتوهج بلا حرارة وتتألق بلا لهيب .

ومع كل ما يؤخذ على رودين ومن هم على شاكلته من ضعف وقصور ، فإن جيله ، جيل سنة ١٨٤٠ قد أدى لبلاده خدمات جليلة ، فقد غرسوا فيها عقيدة الإيمان بالمثل ، ذلك أنه قد أتى بالبذور التي لم يبق إلا رميها في أرض وطنهم الخصبية حتى تؤتي ثمارها الوافرة في المستقبل . كان ضعف هؤلاء الناس وعمقهم يرجعان إلى أنه لم تكن لهم صلوات عضوية بوطنهم ولا جذور تضرب في التربة الروسية . كانوا لا يكادون يعرفون شيئاً عن الشعب الروسي الذي كان يبدو في نظرهم حقيقة تاريخية مجردة وحسب . فقد كانت نزعتهم عالمية ، وكان تورجنيف صادقاً مع الحياة ومع الفن حين جعل بطل روايته يلقي مصرعه في حاجز من الحواجز التي أقامها الفرنسيون . وقد ظل الشعب الروسي برغم حركة الإصلاح التي كانت في الأجيال الثلاثة التي أعقبت ذلك ، يرسف في آلاف من الحواجز والسدود التي وصفها رواية رودين أصدق الوصف .

ولم يكن تورجنيف يعطينا بضرية واحدة من إزميله أشخاصاً قُدت من كتلة واحدة من الحجر كما هو الأمر عند تولستوى ، وإنما كان منه أقرب إلى فن المصور أو الملحن الموسيقي منه إلى النحات . فعنده ألوان

أكثر، ومنظور أعمق، وطائفة متنوعة أكبر من الأضواء والظلال، أو قل صورة أكمل وأشمل للإنسان الذي تغلب عليه الروح. وفرق في ذلك بينه وبين تولستوى، فالشخصيات التي أبدعها تولستوى تجيش بالحياة حتى نكاد نلمسها لمساً ونرى ملامحها ومشخصاتها ماثلة في الناس نشاهدهم يسرون في الشوارع. أما شخصيات تورجنيف فإن اعترافهم الذاتية ورسائلهم الشخصية تكشف لنا أسرار حياتهم الروحية. وكل مشهد من مشاهد روايات تورجنيف، بل كل سطر فيها يكاد يفتح آفاقاً عميقة جديدة ويلقى على شخصياته ضوءاً جديداً غير منتظر ولا متوقع.

وشخصية بطل روايتنا معقدة غاية التعقيد عسيرة كل العسر، وهي تبين لنا بأجلى بيان موهبة تورجنيف في التغلغل في أعماق النفس كما تكشف لنا عن تعدد جوانب هذه الموهبة. ذلك أن شخصية رودين تقوم على المتناقضات، ولكننا لانحس لحظة أنها بعدت عن الواقع أو اختلفت عن الحياة تكاد تلمسها لمساً.

وليست شخصية بطلة الرواية ناتاليا بأقل من ذلك، فهي فتاة هادئة رصينة واقعية، وإن كانت في أعماقها متحمسة ذات طبيعة بطولية. على أنها كانت إلى ذلك « طفلة » تستجيب لجميع مؤثرات الحياة، لم تنضج بعد النضج الكافي. ولو أن تورجنيف اتبع في تصويرها الطريقة التحليلية الفاحصة لأفسد هذه المحلقة الجميلة الرقيقة الشاعر. وإنما هو قد صورها تصويراً من صنعه في سطور قليلة تم عن أستاذه، فقد

كشفت لنا عن أسرار روحها . وأرانا ما هي ، وما يمكن أن تكون لو وضعت في ظروف أخرى .

وتورجنيف أستاذ في تصوير النساء ، وشخصية ناتاليا هي أول إلهام شعري لحقيقة تسترعى النظر في تاريخ روسيا الحديث . ذلك هو ظهور نساء لها من قوة العقل ما يفتقر إليه رجال هذا العصر .

أما الشخصيات الثانوية الأخرى في رواية رودين فنجد أمامنا : لزنيف وبيجاسوف ، ومدام لاسونسكايا ، وبندفسكي ، وقد صورهم تورجنيف تصويراً دقيقاً لا نلمسه إلا في روائع الصور المنمنمة .

وقد وفق تورجنيف في هذه الرواية الواقعية ، فقد التزم الحقيقة والصدق والطبيعة . ولكنه في سعيه إلى الصدق الذي يصور الحياة تصويراً دقيقاً غاية الدقة لا يسمح لنفسه أن يكون مملأً ينصرف عنه القراء . فأوصافه لا يبظها أبداً بالتفاصيل المتعبة ، وحركته سريعة . وحوادثه لا يمكن توقعها قبل ورودها بصفحات كثيرة ، وإنما هو يبقى قراءه في حالة من التشوف الدائم . وبذلك يمتاز على كثير من الكتاب الواقعيين في فرنسا أو إنكلترا أو أمريكا . ذلك أنه كان يرى أن الحياة ليست سمجة مملّة ، بل هي مليئة بالمفاجآت ، حافلة بأسباب القلق والاضطراب .

وفكرة رواية رودين بسيطة كل البساطة حتى يكاد المرء أن يقول إنها خالية من الفكرة على الإطلاق ، ذلك أن تورجنيف كان يحتقر حيل الروائيين الذين يتعمدون الإثارة ، ويستعيز عن ذلك بسيطرته الفريدة

على قراءته وعواطفهم . وهو يشبه في هذا الموسيقى الذى يلعب بأعصاب
مستمعيه وأفئدتهم دون أن يجعل للعقل دخلا فى ذلك ، أو قل إنه كان
أشبه بالشاعر الذى يجمع بين قوة الكلمة وسحر الانسجام . فالمرء لا يقرأ
روايات تورجنيف بل يعيشها .

إبراهيم زكى خورشيد

الفصل الأول

كان ذلك في صباح يوم هادئ من أيام الصيف . وقد علت الشمس السماء الصافية ، إلا أن الحقول كانت لا تزال تتألق بقطرات الندى ، وتضوع من الأودية التي كانت قد نفضت عنها الكرى أو كادت ، أريج عذب منعش ، وانبعث الطير المبكر يغرد فرحاً مسروراً في الغابات التي كانت لا تزال أيضاً ساكنة ندية ، وكنت ترى قرية صغيرة على قمة تل ينحدر انحداراً رقيقاً ، وقد غطاه من أعلاه إلى أسفله نبات الجويدار تفتق عن رأسه الزهر وشبكاً ، وسارت غادة في طريق ضيق يؤدي إلى القرية ترتدى ثوباً من الموصل الأبيض وقبعة مستديرة من القش وفي يدها مظلة ، وكان يتبعها غلام خادم على بعد يسير منها .

كانت تمشي الهوينى وكأنها تنعم بترهتها ، ويحيط بها من كل جانب نبات الجويدار الطويل المتمايل ، يثنى في موجات لها حفيف ناعم متصل ، تتخذ حيناً اللون الأخضر الفضي ، وحيناً اللون الأحمر المتوهج ، والقناير تفرد على علو شاهق منها . كانت قادمة من قريتها التي لم تكن تبعد عن الدسكرة التي تقصدها إلا نصف

ميل أو أكثر قليلا ، وكان اسمها ألكسندره بافلوفنا ليبينا ، وهى أرملة ثرية حرمت
نعمة الولد ، تقم مع أخيها سرجى بافلوفتش فوليتسيف ، وهو صاغ متقاعد كان
فى سلاح الفرسان ، وكان عزباً يدير أملاكها .
وبلغت السيدة ليبينا القرية . ووقفت عند أقرب أكواخها ، وكان كوخاً
متداعياً منخفضاً أشد الانخفاض ، ونادت الغلام وأمرته أن يدخل الكوخ وأن
يسأل عن صحة صاحبته ، وسرعان ما عاد الغلام وفى صحبته فلاح هرم أبيض
اللحية .

وسأته ألكسندره بافلوفنا : « ما وراءك ؟ »

وغمغم الشيخ قائلاً : « لا تزال على قيد الحياة »

« هل لى أن أدخل ؟ »

ولم لا ؟ « لك ذلك »

ودلفت السيدة ليبينا إلى الكوخ . فألفته مكتظاً خانقاً حافلاً بالدخان . وكان
ثم شخص يتحرك ويئن على أريكة المدفأة ، وتحولت السيدة ليبينا بنظرها إلى
الأريكة فرأت فى الغبشة وجه امرأة عجوز قد علاه الشحوب والتجاعيد ، وربطت
المرأة حول رأسها منديلاً منقوشاً . وتذثرت حتى صدرها بمعطف ثقيل ، وكانت
تتنفس فى عسر ، وتحرك يديها النحيلتين فى ضعف ووهن .
وتقدمت السيدة ليبينا نحو السيدة العجوز ولمست جبينها ، فوجدته شديد
الحرارة يكاد يلهب . وسألها وهى تنحنى على أريكة المدفأة ، قائلة : « كيف
حالك يامريونا ؟ » .
وتبينت العجوز السيدة ليبينا فتوجعت قائلة : « أواه ! لقد ساءت حالى .

ساءت جداً يا سيدتي العزيزة ! لقد دنت ساعتى الأخيرة يا حبيبتى ! » .
 « إن الله رءوف بعباده يا ماريونا ، فقد تتحسن حالتك بالرغم مما بك . هل تناولت الدواء الذى بعثت به إليك ؟ » ، وتأوهت العجوز فى شقاء وبؤس ولم تخر جواباً . ذلك أنها لم تكن قد سمعت السؤال .
 وقال الشيخ ، وكان واقفاً بالباب : « لقد تناولته » .
 والتفتت إليه ألكسندره بافلوفنا وسألته : « أليس لها سواك يسهر عليها ويعنى بأمراها ؟ » .

« لها فتاة هى حفيدتها . ولكنها تقضى جل وقتها فى الخارج ولا تستطيع البقاء فى مكان واحد طويلاً . إنها شديدة القلق . بل هى أكسل من أن تناول جدتها جرعة ماء . أما أنا فقد بلغت من الكبر عتياً . فأى نفع يرمى منى ؟ » .
 « أو ينبغى لى أن أنقلها إلى مستشفى ؟ » .

« كلا ، ولم تقلبها إليه ؟ إنها سوف تموت على كل حال . فقد انقضى عمرها وستحل بها مشيئة الله . ولن تبرح الأريكة أبداً . فما بالك تتحدثين عن المستشفى ؟ إنها سوف تقضى إذا حاولوا نقلها ! » .

وتوجعت العجوز قائلة : « أواه ! يا سيدتى الجميلة لا تتخل عن اليتيمة الصغيرة التى سأتركها . إن سادتنا بعيدون جداً عن هذا المكان . أما أنت . . . »
 وأخلدت العجوز إلى السكون . فقد أضناها التعب .

وقالت السيدة لبيينا : « خلى عنك القلق . فسنجيبك إلى كل ما تطالبين . وهأنذا قد أتيت ببعض الشاي والسكر . فاشربى شيئاً من الشاي إن شئت » . ثم التفتت إلى الشيخ وأردفت تقول :

« أفلا أجد عندكم وعاءً لغلى الشاي ؟ » .

« وعاء لغلى الشاي ؟ ليس لدينا شيء من هذا القبيل ، ولكنني أستطيع

الحصول على وعاء »

« افعل ، وإلا أرسلت إليكم الوعاء الخاص بي ، ثم قل لحفيدتك أن تلزم

الدار ، قل للفتاة إنها حرة أن تحجل من نفسها »

وتناول الشيخ بكلتا يديه الصرة التي اشتملت على الشاي والسكر ولم يجب !

وقالت السيدة لبيينا : « إلى اللقاء يا ماريونا ! سآقي لزيارتك مرة أخرى

ولا يهن منك العزم ، وتناولى دواءك بانتظام »

ورفعت المعجوز رأسها وجاهدت لتدنو من المحسنة إليها ، وقالت بعد لأى :

« هاقى يدك ياسيدتى »

ولم تفعل السيدة لبيينا ذلك الذى طلبته منها المعجوز ، بل انحنى عليها وقبلتها

في جبينها .

وقالت السيدة للشيخ وهي تبارح الكوخ : « ألا فلتعن بإعطائها الدواء بانتظام

كما هو موصوف ، وأعطها شيئاً من الشاي تشربه »

ولم يجر الشيخ جواباً مرة أخرى ، واكنى بأن حتى قامته .

ولم تسترد السيدة لبيينا أنفاسها إلا بعد أن خرجت إلى الهواء الطلق ، ثم فتحت

مظلتها ، وكانت على وشك أن ترتد راجعة إلى مترها عندما لاح لها فجأة ، حول

منعطف الكوخ ، رجل فى نحو الثلاثين من عمره يسوق عربة سباق منخفضة ،

ويرتدى ستره رمادية قديمة فى لون التراب ، وقبعة مستدقة الطرف . وما إن لمح

الغادة حتى أوقف جواده فى الحال والتفت إليها ، وكان وجهه العريض الشاحب

ذو العينين الصغيرتين الرماديتين الفاتحتين والشارب السنجاني ، يلام لون ملبسه .
وقال في ابتسامة تنطوى على التهمك : « طاب صباحك ! هلى لى أن أسألك
ماذا تفعلين هنا ؟ »

« كنت أزور مريضة ، ومن أين أتيت يا ميخائيل ميخائيلوفتش ؟
وحدق الرجل الذى وجهت إليه هذا القول النظر فيها ، وافتثر ثغره عن ابتسامة
أخرى .

ومضى يقول : « إنك تحسنين صنعاً بزيارة المريضة ، ولكن أليس من الأفضل
أن تنقلها إلى مستشفىك ؟ »

« إنها غاية فى الضعف والوهن ولا يمكن نقلها . »

« وهل فى نيتك أن تتخلى عن المستشفى ؟ »

« أتخلى عنه ؟ ولم ؟ »

« ولم لا تتخلين عنه ؟ »

« يالفكرة العجيبة ، ما الذى أوحى بها إليك ؟ »

« إنك لعلى علاقة وثيقة جداً بالسيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنك واقعة تحت
سلطانها ، وهى ترى أن المستشفيات والمدارس ليست إلا أوهاماً لا طائل تحتها
ولا غناء فيها ، وأن الإحسان يجب أن يكون من خاصة الأمور ولا يتعدى ذلك
أبداً ، وهكذا يجب أن يكون شأن التعليم ، من أجل خلاص روح الإنسان . هذه
هى فيما أعتقد أقوالها ، ترى من أين تلتقط هذه الأفكار ؟ »

وضحكت السيدة لبيينا ثم قالت : « إن داريا ميخائيلوفنا امرأة ذكية وأنا أحبها
أخلص الحب ، وأعجب بها غاية الإعجاب ، ولكنها هى أيضاً ليست مترهة عن

الخطأ ، وأنا لا أصدق كل كلمة تقولها ! »

وأجاب الرجل ، وكان لا يزال جالساً في عرته : « وهذا ما ينبغي لك ، ذلك أنها هي نفسها لا تؤمن كل الإيمان بما تقول ، على أنه قد سرفى كثيراً أن ألقاك »
« لماذا ؟ »

« سؤال طريف ! وكأنما لقياك لا تكون دائماً باعثة على السرور والانشراح !
إنك اليوم كالصبح نضرة وبهاء »
« وعادت الغادة إلى الضحك .
« علام تضحكين ؟ »

« لا حيلة لي في ذلك ! يالها من لهجة باردة خالية من الحرارة تصطنعها لإطرائي ! وإني لأعجب لأنك لم تتأعب وأنت تنطق بالكلمة الأخيرة »
« باردة حقاً . إنك تريدني اللهب ، ولكن ما جدواه ؟ إنه يتأجج ويلفظ الدخان ثم يخمد وهو يثر أزيزاً »
« وأتمت له الغادة عبارته بقولها : « وهو يبعث الدفء »
« أجل ثم هو يحرق »
« وماذا لو أحرقت ؟ ليس في ذلك ضرر كبير ، بل إنه لأفضل على أية حال من . . . »

فقاطعها ميخائيل ميخائيلوفتش في انفعال : « بودي أن أسمع ما تقولين عندما يحرقك اللهب » . ثم لطم الجواد بالعنان ، وقال لها : « إلى اللقاء ! »
« وصاحت الغادة : « انتظر لحظة ! متى تأتي لزيارتنا ؟ »
« غداً . وبلغني أخاك تحياتي »

ومضت العربية

وتابعت السيدة الرجل بعينها . ثم حدثت نفسها قائلة : « ياله من

« تليس » ! »

وكان منظره بظهره المُحدَوِّدِيب وجسمه الذى علاه الغبار وقبعته المترلقة على مؤخر رأسه وخصلات شعره الأصفر المضطربة التى انتفشت من تحت القبعة يخاكي حقاً « التليس » وقد امتلاً بالدقيق .

وسارت السيدة ليينا صوب المتزل فى خُطى بطيئة وقد أرخت بصرها إلى الأرض . وطرق أذنها وقع حوافر جواد فتوقفت ورفعت بصرها . فإذا بأخيها مقبل نحوها يمتطي صهوة جواد . ويسير بجانبه شاب قصير القامة . فى سرة للسهرة مفكوكة الأزرار زاهية اللون ، وربطة للعتق زاهية أيضاً ، وقد لبس قبعة ضاربة إلى اللون الرمادى وأمسك عصا تعينه على المسير . وراح يبتسم للغادة حيناً بالرغم من أنه رآها مستغرقة فى أفكارها ، ولا تعى شيئاً مما حولها . وما إن توقفت حتى هرع إليها وقال لها فى صوت تشيع فيه الهجة والسرور ويغلب عليه الحنان : « طاب صباحك يا ألكسندره بافلوفنا ! طاب صباحك ! »

فأجابت بقولها : « آه ! قسطنطين ديوميدوفيتش ! طاب صباحك ! أو قادم

أنت من عند داريا ميخائيلوفنا ؟ »

فهتف الشاب وقد أشرق وجهه : « صدقت وايم الله يا سيدتى ، صدقت ! لقد أرسلتني داريا ميخائيلوفنا إليك يا سيدتى ، وقد فضلت السير على الأقدام . فالصباح غاية فى الجمال . والمرحلة كلها لا تتعدى أربعة فيرسات^(١) فحسب !

(١) الفيرست مقياس روسى = ١.٠٦٧ من الكيلومتر.

ذهبت إلى دارك يا سيدتي ولكنك كنت في الخارج ، وأبلغني أخوك أنك مضيت إلى الدسكرة ، إلى سمبونوفكا ، وكان هو نفسه على وشك الخروج إلى الحقول ، فصحبته حتى أفاك ، أجل هذا هو الحق الصراح ! لشد ما يبعث هذا على السرور والانشراح ! »

وكان الشاب يتحدث بلغة روسية جيدة صحيحة ، وإن كانت تشوبها لكنته أجنبية . على أنه كان من العسير أن يعرف المرء على وجه اليقين كنه هذه اللكنة . وكانت تبدو على ملامحه مسحة آسيوية : فأنفه الأفي الطويل ، وعيناه الجاحظتان الكبيرتان الجامدتان ، وشفته الحمراء والغليظتان ، وجهته المائلة ، وشعره الأسود اللامع ، وكل ما فيه كان ينطق بأنه من أرومة شرقية .

غير أن الشاب كان يطلق على نفسه اسم بندالفسكى ، ويزعم أنه ولد في أوديسا ، بالرغم من أنه نشأ في مكان ما من روسيا البيضاء على نفقة أرملة ثرية محسنة . وحصلت له أرملة أخرى على وظيفة في خدمة الحكومة ، وقد جرت السيدات المتوسطات العمر على أن يشملن برعايتهن عن طيب خاطر قسطنطين ديوميديوفيتش بندالفسكى ، ذلك أنه كان يعلم كيف يجدهن وكيف يرقق قلوبهن ، وقد كان يقيم آئتد في منزل سيدة موسرة من ملاك الأرض تدعى السيدة لاسونسكايا . كان كلاً عليها ، أو كان بالأحرى طفيلياً يعيش على كرمها . وكان بندالفسكى ودوداً غاية الود ، كريماً من أصحاب الفضل ، رقيقاً جياش العاطفة ، ثم إنه كان في السر شهوانياً منغمساً في اللذات ، وكان له صوت شجي ، يعزف على البيان عزفاً لا بأس به ، وقد ألف أن يحدق بنظرات ثابتة في عيني كل من يخاطبه ، وكان أنيقاً غاية الأناقة ، يلبس عليه ملابس مدهة طويلة جداً ، ويحلق ذقنه

العريض بعناية بالغة ، ويسوى كل شعرة من شعر رأسه .
 وأنصت إليه السيدة لبيينا حتى فرغ من حديثه ، ثم التفتت إلى أخيها وقالت :
 « ياله من يوم ، لقاء يأتي في إثر لقاء ! لقد فرغت وشيكاً من حديث مع ليزنيف »
 « آه ! ليزنيف ! أكان يسوق عربية في هذه النواحي ؟ »
 « أجل ، تصور إنه كان يسوق عربية سباق ، ويرتدى نوعاً من الكتان
 الذى تصنع منه الأكياس ، وقد غطاه الغبار من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ياله
 من رجل عجيب ! »
 « أجل ، ربما كان كذلك ، ولكنه شاب ظريف » .

وسأل بندالفسكى في لهجة تشويها الريبة : « من ؟ السيد ليزنيف ؟ »
 فتدخل فوليتسيف في الحديث قائلاً : « أجل ، ميخائيل ميخائيلوفيتش
 ليزنيف ، والآن إلى اللقاء يا أختاه ، لقد حان موعد ذهابى إلى حقولك ، فقد
 بدءوا يبذرون حب الحنطة السوداء فيها ، وسيصحبك السيد بندالفسكى إلى
 المنزل » . وما إن أتم فوليتسيف كلامه حتى سار بجواده خيباً .
 وصاح بندالفسكى قائلاً : « بكل سرور » ، وقدم ذراعه إلى الغادة .
 وشبكت ذراعها في ذراعه ، وسارا في الطريق المؤدى إلى ضيعتها .

* * *

وكان من الجلى أن سير بندالفسكى والسيدة لبيينا متعلقة بذراعه قد أغم قلبه
 بالسرور ، وكان يخطط خطوات قصيرة مشرق الوجه ، بل إن عينيه اللتين كانت
 تتجلى فيها سمة أهل الشرق قد تندتا بالدمع ، ولا بأس من القول بأن ذلك لم يكن
 شيئاً لا يتظر منه ، فقد كان من اليسير أن تثار دموعه ، ولا عليه ، فمن ذا الذى

لا يبجح قلبه أن يسير مع سيدة شابة فاتنة رشيقة وذراعها في ذراعه ؟
لقد أجمع أهل ناحية « . . . آيا » كلهم على القول بأن السيدة لينا امرأة
فاتنة . ولم يكونوا في ذلك مخطئين ؛ فقد كان أنفها وحده . أنفها الصغير الأشم
الجميل . خليقاً بأن يخرج أى إنسان عن طوره ؛ ناهيك بعينها الناعستين
الصلبتين . وشعرها الذهبي الأشقر الداكن . وخطيها المستديرين تزيها نوتان .
ثم مفاتيها الأخرى . ولكن خير هذه المفاتي جميعاً كان سيماء وجهها الجميل .
وجه يوحى بالثقة والاطمئنان . لطيف . رقيق يؤثر في النفوس ويحتذب القلوب .
كانت تضحك فتبدو كالطفل . حتى لقد ظنت سيدات الناحية أن فيها شيئاً من
البراءة والسذاجة . فأى شىء يمكن أن يتمناه المرء أكثر من ذلك ؟
وسألت السيدة - بندالفسكى : « تقول إن داريا ميخائيلوفنا قد بعثت بك
إلى ؟ »

فقال وفي نطقه لثغة . إذ كان ينطق السين « ثاء » : « أجل . لقد بعثت بي
إليك السيدة لاسونسكايا . إن السيدة لاسونسكايا تود من صميم قلبها أن تتناول
غداءك معها اليوم وترجو منك الحضور » . وكان بندالفسكى حريصاً أشد الحرص
على ألا يستعمل أى نوع من الخطاب ترفع فيه الكلفة وخاصة إذا كان يشير في
حديثه إلى سيدة . ومضى يقول : « إن السيدة لاسونسكايا تنتظر ضيفاً جديداً تود
مخلصة أن تلقيه » .

« ومن يكون ؟ »

« إنه البارون موفل من سانت بطرسبرج . وهو سيد من القاطنين على مخدع
جلالة القيصر . وقد تعرفت به السيدة لاسونسكايا حديثاً في قصر الأمير جارين .

وهي تقدره أعظم التقدير فتقول إنه شاب رقيق الحاشية مهذب ، ثم إن سيدى البارون يهتم بالأدب بل . . . آه ! بالفراشة الجميلة ! هلا تنظرين إليها . . . بل بالاقتصاد السياسى ، ولقد كتب بحثاً فى موضوع غاية فى العجب ويريد من سيدتى أن تدلى برأيها فيه .

« بحث فى الاقتصاد السياسى ؟ »

« من حيث الأسلوب يا سيدتى - الأسلوب ، فإنك تعلمين بلا شك أن السيدة لاسونسكايا . على ما تتصف به من مواهب أخرى حجة فى هذا الباب ، وقد ألف زوكوفسكى الشاعر أن يلتمس عندها الرأى ، وكذلك يفعل ذلك الذى كان يشملنى فيما مضى برعايته وإحسانه . روكسولان مدياروفتش كساندريكا ، وهو رجل ولا كالأرجال ، يقيم فى أوديسا - ولا شك أنك سمعت بهذا الاسم ! »

« كلا البتة فإنى لم أسمع به قط »

« ألم تسمعى قط باسم هذا السيد الموقر؟ عجباً ! لقد كنت على وشك أن أقول إن السيد كساندريكا يؤمن أيضاً إيماناً عظيماً بامتلاك السيدة لاسونسكايا ناصية اللغة الروسية .

« هل البارون متحذلق ؟ »

« كلا البتة . بل إن السيدة لاسونسكايا تقول : إنه على خلاف ذلك ، فإن المرء ليدرك لأول وهلة أنه رجل خبر العالم ، وقد تحدث عن بيتهوفن بفصاحة خلبت لب الأمير العجوز نفسه ، ولا أنكر أنى كنت أود أن أسمع ذلك الحديث لأنه يتمشى مع هوايتى . أفلا تسمحين لى بأن أقدم إليك هذه الزهرة البرية الجميلة ؟ »

وتناولت الزهرة منه ، وتركها تسقط في المشى بعد أن سارت بضع خطوات ، ولم يبق على بلوغ مترها إلا مسيرة مائتي قدم ، وكان قد شيد منذ عهد قريب ويض بالكلس ، وراح يخایل الناظرين بنوافذه العريضة المشرقة ويشوقهم إليه من خلال الأوراق الكثيفة لأشجار الزيزفون والإسفندان العتيقة .

وقال بندالفسكى ، وقد حز في نفسه ما لاقته زهرته من مصير : « ماذا عساي أن أقول إذن للسيدة لاسونسكايا ؟ أو تتاولين الغداء معها ؟ إن السيدة لاسونسكايا تدعو أخاك أيضاً ياسيدتى » .

« أجل . سنذهب إليها بلا تقصير ، كيف حال ناتاليا ألكسييفنا ؟ »
 « إن الأنسة بخير والحمد لله ، ولكننا قد تجاوزنا المنعطف الذى يؤدى إلى ضيعة السيدة لاسونسكايا ، أفلا تأذنين لى ياسيدتى بالمضى إليها ؟ »

« ووقفت السيدة لبيينا ، وسألته فى تردد : « هل تفضل بالدخول ؟ »
 « لاشيء يسرنى أكثر من هذا ، ولكننى أخشى أن أتأخر ، فإن السيدة تريد أن تسمع تمريناً موسيقياً جديداً من وضع ثالبرج ، ولا بد لى من التدرّب عليه والاستعداد لعزفه ، وخليق لى أن أعترف بأننى أشك بأنك ستجدين متعة فى صحبتي »

« آه . كلا ! ما الذى يدعوك إلى هذا الشك . . . ؟ »
 وتهد بندالفسكى . وخفض بصره فى نظرة تغنى عن البيان .
 ثم قال بعد لحظة من الصمت : « طاب صباحك ياسيدتى ! » ، وانحنى وتراجع خطوة . ودارت ألكسندره بافلوفنا على عقبيها وسارت إلى منزلها .
 وكذلك سار بندالفسكى إلى بيته . وسقط عن وجهه قناع الرقة الذى ألف

أن يصطنعه . وأصبح وجهه الآن يحمل أمارات الثقة بالنفس . وكاد يغلب عليه التجهم والعبوس . بل إن مشيته نفسها تغيرت . فقد طالت خطواته وثقلت وطأة أقدامه . وما إن قطع نحو فيرستين . وهو يلوح بعصاه ويديرها في خفة حتى عادت شفثاه فانفرجتا بغتة عن ابتسامته . ذلك أنه رمق بجانب الطريق فلاحه صغيرة على شيء من الملاحه تسوق عجولها من حقل للشوفان كانت فيه . واقترب من الفتاة في مثل حرص القط وحذره . وأخذ يتحدث إليها . والترمت الفتاة الصمت أول الأمر . واحمر وجهها خجلاً . وضحكت ضحكة مكبوتة . ثم غطت فمها بكفها وانصرفت عنه قائلة : « اذهب يا سيدى . اذهب . . . »

وهز بندالفسكى إصبعه مومناً إليها . وطلب منها أن تأتيه ببعض زهور الترنيشان^(١) . وقالت الفتاة في احتشام : « فم تريدها ؟ أو تصنع منها أكاليل ؟ اذهب . اذهب ! »

وأخذ بندالفسكى يلاطفها قائلاً : « انظري يا فتاتي الحسنة . . . » وقاطعته الفتاة قائلة : « اغرب عني . إن السيدين الصغيرين مقلبان علينا » . والتفت بندالفسكى خلفه . فرأى حقاً « فانيا » و « بتيا » ولدى لاسونسكايا يعدوان نحوه . وقد سار خلفها مؤدبهما باسيستوف . وهو شاب في الثانية والعشرين تخرج لتوه من الجامعة . وكان باسيستوف شاباً طويل القامة . قبيح الوجه . كبير الأنف . غليظ الشفتين . له عينان كهني الخنزير . كان عاطلاً من الحسن سَمِجاً . إلا أنه كان رعواً مستقيماً . أميناً . ولم يك يعنى بهندامه أو يقص شعره . ولا يفعل

(١) زهور مركبة تنمو في حقول القمح .

ذلك عن تحذلق ولكن عن كسل . وكان يحب الأكلة الطيبة والنومة الطيبة . وإن كان يحب أيضاً الكتاب القيم والنقاش الحاد . ويكره بندالفسكى من كل قلبه . وكان ولدا لاسونسكايا يوقران باسيستوف ولا يخشيانه قط . وكان الرجل على علاقة وثيقة ببقية أهل المنزل . ولم يكن هذا يرضى سيده كل الرضا . بالرغم من كل ما كانت تَحْتَجُّ به من أنها بريئة من التحيز والهوى .

وهتف بندالفسكى : « طاب صباحكما يا ولدى العزيزين . لكم بكرتما في تزهتكما اليوم ! » . ثم أضاف موجهاً الخطاب إلى باسيستوف : « أما أنا فقد خرجت منذ وقت طويل . ذلك أننى مولع بأن أنعم بالطبيعة »

فغمغم باسيستوف قائلاً : « لقد رأينا كيف تنعم بالطبيعة ! »

« إنك لمادى ! والله يعلم ما الذى يدور فى خلدك ! إننى أعرفك . »

وعندما كان بندالفسكى يخاطب قوماً من أمثال باسيستوف فإنه كان حرياً بأن تبيح مشاعره فينطق حرف السين بوضوح فى شىء من الصغير .

وقال باسيستوف : « إني لأظن أنك كنت تسأل تلك الفتاة عن الطريق »

وأخذت نظراته تتحول يميناً ويساراً . وقد أزعجه الشعور بأن بندالفسكى

يتفرس فى وجهه من غير مواربة :

« فلأكرر عليك القول بأنك مادى ولا شىء غير هذا . إنك ترفض أن ترى

من الأمور إلاجانبها العادى المألوف . . . »

وأصدر باسيستوف أمره فجأة قائلاً : « يا ولدى ! أتريان تلك الصفصافة

التي فى المرحج هناك ؟ من منكما يستطيع أن يصل إليها قبل أخيه ؟ واحد - اثنان -

ثلاثة ! »

واندفع الولدان إلى شجرة الصفصاف بأسرع ما تستطيع سيقاها حملها .
وعدا باسيستوف خلفها .

وحدث بندالفسكى نفسه قائلاً : « فلاح » ! إنه سيفسد ذينك الطفلين . إنه
فلاح ولا شيء غير هذا ! .

ونظر بندالفسكى في غرور إلى حسن بزته ورشاقته . تم نفص الغبار عن كم
سترته بأصابع مبسوطة . وعدل نيقته واستأنف سيره . فلما بلغ غرفته ارتدى جلباباً
حسن الهندام وجلس إلى البيان متخذاً هيئة من اعترم أمراً .



الفصل الثماني

كان بيت داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا يعد من أحسن بيوت ناحية « . . . آيا » . كان منزلاً ضخماً شيد بالحجارة ، ونقلت عمارته عن رسوم صنعها راسترلى على الطراز الذى كان سائداً فى القرن الثامن عشر ، وشمعخ بأنفه على قمة تل يجرى فى سفحه نهر من أهم أنهار روسيا الوسطى . وكانت لاسونسكايا نفسها سيدة نبيلة موسرة ، وأرملة مستشار فى مجلس شورى القيصر ، وكان بندالفسكى يزعم أنها تعرف أوروبا كلها ، وأن أوروبا بأسرها تعرفها ، إلا أنها كانت فى الحق لا يكاد يعرفها أحد فى أوروبا ، ولم يكن لها شأن فى سانت بطرسبرج ، بيد أن أهل موسكو جميعاً كانوا يعرفونها ويؤمنون الاجتماعات التى كانت تعقدتها . كانت من علية القوم ، وقد ذاع أن فيها شيئاً من غرابة الأطوار ، ولم تعرف بشدة الجود ، إلا أنها كانت امرأة بارعة جداً ، وكانت فى شبابها بديعة الحسن حتى لقد نظم الشعراء القصائد فى مديحها ، وجن الشباب غراماً بها ، وغازلها مشاهير القوم ، ولكن مضى على ذلك خمس وعشرون سنة أو ثلاثون لم تبق على شىء من مفاتها الماضية . ولا يمتلك

كل من يراها اليوم للمرة الأولى إلا أن يسائل نفسه : « أحق أن هذه المرأة التي لم تطعن بعد في السن - وإن بدت شاحبة متغضنة حادة الأنف - كانت يوماً غانية حسناء ؟ أحق أنها هي بعينها التي كانت تتغنى بها القيثارة . . . ؟ » ، وأخذ الناس جميعاً يعجبون بينهم وبين أنفسهم من تعرض كل شيء في هذه الدنيا للتغير . صحيح أن بندالفسكى قد وجد أن عيني السيدة لاسونسكايا لم تفقدا شيئاً من بهائها ، ولكن بندالفسكى نفسه هو الذى قال إن أوروبا كلها تعرفها !

وكانت السيدة لاسونسكايا تذهب كل صيف إلى منزلها الريفي وفي صحبتها أولادها (كان لها ثلاثة أولاد : ابنة تدعى ناتاليا في السابعة عشرة من عمرها . وابنان أحدهما في التاسعة والآخر في العاشرة) . وتفتح أبواب منزلها للزائرين هنالك . أى تستقبل فيه السادة ، وخاصة العزاب منهم . فقد كانت لا تطيق السيدات الريفيات . وكان يطيب لهن أن يقابلن ذلك منها بمثله ! فقد كانت لاسونسكايا في قولهن متكبرة . خليعة طاغية شنيعة ، وكانت فوق ذلك كله تبيح لنفسها أن تبذل في الحديث تبذلاً ! ويا لألفاظها التي تتقزز منها النفس !

صحيح أن لاسونسكايا لم تكن تأبه بالقيود التي تفرضها حياة الريف . وكان المرء يشعر أن في سلوكها الذي يتميز بالبساطة والانطلاق ظلاً خفيفاً من الاحتقار تنطوى عليه جوانح تلك اللبوة الحضرية لمن حولها من المخلوقات الجاهلة التافهة . وكانت تعامل أيضاً معارفها من أهل الحضر في ألفة غير لائقة ، بل ساخرة . ولكنها خالية من ذلك الظل من الاحتقار .

فهل اتفق لك أيها القارئ أن لاحظت أن من يرفع الكلفة مع مرءوسيه لا تكون هذه حاله البتة مع رؤسائه ؟ فما السبب في ذلك ؟ ولكن . . . هذه

الأسئلة لا تؤدي إلى شيء .

وحفظ بندالفسكى آخر الأمر تمرين ثالبرج عن ظهر قلب . فهبط من غرفته النظيفة المشرقة إلى غرفة الاستقبال فألقى المدعوين قد اكمل عقدهم . وأن الاستقبال قد بدأ فعلا . وكانت ربة الدار مستلقية على أريكة عريضة وقد طوت قدمها من تحفها . وأخذت تتصفح في تكاسل نشرة فرنسية جديدة . وكانت ناتاليا لاسونسكايا . والآنسة بونكور المريية تجلسان بجوار النافذة وكل منهما على جانب من إطار منسج التطريز . وكانت هذه المريية سيدة عذراء في الستين من عمرها علتها الغضبون والتجاعيد . ووضعت على رأسها شعراً مستعاراً أسود مهوشاً تحت قبعة مزخرفة ملونة . وحشت أذنيها بالقطن . أما باسيستوف فكان يجلس في ركن الغرفة قرب الباب يقرأ إحدى الصحف ، وقد جلس إلى جواره بتيا وقانيا يلعبان الداما . ووقف سيد أميل إلى القصر مستنداً على مدفأة ويداه مشبكتان خلف ظهره . كان شعره أشيب أشعث ووجهه أسمر وعينه سوداوين صغيرتين حائرتين . وهذا السيد هو أفريكان سميوفيتش بيجاسوف .

وكان بيجاسوف سيداً غريب الأطوار . يحمل ضغينة لكل شيء ولكل إنسان . وخاصة النساء . ويتأفف من الصباح إلى المساء . فيبدو في تأفقه مصيباً كل الصواب حيناً . سخيفاً بعض السخف حيناً . إلا أنه كان يتسم بالحماسة دائماً . وكان نزقه أقرب إلى الحمق . وضحكه ولهجته . بل كيانه كله . يبدو غارقاً في لجة من الغضب . وكانت لاسونسكايا تستقبل بيجاسوف عن رضا وإقبال . ذلك أنها كانت تجدد في نزواته تسليية لها . فقد كانت في الحق أدنى إلى الهزل . وكان هو مولعاً بالمبالغة إلى حد الإسراف : مثال ذلك أنه كان إذا بلغ مسامعه خبر بلية مها كان

شأنها . سواء أكانت قرية احترقت بفعل صاعقة . أم سد طاحونة تصدع بفعل المياه . أم فلاحا قطع يده . عمد دائماً إلى السؤال في لهجة تم عن عناد لا يلين : « ومن تكون ؟ » . أى من تكون المرأة التى كانت السبب فى البلية . ذلك أنه يؤكد أن وراء كل بلية امرأة لا تظهر إلا إذا أنعمت النظر فى الأمر إنعاماً . وقد جثا على ركبتيه يوماً أمام سيدة غريبة عنه تماماً أو تكاد . إذ كانت تلح عليه أن يتناول شيئاً من المرطبات . وراح يتوسل إليها . والدمع يترقق فى عينيه والغضب مرتسم على وجهه . أن تعفيه من تناول شيء منها مؤكداً أنه لن يدخل منزلها من بعد . وقد جعل جواد مرة على سفح تل . وكانت تعلى صهوته فتاة من الفتيات اللاتي كن يقمن بغسل الملابس للسيدة لاسونسكايا وألقى بها فى حفرة حتى أوشكت أن تهلك . ومن يومها وبيجاسوف لا يتحدث عن هذا الحيوان إلا بقوله : « ذلك الجواد الصغير البديع » . بل إن الأمر انتهى به إلى النظر إلى التل والحفرة كأنهما من أعظم البقاع فتنة وسحراً ! .

ولم يكن بيجاسوف قد وفق فى حياته . ومن هنا أدركته هذه اللوثة . فقد اخدر من أسرة فقيرة . وتقلد أبوه عدة مناصب تافهة الشأن . ولم يكن « بفك الحظ » إلا بمشقة ، كما أنه لم يعن إلا عناية قليلة بتعلم ابنه . وحسنه أنه كان يطعمه ويكسوه . وقد دلت أمه ، ولكنها ماتت فى سن مبكرة ، فأخذ بيجاسوف يتولى أمره بنفسه . فالتحق بمدرسة الناحية من تلقاء ذاته ، ثم دخل المدرسة الثانوية واكتسب معرفة باللغتين الفرنسية والألمانية بل اللاتينية ، وتخرج من المدرسة الثانوية بعد أن نجح نجاحاً باهراً ، ثم التحق بجامعة دوربات حيث ظل يكافح الفقر كفاحاً متصلاً . إلا أنه أفلح فى اجتياز منهج السنوات الثلاث ، ولم تكن مواهب

بيجاسوف لترتفع به فوق أوساط الناس . صحيح أن صبره ومثابرتة كانا عجيبين . إلا أن أقوى شيء كان يحفزهُ هو الطموح ، وشوقهُ إلى الدخول في زمرة المجتمع الراقى فلا يتخلف عن الآخرين مها كان من سوء حظهُ . وكان الطموح هو الذى حملة على أن يجتهد في التحصيل ودفعه إلى الالتحاق بجامعة دوربات . وكان الفقر هو الذى أثار حميته وأذكى ملكتى الملاحظة والدهاء فيه . كان حديثه فريداً في بابهِ . فقد اصطنع في باكرة حياته أسلوباً خاصاً في الفصاحة فيه شيء من المشاكسة وشيء من الصغار ، ولم تكن أفكاره تسمو على مألوف الناس . إلا أنه كان في مقدوره أن يصبغها بصبغة تجعله يبدو متوقد الذهن حاد الذكاء . .

وعزم بيجاسوف بعد أن نال إجازة « البكالوريوس » على أن يتخذ التعليم مهنة له . فقد أدرك أن لا أمل له في اللحاق بزملائه في أية صناعة أخرى (كان يحاول أن يختار هؤلاء من أرقى الأوساط . وكان يعرف كيف يسوسهم . فلا يتورع عن أن يتزل إلى حد الملق والمداهنة ، وإن ظل على سنته مشاغباً شكساً) . إلا أن تلك المهنة كانت - إذا شئنا الصراحة - تتطلب رجلاً من معدن أصلب من معدنه . أما بيجاسوف فقد علم نفسه بنفسه ، ولم يكن يحدوه إلى ذلك حب العلم ، ومن ثم كان علمه في الحق قليلاً جداً . وقد فشل فشلاً ذريعاً في المناظرة ، في حين أن شريكه في غرفة النوم بالجامعة الذى كان بيجاسوف يسخر منه على الدوام نجح فيها نجاحاً باهراً . وكان شريكه هذا صغير العقل جداً . ولكنه كان قد نشأ نشأة سليمة كل السلامة . قومية إلى أقصى حد . وقد أخرج هذا الفشل بيجاسوف عن وعيه . فالتقى بمكتبه ومذكراته جميعاً إلى النار والتحق بخدمة الحكومة .

وبدا مستقبله في أول الأمر باسمياً مشرقاً ، فقد كان موظفاً بالفطرة ، وكان

النقص في كفايته يعوضه تعويضاً مجزياً بالجرأة والغرور . إلا أن تعجّله التقدم في هذه الحياة قد أوقعه في المتاعب . فخطا خطوة طائشة ألجأته إلى التقاعد . وأقام ثلاث سنوات في قرية صغيرة كان قد اشتراها ثم تزوج فجأة سيدة ريفية موسرة نصف متعلمة كان قد استهواها بأسلوبه الذي ينطوي على السخرية وعدم الاكتراث . إلا أنه كان قد أصبح فظاً نكداً قد نال منه ما نزل به من ظلم وإجحاف . وملّ حياته الزوجية وسئها . وهربت زوجته إلى موسكو بعد أن أقامت معه بضع سنوات . وباعت هناك ضيعتها إلى مستثمر حاذق . وكان بيجاسوف قد شيد لتوه بيتاً في هذه الضيعة . وهدت هذه الضريبة الأخيرة كيانه . فشرع يقم دعوى على زوجته ولكنه خسرها . وعاش من بعد وحيداً . وكثيراً ما كان يزور جيرانه . ولكنه كان يذمهم من وراء ظهورهم بل في مواجهتهم . وكانوا يستقبلونه بشيء من الضحك المكتوم . ولو أنهم كانوا في واقع الأمر لا يخافونه . ولم يعد إلى حمل كتاب قط . وكان يملك نحو مائة عبد من رقيق الأرض يعيشون عيشة لا بأس بها .

وما إن دخل بندالفسكى غرفة الاستقبال حتى هتفت السيدة لاسونسكايا قائلة : « آه ! قسطنطين ! هل ستأني ألكسندرين ؟ »

فأجاب بندالفسكى : « طلبت منى السيدة لبيينا أن أعرب لك عن شكرها ، وقالت : إنه يسرها أن تلبى دعوتك » . وشرع ينحنى برقة ولطف ذات اليمين وذات اليسار ، وهو يمرّ مرّاً خفيفاً على شعره المشط أحسن تمشيط بيده الغليظة الصغيرة البيضاء التي قلم أظفارها على هيئة المثلثات تقريباً .

« وهل سيأني فوليتسيف أيضاً ؟ »

« أجل . والسيد فوليتسف »

وقالت السيدة لاسونسكايا وهي تلتفت إلى بيجاسوف : « إذن فأنت تؤكد أن

السيدات الصغيرات السن متكلفات متصنعات ! »

وزم بيغاسوف شفثيه ولواهما جانباً . واختلج مرفقه في عصبية .
وأنشأ يقول قى تأن : « أقول » (وكان يتكلم في بطء ووضوح حتى في أشد
ثورات غضبه) . « أقول : إن السيدات الصغيرات بوجه عام . وأسثنى منهن
الحاضرات . . . »

فقاطعته السيدة لاسونسكايا قائلة : « وهذا لا يمنعك من أن تشملهن أيضاً

بخحك »

فكرر بيغاسوف قوله : « إن الحاضرات مستثنيات دائماً . إن كل السيدات
الصغيرات عامة متكلفات أشد التكلف . متكلفات في الإعراب عن انفعالاتهن .
فإذا روعت سيدة شابة مثلاً أو حل بها السرور أو كربها شىء . اتخذت وضعاً
رشيقاً - هكذا » ولوى بيغاسوف جسمه على أقبح صورة وأشدّها نكراً وبسط
يديه . ومضى يقول : « وعند ذلك فقط تصرخ قائلة : آه ! أو تفهقه . أو تنفجر
باكية . على أنني استطعت مرة » وابتسم بيغاسوف مختالاً ومضى يقول : « أن
أخرج بتعبير صحيح صادق لعاطفة صدرت من سيدة شابة متصنعة أشد التصنع » .

« وكيف كان هذا ؟ »

وتألفت عينا بيغاسوف وقال : « لطمتها على جنبها من الخلف بوتد من الحور
اللدن . فصرخت . وأردفت أنا قائلاً : مرحى . مرحى ! . وقد كان ذلك صوت
الطبيعة . بل كان صرخة طبيعية . وهذا هو ما فعلته ! »

وضحك كل من في الغرفة .

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « يا للهراء الذى تشدق به يا أفريكان سيميونوفيتش ! أو تريد أن أصدق أنك ضربت فتاة على جنبها بوتد ؟ »
« أقسم أننى ضربتها بوتد . وتد ضخم . كذلك الأوتاد التى يستخدمونها في الدفاع عن الحصون . »

وانفجرت الآنسة بونكور قائلة وهى تنظر في تجمهم وعبوس إلى الأطفال وكانوا قد استغرقوا في الضحك : « ولكن ما تقوله فظيع يا سيدى ! »
وقالت السيدة لاسونسكايا : « يجب ألا تصدقيه : فأنت تعرفينه جيداً ! »
ولكن السيدة الفرنسية الحانقة ظلت تغلى مدة طويلة وهى تتمم وتغمغم .
واستأنف يبجاسوف حديثه في برود قائلاً : « ربما لا تصدقيني ، ولكنى أؤكد لك أن ما قلته هو الحق بعينه . ألسنت أنا الذى أعلم ذلك ؟ قد تقولين أيضاً إنك لا تصدقين أن جارتنا السيدة شيبوزوفا ، أى إيلينا أنطونوفا ، أبلغتني شخصياً - ولا تنسى أنها أبلغتني شخصياً - أنها تسببت في قتل ابن أخيها بوسائل خبيثة ! »
« يا لها من فكرة ! »

« اسمح لى أن أتم حديثى . أنصتوا إلىّ حتى أنتهى . ثم احكموا أنتم أنفسكم . واذكروا أننى لا أريد التشهير بها . بل إنها لتروق لى - على قدر ما تروق المرأة في عيز رجل : إن منزلها خال من الكتب إلا من تقويم . وهى لا تستطيع أن تقرأ إلا بصوت مرتفع . حتى هذا التمرين على القراءة يجعلها تنصب عرقاً . ثم تشكو من أن عينيها قد جحظتا من مآقيها . وصفوة القول : إنها امرأة وخادمتها مرحات نصرات . فما الذى يحدوني إلى التشهير بها ؟ »

وعقبت السيدة لاسونسكايا على ذلك بقولها : « ها هو ذا قد بدأ الآن ! إن أفريكان سميونوفيتش قد امتطى صهوة جواده الخشبي ولن يترجل عنه حتى يحن الليل » .

« جوادى الخشبي ! إذن فالنساء عندهن مالا يقل عن ثلاثة جواد خشبية، وهن لا يترجلن عنها أبداً إلا إذا أدركهن النوم »
« وما هذه الجياد؟ »

« اللوم . والتعنيف . والزجر ! »

وأنشأت السيدة لاسونسكايا تقول : « أقسم يا أفريكان سميونوفيتش أن لديك سبباً قوياً جداً يملك على أن تسخط على النساء كل هذا السخط . ولا شك أن امرأة . . . »

« أكنت تتوین أن تقولى : نالتنى بأذى ؟ »

ولم ترتبك السيدة لاسونسكايا إلا قليلاً . وكانت قد تذكرت زواج بيجاسوف الذى لم يكتب له التوفيق . فاكتفت بأن أمأت برأسها .
وقال بيجاسوف : « حقاً لقد نالتنى امرأة ذات مرة بأذى بالرغم من أنها كانت رءوف رحيمة »

« ومن كانت ؟ »

فقال بيجاسوف فى همس يشبه التمثيل « أمى ! »

« أمك ؟ وكيف يمكن أن تكون قد نالتك بأذى ؟ »

« بولادق ! . . . »

وقطبت السيدة لاسونسكايا حاجبها وقالت : « أخشى أن يكون الحديث

قد بدأ يتحول تحولاً تتقبض له النفس ويضيق به الصدر . هلا تتفضل يا قسطنطين فتعزف لنا تمرين ثالثاً الجديد . لعل الموسيقى تهديّ من نائرة أفريكان سميونوفيتش ؟ ألم يروض الإله أورفيوس الوحش من الحيوان ؟ »
 وجلس بندالفسكى إلى البيان وعزف المقطوعة على خير وجه . وأصغت ناتاليا أول الأمر في انتباه . ثم استأنفت ماكانت مشغولة به .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « شكراً . هذا بديع . وإني لأحب ثالثاً . فهو ممتاز حقاً . فم تفكر يا أفريكان سميونوفيتش ؟ »

فأجاب بيجاسوف و تمهل : « كنت أفكر في أن « الأنايين » ثلاثة : أنايون يعيشون ويدعون غيرهم يعيش . وأنايون يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . ثم أنايون لا يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . والنساء عامة من الفريق الثالث ! »
 « إن هذا الجميل منك حقاً ! والشيء الوحيد الذى يحيرنى فيك يا أفريكان سميونوفيتش هو إيمانك بتتزه حكمتك عن الخطأ حتى لكأنك لا تخطئ أبداً . »
 « عجباً . حاشى ! فإنى أنا أيضاً أقع فى الخطأ . إن الرجل قد يخطئ . ولكن أتعرفين الفرق بين أخطائنا وأخطاء المرأة ؟ ألا تعرفينه ؟ الفرق هو أن الرجل قد يقول مثلاً إن اثنين واثنين خمسة أو ثلاثة ونصف ولا يقول أربعة . فى حين أن المرأة حرية بأن تقول : إن حاصل اثنين واثنين شمعة ! »

« يلوح لى أننى سمعت منك هذا من قبل . ولكن هل لى أن أسألك عن العلاقة التى بين مذهبك فى أنواع الأنايين الثلاثة والموسيقى التى كنت تسمعتها ؟ »

« ليس ثم علاقة . فإنى لم أكن أنصت إلى الموسيقى »

فأجابت السيدة لاسونسكايا وهى تشرح قول جريويدوف شرحاً يسيراً :

« حسناً ! أرى أن لا سبيل لتقويمك يا باتيوشكا » . وأردفت تقول : « ماذا تحب إذن إذا كنت لا تحب الموسيقى ؟ لعله الأدب »
 « أجل . أحب الأدب . ولكني لا أحب الأدب الحديث »
 « ولماذا ؟ »

« لهذا السبب الذي سأذكره لك : فقد عبرت نهر أوكا منذ عهد قريب مع سيد في معدية . وورست المعدية على ضفة وعرة المرتقى . ودعت الحال إلى جر العربات إلى أعلى باليد . وكان للسيد عربة ثقيلة جداً . وبينما كان رجال المعدية يخطمون ظهورهم في سبيل رفع العربة إلى ضفة النهر . كان السيد يئن أنينا يدعو إلى الرثاء حتى شعرت بالأسف الشديد من أجله . وعندئذ فكرت في أن ثم مجالاً لتطبيق نظام تقسيم العمل تطبيقاً جديداً . وهذا يصدق على الأدب الحديث . فغيره يجرون الأثقال ويؤدون العمل . وهو يئن ويتوجع ! »
 وافترت نثر السيدة لاسونسكايا عن ابتسامة .

وأردف بيجاسوف الذي لا يكمل ولا يميل : « ويصفونه بأنه تصوير للحياة الحاضرة . وتجاوب عميق مع المسائل الاجتماعية . وما أشبه ذلك من العبارات .
 يه ! يا لتلك الكلمات الجميلة ! »

« إن أقل ما يقال : هو أن النساء اللاتي تهاجمهن لا يصطنعن الكلمات الجميلة » .

وهز بيجاسوف كتفيه وقال : « إنهن لا يصطنعنها لأنهن لا يستطعن ذلك » .
 واحمر وجه السيدة لاسونسكايا قليلاً . وقالت وهي تتكلف الابتسام : « لقد بدأت تصبح وقحاً يا أفريكان سميونوفيتش » .

وساد الغرفة سكون شامل

وسأل أحد الغلامين باسيستوف فجأة : « أين زولوتونوشا ؟ »

وتدخل ييجاسوف على عجل في الحديث وأجابه قائلاً : « في ناحية بلتاوة يا بنى ، في قلب «أوكرانيا» (وقد سره أن سيأت له الفرصة ليحول دفعة الحديث إلى وجهة أهدأ وأقل إثارة للخواطر) . ومضى يقول : « وعلى ذكر الأدب ، لو أن عندي فضلاً من مال لغدوت من فوري شاعراً أوكرانياً »

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « تالله إني لن أكون . يا للشاعر الفحل الذى

كنت خليقاً أن تكونه ، أولك علم باللغة ؟ »

« كلا البتة ، ولا حاجة بي إلى هذا »

« لا حاجة بك إلى هذا ؟ »

« لا حاجة بي ، وما عليك إلا أن تتناولى صفحة من الورق وتكتبى في أعلاها من الوسط كلمة «مرثية» . وابدئى هكذا : «وى ، يا لحظى . يا لحظى التعمس» . أو «ناليفايكو القوزاقى مجلس على قورغان» . ثم أضينى إلى هذه العبارة : «تحت التل الأخضر . جراى . جراى فوروباي . اقفز . اقفز ! . أو شيئاً من هذه القافية . فيم لك ما تريدن ! وما عليك عندئذ إلا أن تنهين وتنشرى قصيدتك . وسيقرأها الأوكرانى ويعتمد ذقنه على يده . ثم ينفجر باكياً . ذلك أنه مرهف الحس قوى العاطفة ! »

وصاح باسيستوف قائلاً : « بالله عليك ! ما هذا الذى تقوله ! إنه لسخف .

فقد عشت في أوكرانيا وأنا أحب تلك البلاد وأعرف لغتها . وقولك جراى .

جراى . فوروباي ليس إلا هراء ! »

« قد يكون ما تقوله صحيحاً ، ولكن الأوكراني سيكفي على كل حال . تقول إن لهم لغة ، ولكن أين هي اللغة الأوكرانية ؟ لقد طلبت مرة من أوكراني أن يترجم لي أول عبارة روسية طرأت على ذهني ، فكانت ترجمته أشبه بشقشقة البيغاء . أتسمى هذه لغة ؟ لغة مستقلة بنفسها ؟ وددت أن يسحق أصدق أصدقائي في هاون فيستحيل تراباً ولا أسلم لك بهذا !

وكان من الجلي أن باسيستوف يميل إلى المضي في الجدل .
فقالت السيدة لاسونسكايا : « دعه وشأنه فإنك بلا شك لا تتوقع أن تسمع منه إلا هذه السفسطة »

وابتسم بيجاسوف في تهكم وسخرية ، ودخل خادم وأعلن قدوم ألكسندره بافلوفنا ليينا وأخيها ، ونهضت السيدة لاسونسكايا لتستقبل ضيفها .
وقالت وهي تتجه نحو ألكسندره : « كيف حالك يا ألكسندرين ، إنه الجميل منك أن تأتي ، كيف حالك يا سرجي بافلوفيتش » .

وبصافح سرجي بافلوفيتش فوليتسيف السيدة لاسونسكايا ، وذهب إلى ناتاليا .
وسأل بيجاسوف المضيفة : « أسمحين بأن تخبريني : هل سيحضر البارون الذي تعرفت به حديثاً إلى هنا اليوم ؟ »
« أجل سيحضر »

« تقول الشائعات : إنه مفلسف عظيم ، أو إنه في نقاش حاد بعض الشيء مع هيجل »

ولزمت المضيفة الصمت ، وأجلست ألكسندره بافلوفنا على الأريكة واتخذت مجلسها بجوارها . واستأنف بيجاسوف حديثه قائلاً : « الفلسفة هي أسنى النظرات

جميعاً . وهذه النظرات السامية ستوردني مورد الهلاك ! فا الذى يستطيع الإنسان أن يراه تحته وهو محلق فى هذه الآفاق السامية ؟ ثم إنك إذا أردت أن تشتري جواداً فإنك بلا شك لا تتفحصه وأنت مائل فوق برج عال »
وسألها ألكسندره بافلوفنا : « أظن أن البارون كان ينوى أن يأتيك بمقال من إنشائه »

وأجابت السيدة لاسونسكايا وقد بالغت فى إظهار عدم الاهتمام : « أجل . مقال عن علاقة التجارة بالصناعة فى روسيا . لاتراعى ، فلن نقرأه هنا . ذلك أننى لم أدعك لهذا » . ثم قالت بالفرنسية : « إن البارون لطيف ظريف بقدر ما هو عالم . ثم إنه يتكلم الروسية بطلاقة وفصاحة أيضا » . وعادت تقول بالفرنسية : « إنه كالسيل الفياض وهو خليق بأن يجلب لك » .
ودمدم بيجاسوف قائلاً : « إنه يتكلم الروسية بطلاقة تستحق الإطراء على طريقة الفرنسيين ! »

وأجابت السيدة لاسونسكايا : « هلم يا أفريكان سميونوفيتش ، اهدر ودمدم حتى تهدأ ثائرتك . فإن ذلك يومٌ شعرك الأشعث كل المواءمة ، على أننى يأخذنى العجب من عدم حضوره » . ثم أضافت وهى تجول بنظراتها حول الغرفة : « أفلا تعلمون ما سوف نفعل سيداتى وسادتى ؟ هلموا بنا إلى الحديقة . فلا يزال بيننا وبين الغداء ساعة أو بعض الساعة ، والجو بديع » .
ونفض الجميع وخرجوا إلى الحديقة .

وكانت حديقة السيدة لاسونسكايا تمتد حتى ضفة النهر . وقد كثرت فيها الطرق تحف بها أشجار الزيزفون العتيقة . بلونها الذهبى الداكن ورائحتها الذكية .

وتنحسر أطراف هذه الأشجار عن فرج بدت كهالات خضر زمردية . وحفلت الحديقة أيضاً بأشجار السنط والليلق .

ومضى فوليتسيف . في صحبة ناتاليا والآنسة بونكور . إلى أكثف مكان في الحديقة . وسار في سكون إلى جوار ناتاليا ، وتبعهما الآنسة بونكور متخلفة بضع خطوات .

وسأل فوليتسيف آخر الأمر . وهو يجذب طرفي شاربه الأصهب الجميل :
« ماذا كنت تفعلين اليوم ؟ »

وكانت ملامحه تشبه ملامح أخته شياً عجيباً . إلا أنها كانت أقل حياة وتعبيراً . أما عيناه الجميلتان الرقيقتان فقد كانت تعلوهما مسحة من حزن . وأجابت ناتاليا : « أوه . لا شيء . فقد أصغيت إلى زفرات بيجاسوف . وقت ببعض أشغال التطريز على قطعة من النسيج الخشن . وقرأت كتاباً »
« وأى كتاب كنت تقرئين ؟ »

فأجابت ناتاليا في تردد : « كنت أقرأ . . . كتاباً في تاريخ الحروب الصليبية »
ورمقها فوليتسيف بنظرة . ثم قال آخر الأمر : « آه ! لا بد أنه كان كتاباً ممتعاً »
وقطع غصناً وأخذ يلوح به في الهواء . ثم سارا عشرين خطوة أخرى .
وسألها قائلاً : « من هذا البارون الذى تعرفت به أمك ؟ »

« إنه سيد من القاعين على مخدع جلاله القيصر . وقد جاء حديثاً إلى هذه الناحية . وأمى تثنى عليه ثناءً عظيماً »

« من السهل التأثير على أمك »

فقالت ناتاليا : « هذا يدل على أن قلبها مازال شاباً »

« أجل . وسأعيد إليك فرصك عما قريب . فقد كاد تدريجياً ينتهى . وإني لأود أن أعلمها كيف تشرع في العدو . وهذا ما اتويت أن أفعله »

« شكراً لك . ولكن القلق يساورني في هذا الشأن . فإنك تروضها بنفسك . . . ويقولون إن من الصعب جداً . . . »

« أنت تعلمين يا ناتاليا ألكسييفنا أنني مستعد لتلبية أقل رغبة تبدر منك . إني مستعد . . . إني . . . ولا يقتصر ذلك على هذه الأمور الهينة . . . »

وتهدج صوت فوليتسيف فتوقف عن الكلام .

ورمقته ناتاليا بنظرة امتنان وعادت تقول له : « شكراً لك »

وقال فوليتسيف بعد وقفة طويلة : « إنك تعلمين أنني لم أفعل شيئاً . . . ولكن لماذا أقول لك هذا ؟ أنت تعرفين كل شيء »

وفي تلك اللحظة دق جرس في المنزل

وصاحت الآنسة بونكور قائلة : « آه ! جرس الغداء . فلنعد »

وحدثت السيدة الفرنسية العجوز نفسها وهي ترقى درج الشرفة في أعقاب ناتاليا وفوليتسيف : « واخساراتاه . واخساراتاه أن يكون معين هذا الغلام الظريف في الحديث ناضباً إلى هذا الحد » . ويمكن أن تترجم هذه العبارة : « إنك لظريف يا عزيزي ولكنك تبعث في نفسى الملالة والسأم » .

ولم يأت البارون لتناول الغداء . وانتظره الجميع نصف ساعة ، وقر الحديث الذى كان دائراً حول المائدة . ولم يفعل فوليتسيف شيئاً إلا أن يرمق ناتاليا بنظراته . وقد جلس إلى جوارها . وأخذ يملأ قدها بالماء في غيرة وحاسة . وحاول بندالفسكى من غير طائل أن يروح عن جارتة ألكسندره بافلوفنا . وكاد يذوب

رقعة وعذوبة ، على حين أخذ يستبد السأم بها حتى همت بأن تتشاءب .
 وجلس باستوف يدحرج كريات الخبز . وقد خلا عقله . أما بيجاسوف نفسه
 فقد التزم الصمت . ولاحظت السيدة لاسونسكايا أنه لم يكن ذلك اليوم في كامل
 أنسه . فأجابها في خشونة : « وهل كنت دائماً أبدو أنيساً ودوداً ؟ إن هذا ليس من
 طبعي . . . » . ثم أضاف في تهكم لاذع : « صبراً قليلاً ، فما أنا إلا بعض الجمعة .
 الجمعة الروسية الرخيصة . أما السيد صديقك الذى يقوم على منحدر صاعب
 الجلالة . . . »

وصاحت السيدة لاسونسكايا قائلة : « مرحى ! إن بيجاسوف رجل غيور !
 بل هو يغار مقدماً ! »

وقطب بيجاسوف حاجبيه ولم ينبس ببنت شفة .
 ودقت الساعة معلنة الساعة ، واكتمل عقد الجماعة في غرفة الاستقبال مرة
 أخرى .

وقالت المضيفة : « أظن أنه لن يأتى »

على أنه ترامى إلى مسمهم كركرة عرية . ودلفت إلى الساحة عربة صغيرة ،
 ودخل خادم غرفة الاستقبال بعد بضع دقائق . وناول سيدته رسالة حملها على
 صفحة من فضة ، فقرأتها ثم رفعت عينها إلى الخادم وسألته : « أين السيد الذى
 جاء بهذه الرسالة ؟ »

« إن السيد فى عربته . هل أدعوه إلى الدخول يا سيدتى ؟ »

« افعل »

وخرج الخادم

وقالت السيدة لاسونسكايا : « يا للخجل ! تصوروا أن البارون قد تلقى أمراً بأن يعود إلى بطرسبرج تَوّاً . وقد أرسل إلى مقاله مع صديق . سيد يقال له رودين . كان البارون ينوى أن يقدمه إليّ ، وقد أثنى عليه الثناء المستطاب . ولكن لشد ما يبعث هذا على المضايقة والحرج ، لقد كنت أرجو أن يبقِ البارون هنا ردهاً من الزمن . . . »

وهتف الخادم معلناً : « دميتري نيقولايفتش رودين »



الفصل الثالث

ودخل غرفة الاستقبال رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره . طويل القامة
مجعد الشعر ، بشرته في لون الزيتون ، وقد إحدودب ظهره قليلا ، وكان وجهه غير
متسق القسمات . إلا أنه كان معبراً تبدو عليه مخايل الذكاء . أما عيناه فكانتا
زرقاوين داكنتين حادتين يتجلى فيها بريق مخضل ندى . وأنفه عريض مستقيم .
وشفتاه قد سويتا في نسق جميل ، ولم تكن ملابسه جديدة بل كانت أحكم من أن
تسعه ، حتى لكأنه قد كبر عليها فلم تعد تصلح له .

وخف الرجل إلى السيدة لاسونسكايا ، وانحنى قليلا . ثم قال لها : إنه ظل
أمداً طويلا يتوق إلى شرف التعرف بها ، وإن صديقه البارون يأسف أشد الأسف
لعدم استطاعته الحضور بنفسه يستأذنها في الرحيل .

وكان صوت رودين الرفيع لا يتفق مع طول هامته وصدره العريض .
وقالت السيدة لاسونسكايا : « أرجوك أن تجلس ، وإننى لجد مسرورة
بمعرفتك » ثم قدمته إلى بقية الجماعة . وسألته هل هو من أهل ناحيتهم أو غريب
عنها ؟ .

« وأجاب رودين وقد أمسك قبعته واضعاً لها على ركبتيه :
 « إن ضيعتي في ناحية » ت . . . آيا « . ولم يمض على هنا إلا مدة وجيزة .
 فقد جئت في عمل وأنا أقيم الآن في بلدتكم »

« في بيت من ؟ »

« في بيت الطبيب . فهو صديقي الحميم منذ كنا معاً في الجامعة »
 « آه الطبيب . إنهم يثنون عليه هنا أجمل الثناء . ويقولون إنه خبير بمهنته . أو
 تعرف البارون منذ أمد بعيد ؟ »

« تعرفت به في موسكو في الشتاء الماضي . وقضيت معه الآن نحواً من أسبوع »
 « إن البارون رجل بارع جداً »

« أجل ياسيدنى »

وتشممت السيدة لاسونسكايا عقدة في منديلها المعطر بماء الكولونيا .
 وسألته قائلة : « أفى خدمة الحكومة أنت ؟ »

« من ؟ أنا ؟ »

« أجل »

« كلا . لقد اعتزلت الخدمة »

وعقب ذلك سكون دام برهة وجيزة . ثم استأنف الحديث الذى كانت
 تتجاذبه الجماعة .

وبدأ ييجاسوف يقول موجهاً الخطاب إلى رودين : « هلا تسمح لى بأن
 . أسألك ! أو تعرف شيئاً عن مضمون المقال الذى أرسله سيدى البارون ؟ »

« أجل »

« إن المقال يتناول علاقة التجارة . . . أو قل علاقة الصناعة بالتجارة في بلادنا ، أليس هذا هو وصفك للمقال يا سيدي ؟ »
فأجابت السيدة لاسونسكايا واضعة يدها على جبينها : « بلى ، هذا هو موضوعها »

ومضى بيجاسوف قائلاً : « لاشك في أنني لا أجيد الحكم على هذه الأمور ، ولكن لا مناصر لي من الاعتراف بأن عنوان المقال نفسه يبدو لي - مع الترفق في التعبير - غامضاً أشد الغموض يلتبس فهمه على الناس »
« وما الذي يجعله يبدو لك على ما وصفت ؟ »

وابتسم بيجاسوف في تهكم وسخرية ، وألقى بنظرة من طرف عينه إلى السيدة لاسونسكايا ، ثم سأل رودين ، وهو يحول إليه وجهه الشبيه بوجه الثعلب مرة أخرى : « أويبدو لك واضحاً ؟ »
« إنه يبدو لي كذلك »

« هه . . . إنك بطبيعة الحال أعلم مني بهذا »
وسألت السيدة ليينا المضيفة قائلة : « أوتشعرين بصداع ؟ »
« كلا ، إنني لا أشعر بشيء . . . ولكن هذا من شأنه أن يثير الأعصاب »
وعاد بيجاسوف يتكلم بصوت خارج من أنفه : « أوتسمح لي بأن أسألك : هل صديقك السيد البارون موغل - أظن أن هذا هو اسمه ؟ »
« تماماً »

« ترى أيعبد السيد البارون الاقتصاد السياسي مهنته ، أم تراه لا يكرس لهذا الموضوع الذي يستفرغ الجهد لإساعات الفراغ التي تبقى له بعد استمتاعه

بجياته الاجتماعية وأداء واجباته الرسمية ؟ »

ونظر رودين إلى بيجاسوف نظرة فاحصة .

فأجاب رودين وقد احمرَّ وجهه قليلاً : « إن البارون من المولعين بهذا

الموضوع . ولكن مقاله فيه شيء كثير من الحقيقة والفائدة »

« لا أستطيع أن أناقشك في هذا لأنني لم أقرأ المقال ، ولكنني أنجراً فأسألك :

ألا يتحمل أن يكون مقال صديقك البارون موفل قد اقتصر على عرض المقترحات

العامة أكثر من اقتصاره على الحقائق ؟ »

« إن المقال يشمل حقائق ومقترحات قائمة على حقائق »

« ليكن ما تقول ، ولكن دعني أنبتك بأن من رأيي - وأنا أستطيع أن أجاهر

بهذا الرأي عند الاقتضاء لأنني قضيت ثلاث سنوات في جامعة دوربات - أن كل

هذه الأمور التي يسمونها مقترحات عامة ونظريات ونظماً وما إلى ذلك - وأرجو أن

تلتمس لي العذر ، فإنني قروى ولا أحب أن أتأثق في الحديث - ما هي إلا عبث في

عبث ، بل هي جميعاً ليست إلا سفسطة أريد بها الضحك على ذقون الناس

لا أكثر ولا أقل . فلنذكروا لنا الحقائق المجردة أيها السادة ، ثم لتقفوا عندها ! »

وأجاب رودين : « حقاً ؟ ألا يجب أن نذكر أيضاً مدلول هذه الحقائق ؟ »

واسترسل بيجاسوف قائلاً : « مقترحات عامة ؟ إنها كفيلاً بالقضاء على :

مقترحات ، ونجوت واستنتاجات ! إن ذلك جميعاً يقوم على المعتقدات . وكل

امرئ يتحدث عن معتقداته ، ويطلب لها الاحترام ، ويثير ضجة حولها

أف ، أف ، »

وهز بيجاسوف قبضته في الهواء ، وضحك بندالفسكي ضحكة مكتومة .

وتتم رودين : « حسن جداً ! إذن فأنت تؤكد أنه لا وجود للمعتقدات ؟ »

« نعم ليس لها وجود »

« هل هذا هو معتقدك ؟ »

« أجل »

« إذن كيف تقول : ألا وجود للمعتقدات ؟ هاك معتقداً ، ولنبدأ به »

وابتسم جميع من الغرفة وتبادلوا النظرات .

وشرع بيجاسوف يقول : « مهلا ، مهلا ، مهلا ! اسمح لي . . . »

ونكن السيدة لاسونسكايا صفقت يديها وصاحت : « مرحى ! مرحى ! لقد

حلت الهزيمة ببيجاسوف ! » ، وتناولت قبة رودين بلطف من بين يديه .

وقال بيجاسوف في تبرم وضجر : « لا يستخفك الطرب بهذه السرعة ، فليس

يكفى النطق باللمحة في استعلاء ، وإنما يجب على المرء أن يثبت ما يقول ويدحض

الحجة بالحجة . . . لقد خرجنا عن الموضوع الذى يدور حوله النقاش »

فقال رودين ببرود : « إن الأمر هين يسير . فأنت لا تؤمن بفائدة المقترحات

العامة ، ولا بالمعتقدات . . . »

« أجل ، فأنى لا أؤمن بشيء »

« حسن جداً ، إنك لمن الشكاك »

« لا أرى داعياً لاستعمال هذا اللفظ الذى تعارف عليه أهل العلم ، وإنى إذ

أؤمن فى النظر . . . »

فتدخلت السيدة لاسونسكايا قائلة : « لا تقاطعه بعد »

وقال بندالفسكى فى هذه اللحظة محدثاً نفسه : « أمسك به ! ياله من

كلب أمين ! » ، وأشرق وجهه سروراً .

ومضى رودين يقول : « إن اللفظ يحمل المعنى الذى أريد ، وأنت تفهمه .
فلماذا لا أستخدمه ؟ إنك لا تؤمن بشيء . فلم إذن تؤمن بالحقائق ؟ »
« عجباً ! ياله من سؤال ! إننا جميعاً نؤمن بالحقائق ، وكل إنسان يعلم :
ما الحقائق ؟ إني أحكم عليها بالتجربة ، ونحواسى »

« ولكن ألا يمكن أن نخدعك حواسك ؟ أتقول لك حواسك إن الشمس تدور
حول الأرض ، أم تراك تخالف كوبرنيكوس ؟ ألا تصدقه هو أيضاً ؟ »
وعادت الابتسامة تملو شفاه الحاضرين جميعاً ، وتعلقت الأنظار جميعاً
برودين ، وكان كل فرد من الجماعة يقول فى نفسه « ها هو ذا الرجل من أهل
الحجا »

وقال بيجاسوف : « أرى أنك ستفوز بملحتك ، وهى ملححة لاشك عندى فى
أنها بلغت الغاية فى الأصالة والابتكار ، ولكنها خارجة عن الموضوع تماماً »
فأجاب رودين ، « ليس فى جميع ما قلته ، للأسف ، إلا شيء قليل جداً من
الابتكار ، فهو معروف للكافة منذ أمد بعيد ، وقد رده الناس من قبلى ألف مرة .
ولكن ليس هذا هو الموضوع . . . »

فسأله بيجاسوف : « وما هو إذن ؟ » ، وقد شاب صوته شيء من القحة .
وكان بيجاسوف قد جرى على أن يبدأ مناقشته بلهجة تم عن الفكاهة والمزل ،
ثم يتقلب فظاً وقحاً ، وينتهى به الأمر إلى الوجوم والإخلاء للصمت .
وقال رودين : « إنه ، ولا مناص لى من الاعتراف بأننى لا أستطيع أن أدفع
ما يخامرني من شعور صادق عندما أسمع رجلاً ذكياً يهاجم . . . »

واعترض بيغاسوف قائلاً : « النظم ؟ »

« أجل ، النظم أيضاً إن شئت ، فلماذا يروعك هذا اللفظ ؟ إن كل نظام يقوم على معرفة القوانين الأساسية ، بل المبادئ الجوهرية للحياة . . . »

« على أن هذه القوانين والمبادئ لا يمكن حقاً إدراكها أو الكشف عنها »

« عفواً ، فإنها ليست بطبيعة الحال في متناول كل إنسان ، ثم إن الخطأ من طبائع البشر . ولكنك بلا شك توافقني على أن نيوتن قد كشف على الأقل عن بعض هذه القوانين الأساسية ، ولا جدال في أنه كان عبقرياً ، على أن ما يكشف عنه العباقرة يعظم أكثر وأكثر إذا قرب للأذهان وأصبح في متناول الجميع ، والسعي الحثيث إلى استنباط المبادئ الجوهرية من الظواهر الفردية ميزة من الميزات الأصيلة التي يتسم بها العقل البشرى . . ومع كل ما حصلناه من تعلم . . . »

وقاطعه بيغاسوف وهو يثغث قائلاً : « إذن فهذا هو ما كنت تهدف إليه ! أنت رجل عملي ، ولا يعينى اللذخول في كل هذه المعضلات الخاصة بما وراء الطبيعة »

« حسن جداً ، افعل ما يحلو لك ، ولكن لا يغيب عنك هذا : إن رغبتك في أن تكون رجلاً عملياً فحسب هي في حد ذاتها نظام ، بل نظرية . . . »

فاعترضه بيغاسوف قائلاً : « لقد كنت تقول : التعلم ! شيء جميل - التعلم - يا لتعليمك الذي تباهى به من مصدر للخير الكثير ! إن تعليمك هذا لا يساوى عندي قلامة ظفر ! »

وقالت المضيئة . وقد سرت في أعماق نفسها أعظم السرور لما بدا من رزانة صاحبها الجديد ودماثة خلقه : « ما هكذا يكون النقاش يا أفريكان سمبونوفيتش ! »

وراحت تهتف بالفرنسية فيما بينها وبين نفسها ، وهي ترمق وجه رودين في اهتمام شديد ممزوج بالعطف : « هكذا يكون الرجال » ثم أردفت بالروسية : « ويجب أن أعامله معاملة كريمة »

ومضى رودين يقول بعد أن لزم السكون برهة : « ليس في نيتي أن أدافع عن التعلم ، وما هو محتاج إلى دفاعي . إنك تكرهه ، ولكل رأي ، ثم إن الجدل في هذا ينأى بنا كثيراً عن الموضوع ، ولكن اسمح لي أن أذكرك بالمثل القديم الذي يقول : « أى يوييتير ، إنك غاضب فأنت إذن مذنب ! » ، لقد كان مرامى أن أقول : إن كل هذه الهجيات على النظم والمقترحات العامة وما إليها أمر يبعث على المزيد من الأسف ، لأن الناس عامة في هجومهم على هذه النظم ينكرون المعرفة والعلم وينكرون الإيمان بهما . ومن ثم ينكرون الإيمان بأنفسهم وبما أوتوا من قدرة . والناس في حاجة إلى هذا الإيمان لأنهم لا يستطيعون الحياة بأحاسيسهم وحدها . ومن الخطل أن ينفر الإنسان من الرأى ويتشكك فيه ، ذلك أن مذهب الشك قد اتسم دائماً بالعقم والعجز »

وتتم يبجاسوف : « ما هذا إلا مجرد كلمات تقال . . . »

« ربما ، ولكن اسمح لي بأن أبين لك بالرغم من ذلك أننا عندما نقول : مجرد كلمات ، فإننا نحاول في كثير من الأحيان أن نتجنب الحاجة التي تدفعنا إلى الإيدلاء بشيء أصلح من إلقاء كلمات فحسب »

وسأله يبجاسوف وهو يزم حاجبيه : « ماذا تقول ؟ »

فأجابه رودين وقد نفذ صبره على غير إرادته ، وإن كان قد ضبط مشاعره في الحال : « لقد فهمت ما أعنى ، وهأنذا أكرر القول بأنه إذا لم يكن

للمره اعتقاد ثابت فيما يؤمن به ولا أرض راسخة يقف عليها ، فكيف يروض عقله على أن يظل مستعداً لتفهم حاجات قومه وطبائعهم ومستقبلهم ؟ وكيف يتأتى له أن يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل إذا . . . »
 وقال بيجاسوف في اقتضاب : « إني أترك لك الميدان » ، ثم انحنى وابتعد دون أن ينظر إلى أحد .

ورمقه رودين بنظرة ، وعلت ثغره ابتسامة فاترة ، ولم ينبس ببنت شفة . وقالت السيدة لاسونسكايا : « آه ! لقد ولى الأدبار ! ، لا عليك منه يا ديمتري » ، ثم أضافت في ابتسامة أعربت عن ودها : « عفوا ، ما اسم أسرتك »
 « نيقولايفتش »

« لا عليك منه يا عزيزي ديمتري نيقولايفتش ، فإنا من أحد منا قد انخدع به ، وهو يريد أن يوهنا بأنه لا يرغب بعد في المناقشة مع أنه يعلم أنه لا يستطيع أن يقارعك الحججة ، تعال ، ادن مني ودعنا نتجاذب أطراف الحديث »
 فاقترب رودين بكرسيه منها .

ومضت السيدة لاسونسكايا تقول : « كيف لم نلتق من قبل ؟ . إن هذا يدهشني . هل قرأت هذا الكتاب ؟ إنه لتوكفيل كما تعلم »
 وناولت السيدة لاسونسكايا رودين الكراسية الفرنسية .

وأخذ رودين الكيب الرفيع وقلب بعض صفحاته ثم وضعه على المائدة ، وقال إنه حقاً لم يقرأ هذا الأثر بالذات من آثار السيد توكفيل ، ولكنه كثيراً ما فكر في الموضوع الذي طرقة صاحبه ، ثم بدأ الحديث يدور بين الجماعة .

وقد بدا رودين أول الأمر متردداً لا يستطيع حمل نفسه على الحديث ، يتلمس الكلمات تلمساً ، ولكنه ما لبث أن استرد ناصية موضوعه وانطلق في الحديث انطلاقاً ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان صوته هو الصوت الوحيد الذى يرن فى الغرفة ، والتف حوله الحاضرون فى دائرة ، وظل يبجاسوف وحده مخنّباً فى ركن من الغرفة بجوار المدفأة .

وكان رودين يتكلم ببراعة وحرارة وفطنة فيكشف عن ذخيرة من المعرفة وسعة الاطلاع ، ولم يكن أحد يتوقع أن يجد فيه ذلك الرجل الممتاز النابه ، وأما ملابسه فكانت على خلاف ذلك تماما ، ولم يكن ثمّ شائعات سبقت قدومه ، وقد أخذ الكل بظهور هذا الرجل البارع بغتة ، ولا نستثنى من ذلك أهل الريف أيضاً ، وعدوه أمراً غريباً لا يمكن تعليه ، ومن ثمّ أدركتهم الدهشة وزادت فنتهم به . وخاصة السيدة لاسونسكايا . فتأهت عجباً بأنها هى التى اكتشفته ، وكانت تفكر فعلا فى تقديمه إلى أرقى المجتمعات . ثمّ إنها كانت بالرغم من سنّها أشبه بالطفل تستجيب لأول مؤثر يحرك نفسها . أما لبيينا فلم تفهم إلا القليل من أقوال رودين ، بيد أنها أخذت به وتملكها السرور ، وكذلك أخوها ، فقد بلغ به الإعجاب كل مبلغ . أما بندالفسكى فكان يرمق السيدة لاسونسكايا بعين الغيرة ، وهتف بينه وبين نفسه : « إني لأستطيع الحصول على بلبل أحسن منه لقاء خمسمائة روبل ! »

على أن باسيستوف وناتاليا كانا أشد الحاضرين تأثراً برودين ، فقد جلس باسيستوف مبهور الأنفاس ، فاغر الفم . جاحظ العينين ، ينصت إليه كما لم ينصت إلى أحد من قبل . فى حين غمرت حمرة الخجل وجه ناتاليا وازدهت

عينها وتألقتا وهي تحقد النظر في رودين لا تبغى عنه حولا .

وهمس فوليتسف في أذنها : « ما أجمل عيني الرجل ! »

« أجل ، أليس كذلك ؟ »

« ومن أسف أن تبلغ يده من الكبر هذا المبلغ وتصطبغ عيناه بكل هذا

الاحمرار »

ولم تخر ناتاليا جواباً .

وقدم الشاي ، وجرى الحديث في موضوعات أعم ، على أن الحاضرين جميعاً

كانوا يلتزمون الصمت فجأة كلما هم رودين بالكلام مما دل على مبلغ ما كان له في

نفوسهم من سلطان .

وتملك المضيفة رغبة مفاجئة في إغاضة بيجاسوف ، فضمت إليه وقالت له

هامسة : « لِمَ لا تفعل شيئاً إلا أن تهكم وتسخر؟ حاول أن تشتبك أنت وهو مرة

أخرى » . ولم يخر بيجاسوف جواباً ، فأومأت إلى رودين وقالت له وهي تشير إلى

بيجاسوف : « إن ثم شيئاً آخر لا تعرفه عنه . فهو من ألد أعداء المرأة لا يني أبداً

عن مهاجمتها ، فأرجوك أن تصلح من شأنه . . . »

وهبط رودين ببصره ملقياً نظرة على بيجاسوف ، أجل هبط ببصره بالمعنى

الحرفي للعبارة ، ذلك أنه كان أطول منه رأساً وكفمين ، واهتز بيجاسوف أو كاد

حنقاً وغيظاً ، وشحب وجهه الغضوب .

وبدا حديثه متلعثماً : « إن داريا ميخائيلوفنا مخطئة ، فإني لا أخص بهجومى

النساء وحدهن ، بل إني لأحب البشر عامة » .

وسأله رودين : « وما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة السيئة عن الجنس البشرى ؟ »

فمدق بيجاسوف النظر فى عينيه رأساً وقال : « الأرجح أن يكون مرد ذلك إلى ما أبصره فى قلبى الذى يتكشف لى فيه كل يوم مزيد من الخثالات والنقايات . وأنا أحكم على غيرى بما أراه فى نفسى ، وقد يكون فى ذلك بعد عن الإنصاف ، وقد أكون أنا أسوأ كثيراً من غيرى ، ولكن لا حيلة لى فى ذلك . إنه حكم العادة ! »

فأجابه رودين قائلاً : « إبنى لأدرك ما تقول . وأشارك فى عاطفتك . وأى امرئ نبيل لم يتلهف شوقاً إلى إذلال نفسه ؟ ولكن لاصلاح فى أن يبقى المرء فى مثل هذا الموقف العسير »

فقال بيغاسوف : « أشكرك شكر العاجز على شهادة النبيل التى أضفيتها على . إلا أننى راض كل الرضا عن موقفى مهما بلغ من عسره ، ألا سحراً له ! ، فإنى لن أسعى إلى تغييره »

« ولكن هذا معناه أنك تؤثر إشباع حب الذات فىك - وأرجو أن تغفر لى هذا التعبير - على الرغبة فى أن تحقق وجودك وأن تعيش فى عالم الحقيقة . . . »

وهتف بيغاسوف : « صدقت كل الصدق ! ، فحب الذات شىء أفهمه أنا - وأنت أيضاً فيما أرجو - بل نفهمه نحن جميعاً ، فى حين أن الحقيقة . . . ما الحقيقة ؟ وأين تلك الحقيقة ؟ »

وقالت المضيفة : « لا بد لى من أن أنبهك إلى أنك تكرر أقوالك »

ورفع بيغاسوف كفيه وقال : « وماذا فى ذلك ؟ إبنى لأتساءل أين

الحقيقة ؟ إن الفلاسفة أنفسهم لا يعرفون ما هي : فإن كانت يقول : هذه هي الحقيقة ، وهيكل يقول : كلا ، لقد أخطأت بل هي تلك «
 وسأله رودين في صوت رصين : « أتعرف ما يقول هيكل عن الحقيقة ؟ »
 واندفع بيجاسوف يقول في انفعال : « أكرر لك القول بأنني لا أستطيع إدراك كنه الحقيقة ، وفي رأي أن الحقيقة شيء لا وجود له ، أي أن الكلمة موجودة ، ولكن الحقيقة نفسها لا وجود لها » .

وصاحت السيدة لاسونسكايا ! « يا للعار ! يا للعار ، كيف يصدر منك مثل هذا القول أيها المذنب العريق ؟ لا وجود للحقيقة ! إذا كان الأمر كما تقول فما الذي يبقى للمرأة حتى يعيش من أجله ؟ »

فأجابها بيجاسوف في ضيق : « إنى لأعتقد حقاً يا سيدتي أنك على كل حال سوف تؤثرين الاستغناء عن الحقيقة على الاستغناء عن طاهيك ستيان الذي يبرع كل البراعة في طهو المرق ، وأي نفع ترجينه من الحقيقة ؟ إنك لا تستطيعين أن تجعلي منها قبة ! »

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لا ينهض المزل حجة . خصوصاً إذا فاحت منه رائحة القذف » .

وتمم بيجاسوف : « لا أعلم لي بشيء عن الحقيقة الفلسفية في مفهومك ، أما الحقيقة البسيطة فهي ، فيما أرى ، لا تستساغ دائماً » ثم تسلل غاضباً !
 وراح رودين يتحدث عن الاعتزاز بالنفس حديثاً بارعاً . فقال : إن المرء لا يساوى شيئاً إذا خلا من هذه الصفة . ذلك أن الاعتزاز بالنفس هو رافعة أرشميدس التي تستطيع أن ترحز الأرض عن محورها . على أن الرجل في

الوقت نفسه إنما يكون رجلاً جديراً بهذا الاسم إذا استطاع أن يكبح جماح الغزة والكبرياء فيه . كما يكبح الفارس جماح جواده . ويضحي بنفسه لخير الجميع . وشمّ حديثه بقوله : « إن العزّة بالباطل هي الانتحار . وضحيّتها يذوى كما تذوى الشجرة العقيم . على حين أن العزّة إذا اتخذت صورة السعى الحثيث لإدراك الكمال كانت مصدر كل شيء عظيم . أجل . يجب على المرء أن يقمع غريزة حب الذات فيه حتى يهيئ لها سبيل التعبير ! »

والتفت بيجاسوف إلى باسيستوف وقال : « هلا تعيرني قلماً من الرصاص » ولم يدرك باسيستوف أول الأمر ما يرمى إليه بيجاسوف . ثم سأله أخيراً : « وفيم تطلب القلم الرصاص ؟ »

« إني حريص على تسجيل تلك العبارة الأخيرة التي فاه بها السيد رودين . فقد أنساها إن لم أسجلها . ولا شك أنك تسلم معي بأن الفوز بمثل هذه العبارة كالفوز المبين في لعبة (يرالاش) سواء بسواء . »

وصاح باسيستوف يقول في غيرة وحمية : « أي أفريكان سميونوفيتش . إن ثمّ أموراً من المنجل أن يأخذها المرء مأخذ التهكم والسخرية » ثم أولى بيجاسوف ظهره .

واتجه رودين في الوقت نفسه صوب ناتاليا . فنهضت . وقد ارتسمت على وجهها الحيرة والارتباك ، ونهض فوليتسيف أيضاً وكان يجلس بجوارها .

وأخذ رودين يقول في صوت ناعم رقيق كأنه أمير على سفر : « أرى بياناً . فهل تعزفين عليه ؟ »

فأجابت ناتاليا في تلعثم : « أجل . . ولكنني لا أجيد العزف ، إن السيد

بندالفسكى يعزف عليه خيراً منى بكثير» .

ومد بندالفسكى وجهه إلى الأمام . وقد افتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه وقال : « لا تقولى هذا يا ناتاليا أليكسييفنا . فإنك بلا أدنى ريب تجيدين العزف مثلى »

وسأل رودين قائلاً : « أو تعزف قصيدة (ملك الدردار) لشوبرت ؟ » فقالت المضيفة : « إنه يعزفها . هلا تجلس إلى البيان يا قسطنطين . أنتخب الموسيقى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

ومال رودين برأسه قليلاً رداً على سؤالها . ومر بيده على شعره كأنه يتهياً للسمع ، وبدأ بندالفسكى العزف .

ووقفت ناتاليا بجانب البيان في مواجهة رودين ، وما إن انسابت أنغام اللحن الأولى حتى تم وجهه عن جمال هادئ رزين ، وكانت عيناه الزرقاوان الداكتان تهبان في تودة ثم تستقران من حين إلى حين على ناتاليا .

وانتهى بندالفسكى من عزف المقطوعة ، ولم يعلق رودين أى تعليق . بل انجبه صوب النافذة المفتوحة ، وكان الغسق الغامر العطر قد لف الحديقة بردائه الناعم . وانبعث من الأشجار الدانية أنفاس منعشة وسنانة يغشاها لألاء النجوم تتألق في سكون يعمر القلوب بالدفء ، وكانت هذه الليلة من ليالى الصيف نشوى تهش لها النفوس وتطرب . وهدق رودين النظر في الحديقة وقد طواها الليل . ثم التفت إلى الجماعة قائلاً :

« لقد ذكرنى هذا النغم ، وهذه الليلة بأيام دراستى في ألمانيا ، ذكرنى باجماعاتنا وأغانى الحب التى كنا نشدها بليل » .

وسألته المضيقة : « هل كنت في ألمانيا ؟ »

« قضيت سنة في هيدلبرغ ، وسنة أو نحوها في برلين »

« أو كنت تلبس لبس الطلبة ؟ لقد سمعت أن لهم في تلك البلاد طريقة غريبة

في اللباس . »

« كنت أرتدى في هيدلبرغ حذاءً طويلاً بمهازين ، وسترة مزينة بالشرائط

كبسترة فرسان الجيش ، وأترك شعري يسترسل حتى يبلغ كتفي ، أما في برلين فالطلبة

يرتدون من الملابس ما يرتديه سائر الناس . . . »

وتوسلت إليه السيدة لبيينا قائلة : « أرجوك أن تقص علينا شيئاً من حياتك

وأنت طالب . . »

وكان حديث رودين في أول الأمر مخيباً للآمال بعض الشيء ، فقد خلا وصفه

من الطلاوة ، ولم يكن به ميل إلى ابتعاث المرح ، على أنه سرعان ما انتقل من سرد

تجاربه وهو في الخارج إلى الإدلاء بتعليقات شاملة عن أهمية التعليم والعلوم وعن

الجامعات والحياة الجامعية عامة ، فرسم لذلك صورة رجة بلمسات جريئة

عريضة ، وتتبع مستمعوه كلماته مصغين إليه إصغاء المستغرقين ، وكان يتحدث

حديث المتمكن القدير بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب يخاطله شيء من الغموض

أضنى على كلماته سحراً من لون خاص .

وانطلقت الأفكار من رأس رودين كالفيض مما عاقه عن التعبير عما يحول بخاطره

في لغة محددة واضحة ، فكان يأتي بالصورة تلو الصورة ، والتشبيه في إثر التشبيه ،

وكلها تتسم بالجرأة النادرة والدقة العجيبة . . كان يرتجل الكلام ارتجال المشوق

التهلف فيجيء خلواً من التلطف المعهود في المحدث المحرب المتمرس ،

ذلك أنه لم يكن يتعثر افتقاراً إلى الألفاظ ، بل كانت هذه الألفاظ تستبق إلى فيه طائفة مختارة ، حتى لقد بدا أن كل لفظ منها كان ينبعث من صميم قلبه في يسر جياشاً بكل ما يفيض به الوجدان من عقيدة واقتناع . لقد كان رودين عليمًا بسر لعله أعظم الأسرار جميعاً ، ألا وهو سحر البيان ، فكان يضرب على وتر واحد من أوتار القلب فيجعل جميع أوتاره الأخرى تدق وتهتز من حيث لا تدري ، وربما كان بعض من يصغون إليه لا يدركون مغزى ما يقول ، ولكن صدورهم كانت تنفس الصعداء ويخيل إليهم أن الحجب قد انزاحت عن عيونهم وتجلي على مرمى البصر منهم شيء متألّق لا يعرفون له اسماً ولا يستطيعون له وصفاً .

وكانت أفكار رودين جميعاً تبدو مصورة على مرآة المستقبل مما جعلها تسم بسمّة الاندفاع والشباب . كان يتكلم وهو واقف بجوار النافذة لا ينحصر أحداً بنظراته ، وقد ألهمه في حديثه تجاوب الحاضرين جميعاً معه والتفاهم إليه ، ووجود سيدات صغيرات السن ، وجمال تلك الليلة ، فانطلق في غمرة من عواطفه الجياشة المتدفقة وبلغ أقصى درجات الفصاحة ، بل الشعر . . . وكان رنين صوته ، صوته الناعم الملىء بالحرارة يزيد كلماته فتنة على فتنة ، حتى لقد بدا أن روحاً علوياً كان يتحدث من خلال شفثيه على غير علم منه . وقد تحدث رودين عن ذلك الشيء الذي يكسب حياة الإنسان القصيرة تلك القيمة الخالدة .

وختم حديثه بقوله : إني لأذكر أسطورة إسكندناوية تقول : إن ملكاً من الملوك كان يجلس في ليلة قارسة البرد مع رجاله المحاربين ، حول نار في مخزن ضويل مظلم ، وعلى حين غرة نفذ طائر صغير من باب مفتوح وخرج من باب آخر . ولاحظ الملك أن هذا الطائر شأنه شأن الإنسان في هذه الدنيا ، يخرج من الظلام

ويمضى لحظة عابرة في الضوء والدفء ثم يعود إلى الظلام ! فأجابه أكبر رجاله
سنا :

« أيها الملك ، لن يموت الطائر في الظلام بل هو يلتمس فيه عشه
صحيح أن حياتنا قصيرة حقيرة ولكن الإنسان هو الذى يأتي بكل جليل . . . فإن
إدراك المرء أنه أداة في يد تلك القوى العلوية يجب أن يصرفه عن جميع مسراته
الأخرى ، فيجد في الموت نفسه حياته ، بل عشه » .

وسكت رودين عن الكلام وأرخى بصره وابتسم ابتسامة من يشعر بحيرة
لا يدرى لها سبباً .

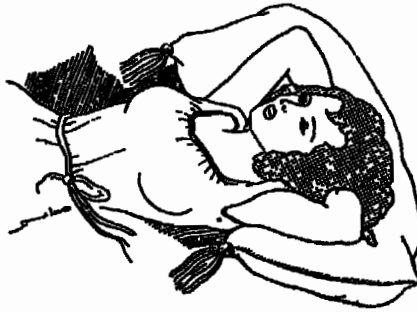
وتمت السيدة لاسونسكايا : « إنك لشاعر ! » .

ووافقها الكل على ذلك في قرارة نفوسهم ، الكل فيما عدا بيغاسوف ، فقد
تناول قبعته في هدوء ، دون أن ينتظر سماع كلمة الختام من خطبة رودين
المستفيضة ، ثم خرج وهمس إلى بندالفسكى الذى كان واقفاً بالقرب من الباب
همساً كالفحيح ملؤه الحب والحقد : « حسبي ! فإني ذاهب أسعى إلى معاشره
الحمقى والبلهاء ! »

ولم يتحرك أحد أقل حركة للوقوف بينه وبين الخروج ، ولم يلحظ أحد غيابه .
وأقبل الخادم بالغداء ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان الجميع قد
غادروا الدار في عرباتهم أو على الأقدام . وأقنعت المضيفه رودين بأن يبق
عندها ليلته . أما السيدة ليينا فقد مضت هى وأخوها في طريقها إلى الدار .
وأخذت تهف المرة تلو المرة بعبارات التعجب الكثيرة مشيدة بذكاء رودين النادر .
ووافقها فوليتسيف على أقوالها . إلا أنه لاحظ أن رودين كان يعبر عما يجول بخاطرهِ

أحياناً تعبيراً فيه شيء من الغموض ، وأضاف على سبيل الايضاح : أى بعبارات لا تفهم حق الفهم . على أن وجهه رانت عليه غشاوة وازدادت عيناه اللتان كانتا تحمقان في ركن من أركان العربة حزناً على حزن .

وخلع بندالفسكى حمالة سراويله المطرزة بالحرير قبل أن يأوى إلى فراشه ، ثم قال بينه وبين نفسه : « إنه لشاب مندفع غاية الاندفاع » . ونظر إلى غلامه على حين بغتة نظرة صارمة وأمره بمغادرة الغرفة . ولم يغمض لباسيستوف جفن تلك الليلة ، بل لم يخلع ملابسه ، وجلس حتى الصباح يكتب خطاباً إلى صديق له في موسكو . أما ناتاليا فبالرغم من أنها خلعت ملابسه وأوت إلى فراشها فإنها لم تنم هي أيضاً لحظة واحدة ، واستلقت على الفراش مفتوحة العينين ، وأسندت رأسها بيدها ، وحملت في الظلام لا تريم ، وكانت عروقها تنبض كالمحمومة ، وقد قاضت نفسها حسرات .



الفصل الرابع

ما إن انتهى رودين من ارتداء ملابسه في صباح اليوم التالي حتى جاء خادم يحمل رسالة من السيدة لاسونسكايا تدعوه فيها إلى تناول الشاي معها في غرفتها الخاصة ، وقد وجدها رودين وحدها ، واستقبلته بود ملحوظ ، وسألته : هل قضى ليلة طيبة ؟ ثم صببت له قُدحاً من الشاي بيدها ، وسألته : أيكفيه ما حلّى به القُدح من سكر ؟ وقدمت له لفافة تبغ ، ثم عادت وأعربت له مرتين أخيرين عن دهشتها من أنها لم تلقه قبل ذلك بزمن طويل . وكان رودين قد اتخذ مجلسه أول الأمر على مسافة منها ، إلا أنها أفصحت له عن رغبتها في أن يتخذ مقعده إلى جوار كرسيها ذى المسندين ، ومالت عليه قليلاً ، وراحت تسأله عن أقاربه وخططه ونواياه . وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث حديثاً عابراً ، وتنصت شاردة الذهن ، على أنه تبين لرودين بأجلى بيان أنها كانت تتلطف معه إلى حد الملق ، وأنها لم تكن بريئة من الغرض عندما دبرت هذا اللقاء بصبح ، وارتدت تلك الملابس البسيطة كل البساطة بل الأنيقة على الطراز الذى عرف عن السيدة ركاميه .

وسرعان ما كفت عن توجيه الأسئلة إليه ، وانصرفت عن ذلك إلى الحديث عن نفسها ، وعن أيام شبابها وعمن عرفت من الناس ، واستمع رودين إلى ثرثرتها بأذن واعية . ومن عجب أنها كانت وحدها تملأ رحاب الصورة التي ترسمها جميعاً بصرف النظر عن الأشخاص الذين تحدث عنهم ، أما الشخص الذي كانت تتحدث إليه فقد دفعت به إلى أعماق الصورة حتى توارى عن الأنظار .

ومع هذا فقد عرف رودين بأدق تفصيل ما قالته السيدة لاسونسكايا لهذا الشخص أو ذلك من وجهاء القوم ، وتبين ما كان لها من أثر في زيد وعمرو من الشعراء المجيدين . ولئن استمعت إلى السيدة لاسونسكايا لخيّل إليك أن جميع الأعيان الذين عاشوا في الربع الأخير من هذا القرن كانوا يجنون شوقاً إلى لقاءها ونيل اللحظة عندها .

وكانت ترفع الكلفة في الحديث عنهم كأنهم من أصدق أصدقائها ، ولا تهادى حتى يستخفها الفرح بهم أو تغنى بفضائلهم ، بل كانت تصف بعضهم بأنهم أناس غريب الأطوار . وكانت في حديثها عن هؤلاء الأعلام تتساقط أسماءهم من شفتيها كالهالة المتلألئة تلتف باسم هو شمسها ، بل هو اسم السيدة لاسونسكايا نفسها ، أو قل إن هذه الأسماء كانت كالرصيعة النفيسة تتوسطها جوهرة كريمة .

وكان رودين يستمع إليها ويدخن لفافات التبغ ، ولا يقول شيئاً إلا أن يدلّ بين حين وآخر بملاحظة قصيرة يقطع بها حاسة هذه السيدة الثرثرة وإطنابها في البيان . لقد كان رودين يجيد الحديث ويجد لذة في الكلام ، بيد أنه كان لا يجيد المحادثة وإن كان مستمعاً كامل الصفات . وكان أولئك الذين لا يبعث رودين في قلوبهم الرهبة من أول الأمر يفتحون له صدورهم في ثقة واطمئنان ، يشجعهم على ذلك

ما كان يديه من حسن الاستعداد والإقبال على متابعة خيوط رواية يقصها شخص آخر. وكانت عنده ذخيرة من طيبة النفس ، تلك الطيبة الفريدة التي نعلها في أولئك الذين يشعرون بتفوقهم وامتيازهم .
وقلما كان يسمح لمناظره في الجدل أن يغلبه على أمره ، بل كان يفحمه بمحبجه المنطقية الرصينة التي لا تدفع .

وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث بالروسية ، فتستعرض امتلاكها لخاصية لغتها الأصلية ، ولو أن حديثها كانت تتخلله المصطلحات والعبارات المأثورة الفرنسية ، وكانت تعتمد الاستشهاد بالملح الشعبية البسيطة ، ولكنها لم تكن تسوقها دائماً في الموضع المناسب ، على أن هذا الخليط العجيب من الحديث لم يقع في نفس رودين موقعاً سيئاً ، ولو أنه كان حقاً لا يلتقي بالا إلى مثل هذه الأتوال إلا في التادر .

وأدرك التعب السيدة لاسونسكايا آخر الأمر ، فأسندت رأسها إلى الوسادة الخلفية لكرسیها ذى المسندين ، والتفتت إلى رودين ، ثم لظمت الصمت .
ويدأ رودين الحديث متمهلاً : « لقد أدركت الآن سبب مجيئك إلى الريف كل صيف . إنك في حاجة إلى هذه الراحة ، فهذا الذى نجده في الريف ، بعد الحياة في العاصمة ، ينعش النفس ويقوى العزم ، وإني لعلى يقين من أنك تأنسين أعظم الأفس بمفاتن الطبيعة » .

ورمقته السيدة لاسونسكايا بنظرة من طرف عيناها .
« الطبيعة - أجل ، وبلا ريب . . . إني مفتونة بها . . . ولكنك تعلم - أى ديمترى نيقولا يفتش - أن المرء حتى في الريف لا غنى له عن صحبة ، وهو لا يكاد

يحد هنا رفيقاً ، وحسبك أن يبجاسوف هو أذكى شخص تجده في هذه الناحية » .
 « هل هو ذلك السيد العجوز الحاد الطبع الذى لقينته بالأمس ؟ » .
 « هو بعينه ، فالناس حتى في الريف يرحبون ببجاسوف نفسه » - « فهو على الأقل يسليهم » .

فقال رودين : « إن الرجل ليس أبله ، ولكنه لا يسلك السبيل القويم . ربما لا توافقينى على هذا القول يا سيدتى ، ولكن الإنكار ، الإنكار الكامل المجرد شيء عقيم . . . لا جدوى منه ، أنكرى كل شيء يحسبك الناس في يسر من الحكماء . وقد حدث هذا كثيراً من قبل ؛ ذلك أن البسطاء إنما هم على أتم استعداد للاعتقاد بأنك أسمى من الشيء الذى تنكرين ، وهذا غير صحيح في معظم الأحيان ؛ لأنك أولاً تستطيعين أن تلمسى العيوب في كل شيء ، ثم إنك لو كنت على حق فإنك لا تستطيعين التمسك بهذه العيوب في سبيل الفوز ، فالعقل الذى طبع على الإنكار يصبح متبلداً عقيماً ، ذلك أن إشباع كبرياتك يسلبك متعة التفكير الحق ، وتغيب الحياة ، بل يغيب جوهرها ، عن بصرك المحدود الذى يعميه الغضب ، وينتهى بك الأمر إلى أن تلغى كل شيء وتجعلى من نفسك سخرية في عين الناس ، وإنما المحب هو الذى يباح له النقد واللوم » .

وتمت السيدة لاسونسكايا : « ها هو ذا السيد ببجاسوف قد أهيل عليه التراب ؛ إنك لبارع في الحكم على الناس ؛ وما كان ببجاسوف ليوافقك على ما تقول ، فهو لا يجب إلا نفسه » .

فأجاب رودين : « وهو يتقده نفسه حتى يكون له الحق في انتقاد الآخرين » .
 وضحكت السيدة لاسونسكايا قائلة : « حتى يلقي اللوم . . . ترى ما نص ذلك

القول المأثور» ، وأخذت تبحث عبثاً عن نص ذلك القول ، ثم أردفت : « على أعتاب الآخرين ، وبهذه المناسبة ما رأيك في البارون ؟ » .

« إن البارون رجل فذ ، رحيم القلب ، سليم المعرفة ، لكنه عديم الشخصية ، وسيظل طول عمره عالماً متوسط الحال ، ورجلاً متوسط الخبرة بأمر الدنيا ، أى أنه من الهواة ، وإن شئت الإفصاح والوضوح فهو إمعة ، وهذا شيء يريث له ! » .
فقالت السيدة لاسونسكايا : « وهذا هو الرأي الذى كونه عنه . لقد قرأت

رسالته . . . وهى لا تقوم - بينى وبينك - على أساس متين » .

وسكت رودين برهة ثم سأها : « ألك جيران آخرون يثيرون الاهتمام ؟ » .

ونفضت رماد لفافها الباجيلا بإصبعها الصغيرة وقالت :

« لا وجود لغير هؤلاء تقريباً ، فالسيدة لبيينا التى رأيتها بالأمس ، صديقة عزيزة على ، ولكنها ليست أكثر من ذلك ، وأخوها أيضاً رجل من الأجداد ، رجل صادق كل الصدق ، أما الأمير جارين فأنت تعرفه ، وهؤلاء هم كل جيراني تقريباً ، وثمان جاران أو ثلاثة آخرون ولكنهم قليلو الشأن ، فهم إما متصنعون يملأ جوارحهم التظاهر ، وإما زاهدون انصرفوا كل الانصراف عن أمور الدنيا ، وإما على خلاف ذلك قد أمعنوا فى الإقدام والجرأة ، وأنت تعلم أننى لا ألقى أحداً من السيدات ، وثمان جار آخر يزعمون أنه ضرب فى الثقافة بسهم وافر حتى يقال إنه عالم ، ولكنه بلغ الغاية فى غرابة الأطوار واستسلم لأعجب التزوات ، وإن إلكسندرين لتعرفه حق المعرفة ويبدو أنها تميل إليه ، وما أحراك ياديمتري نيقولايفتش أن تتودد إليها ، فإنها مخلوقة تهفو إليها القلوب ، وكل ما فى الأمر أنها فى حاجة إلى شيء من التهذيب ، وهذا حقيق بأن يعود عليها بالضعف الكبير » .

وقال رودين : « إنها امرأة فاتنة حقاً » .

« إنها لطفلة بكل معاني الكلمة ياديمتري نيقولايفتش ، بل هي كالرضيع تحمله الأذرع ، لقد كانت متزوجة ، ولكن هذا كله يشبه أن . . . لو أنى كنت رجلاً ما أحببت إلا من هن على شاكلتها » .
« حقاً ؟ »

« هذا ما كنت خليقة بأن أفعله ولاشك ، فإن مثيلاتها من النساء يمترن على الأقل بالبراءة ، والبراءة شيء أصيل لا يقلد » .

فسألها رودين : « وهل ثم شيء غيرها يمكن تقليده ؟ » ثم ضحك ، وكان يتندر أن يضحك ، فإذا ضحك علت وجهه سمة عجيبة ، فبدأ كوجه الشيخ أو هو أقرب ، وضاحت عيناه وتغضن أنفه .

ثم سألتها : « ومن ذلك الشخص الغريب الأطوار ، على ما تقولين ، الذى تميل إليه السيدة ليينا ؟ »

« هو سيد يقال له ميخائيل ميخائيلوفتش ليزنيف ، وهو من أصحاب الأراضى فى هذه الناحية » .

ورفع رودين رأسه فى دهشة وقال : « ليزنيف ؟ أتقولين إنه جارك ؟ »
« أجل ، أتعرفه ؟ »

وسكت رودين لحظة ، ثم قال : « كنت أعرفه . . . منذ زمن بعيد » ، ثم أضاف وهو يشد هدب كرسيه : « وهو إن لم أك مخطئاً رجل ثرى » .
« أجل ، إنه ثرى ، وإن كان قبيح اللباس ، يتجول راكباً عربية سباق كأنه ناظر ضيعة ، ولقد حاولت أن أحمله على القدم إلى هنا ، فهم يقولون إنه رجل

ماهر ، وإن لدى بعض شئون أحب أن أتدبر فيها معه . . . وأنت تعلم أنني أدير ضيعتى بنفسى .»

وأمن رودين على كلامها بإيماءة من رأسه .

وكررت السيدة لاسونسكايا قولها : « أجل بنفسى ، فإننى لا آخذ بشيء من تلك البدع الأجنبية ، ذلك أنني أمينة على عاداتنا الروسية » ، ثم أضافت تقول : « وأنا كما ترى لا أسبى التصرف » ، وأومأت بيدها في حركة خاطفة .
وقال رودين متلطفاً : « لقد كنت أومن دائماً بأن أولئك الذين لا يسلمون بأن المرأة تدرك الأمور إدراكاً عملياً يظلمونها أشد الظلم » .

وابتسمت السيدة لاسونسكايا في بهجة وسرور ، وتمتمت : « إنك لكريم حقاً ، ثم . . . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ وأين بلغ بنا الحديث ؟ آه . نعم ؛ ليزنيف : إن لى شأننا معه يخص حداً من الحدود ، لقد طلبت إليه مراراً أن يحضر ، بل إنى في انتظار قدومه اليوم ، ولكن الله يعلم : أيجزر أم لا يجزر ؟ . . . فهو رجل غريب الأطوار كل الغرابة ! »

وأزيج ستر الباب في هدوء ودخل رئيس الخدم ، وكان رجلاً طويل القامة أبيض الشعر أصلع الرأس ، يرتدى ستر السهرة السوداء وربطة عنق بيضاء وصداراً أبيض .

وسألته سيده : « ما الخبر ؟ » ، ثم التفتت قليلاً إلى رودين ، وأردفت في صوت خفيض : « ألا يشبه كاننج حقاً ؟ »

وقال رئيس الخدم معلناً : « لقد جاء السيد ليزنيف ، فهل تأذنين له

بالدخول ؟ » -

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « ياإلهى ؛ من ذكر الشيطان ظهر له ؛ دعه يدخل ! »

وانسحب رئيس الخدم .

« ياله من شخص غريب الأطوار ، لقد جاء آخر الأمر بل جاء في وقت غير مناسب ، فقد قطع علينا حديثنا » .

ونهض رودين من مقعده ، ولكن السيدة لاسونسكايا حالت بينه وبين ما يريد .

« أرجوك ! ليس ثم ما يمنعنا من مناقشة الأمر في حضورك ، فإني أود أن تختبره كما اختبرت بيجاسوف ، ذلك أنك إذا تحدثت كنت في حديثك كمن يصور بريشة ، أرجوك أن تبقى » .

وقد هم رودين أن يرفض سؤالها ولكنه أعمل فكره لحظة ثم بقى حيث هو . ودخل الغرفة السيد ليزنيف ، الذى سبق أن قدمناه للقارئ ، وكان يرتدى السرة الرمادية نفسها التى يعلوها الغبار ويمسك بيديه اللتين لوحتهما الشمس تلك القبعة العتيقة عينها ، وانحنى فى سهولة ويسر مُحيياً السيدة لاسونسكايا واتجه صوب مائدة الشاى .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لقد شرفنى بزيارتك أخيراً ياسيد ليزنيف ، هلا تجلس » ، ثم مضت تقول : « علمت أن كلا منكما يعرف الآخر » ، ولوحت بيدها فى اتجاه رودين .

ورمق ليزنيف رودين بنظرة وعلت شفثيه ابتسامة غريبة .

وتمم وهو ينحنى انحناء خفيفة : « إن لى هذا الشرف » .

وأمن رودين على قوله في صوت خفيض وأرخى بصره : « لقد كنا معاً في الجامعة »

فأجاب ليزنيف في برود : « وتقابلنا بعد ذلك أيضاً » .
ونظرت السيدة لاسونسكايا إلى الرجلين نظرة الحيرة ، ودعت ليزنيف إلى
الجلوس ففعل ، وقال : « لقد أردت مقابلتي في شأن الحد ؟ »
« أجل ، الحد ، ولكنني أردت أيضاً أن أراك ضيفاً على ألا يجمع بيننا الحوار
الوثيق . . . بل أكاد أقول القريبى ؟ »

فأجاب ليزنيف : « شكراً جزيلاً ، أما بخصوص الحد فقد سويت الأمر تماماً
مع ناظر ضيعتك ، وقبلت جميع اقتراحاته » .
« علمت هذا »

« على أنه قال لى : إن الأوراق لا يمكن التوقيع عليها إلا إذا لقيتك
شخصياً » .

« أجل هذه هى السنة التى أسير عليها ، وهذه المناسبة اسمح لى أن أسألك . . .
أوقد جرى عيدك كافة على استئجار أراضيك بإيجار ثابت ؟ »
« بالضبط »

« ومع ذلك تلح فى تسوية مسألة الحدود؟ إنه لكرم منك عظيم » .
والترم ليزنيف الصمت لحظة ، ثم قال : « وهكذا جئت لألقاك شخصياً » .
وابتسمت السيدة لاسونسكايا فى تأفف وقالت : « إني لأدرك ما ترمى
إليه . . . ويستبين من لهجتك أنك بلا شك قد ترددت كثيراً فى زيارتى » .
وأجابها ليزنيف بفتور : « إني لأزور أهدأ » .

« لا تزور أحداً؟ ولكنك تزور ألكسندره بافلوفنا ! »

« إن أخواها من أصحابي القدامى »

« أخواها ! إنني لا أستطيع بطبيعة الحال أن أفرض صحبتي على أحد ، عفواً يا ميخائيل ميخائيلوفيتش ، اسمح لي بحكم تقدمي عليك في السن أن عليك بشيء من اللاتمة : ما الذي يدعوك إلى أن تعيش عيشة الناسك ؟ سبب ذلك أنك لا تحب متزلي ، أو أنك لا تحبني ؟ .

« أنا لا أعرفك ياسيلقي حتى أبغضك ، وبيتك بيت رائع ، لا أكرمك أنني أكره أن أحمل نفسي ما لا تطيق ، ولا يفوتك أنني لا أملك للسهرة ولا قفازاً ، ثم أنني لا أمت بصلة إلى جماعتك » .

« ولكنك تمت إليها بصلة ، تمت إليها بحسبك وتعليمك ! إنك واحد م

« ليس للحسب وللالتعليم دخل في هذا . . . » .

« إن على المرء أن يصاحب من هم على شاكلته ، أى متعة تجدها في

كديوجين إلى برميله ؟ »

« ذلك أنه كان ينعم فيه بالراحة التامة ، ثم ما الذي يدعوك إلى الظن

أنجذب من هم على شاكلتي ؟ »

وعضت السيدة لاسونسكايا شفها وقالت : « هذا أمر آخر ! ولم يبق لي أبدي أسنى لأنني لم أحظ بشرف اللخول في زمرة من تشرفهم بصحبتك

وتدخل رودين في الحديث قائلاً : « يبدو لي أن السيد ليزنيف يغالي

جنوحه إلى تلك العاطفة المحمودة المشكورة ألا وهي حب المرء لحيثه الشخصية

ولم يعلق ليزنيف بحرف على ما قاله رودين ، واكتفى بأن رمقه بنظرة ، ثم ساد
السكون لحظة .

وقال ليزنيف وهو ينهض من مقعده : « وهكذا يمكنني أن أعد موضوعنا
منتهياً ، ولتأمرى ناظر ضيقتك بأن يرسل إليّ الأوراق » .
« أجل يمكنك . . . ولو أنك بلغت من الخشونة ما يحملني حقاً على أن أرفض
اقتراحك » .

« عجباً ، إن الحد الجديد يعود عليك بخير أكثر بكثير مما يعود على » .
وأنت السيدة لاسونسكايا الكلام في هذا الموضوع بهزة من كنفها .
وسألته : « هلا تنتظر حتى تفطر معنا »
« شكراً جزيلاً ، إني لا أتناول الفطور أبداً ، ثم إنني أتعجل العودة إلى
المتزل » .

ونهضت السيدة لاسونسكايا وقالت وهي تعبر الغرفة إلى النافذة : « لن أؤحرك
بل إني لا أجرؤ على تأخيرك » .

وشرع ليزنيف ينحني منتهياً للانصراف .

« إلى اللقاء ياسيد ليزنيف ! لا تواخذني ، فقد أثقلت عليك » .

فقال ليزنيف : « حاشا » ، ثم غادر الغرفة .

وهتفت السيدة لاسونسكايا ملتفتة إلى رودين : « أرايت ؟ لقد بلغني أنه رجل
غريب الأطوار ، ولكن ما بدا منه يجاوز الحد حقاً ! » .

فقال رودين : « إنه هو وبيجاسوف مريضان بالمرض نفسه ، وهو والرغبة في أن
يكونا بدعاً بين الناس . فذاك يتظاهر بأنه إبليس ، وهذا بمتهكم ساخر لا يابه

بشيء ، وفي موقف كل منها كثير من « الأنانية » ، وكثير من الخيلاء ، وقليل من الصدق . وقليل من الحب . وهما في الحق موقفان يقومان على خطة موضوعة وتدبير مرسوم ، فالقناع الذي يشف عن عدم الاكتراث والتراخي قد اتخذ لحمل الناس على الاعتقاد بأن الرجل لا محالة ينطوى على ذخيرة من المواهب . على أن النظرة الفاحصة خليقة بأن تكشف أنه عاطل من كل موهبة .

وعلفت السيدة لاسونسكايا على ذلك قائلة : « وهذا يصدق على الاثنين ! لقد خلقت فيصلا في الحكم على الناس ، وما من شيء يفوتك » .

فتمم رودين : « أتظنين هذا ؟ » . ومضى يقول : « ومهما يكن من شيء فإنه يجدر بي حقاً ألا أصدر حكماً على الرجل ، فقد كنت أحبه ، أحبه حب الصديق للصديق ، ولكن ما نشأ بيننا فيما بعد من سوء التفاهم . . . »

« هل تشاجرتما ؟ »

« لم نتشاجر بالمعنى الصحيح ، ولكننا افترقنا ، وأخشى أن يكون فراقنا إلى الأبد » .

« ولهذا لم تكن على سجيبتك في أثناء زيارته لي ! ، لا عليك ، وجديري أن أشكرك على ما أتحت لي من متعة عظيمة بقضاء هذا الصباح هنا ، فقد نعمت به حقاً ، على أن الوقت يمضي بنا ، ولأتركك حراً تفعل ما تشاء حتى يحين موعد الفطور ، فلا مندوحة لي من أن أنصرف إلى شتوني ، ولاشك أن كاتب سرى الذي رأيته ، كاتب سرى قسطنطين يتظرني ، وإني لأوصيك به خيراً ، فهو شاب بارع من ذوى الفضل يقدرك أعظم تقدير . طاب صباحك يا عزيزي

ديمتري نيقولايفتش ، إنك لا تدري مقدار ما أشعر به من امتنان للبارون لأنه كان
السبب في تعارفنا ! »

ومدت السيدة لاسونسكايا يدها إلى رودين ، فشد عليها ثم رفعها إلى شفتيه ،
وخرج إلى غرفة الاستقبال ومنها إلى الشرفة ، وفيها لقي ناتاليا .



الفصل الخمس

لعل ناتاليا ، ابنة السيدة لاسونسكايا . كانت تبدو للنظرة الأولى خالية من أمارات الملاحه والجمال ، فقد كانت نحيفة ، سمراء البشرة ، محدودة الظهر قليلا ، ولم يكن قد اكتمل نضجها بعد ، على أن تقاطيعها كانت مليحة متناسقة بالرغم من أنها كانت أكبر مما يعهد في فتاة بلغت السابعة عشرة من عمرها ، وكان مما يسر الناظر إليها خاصة جبين ناصع ناعم قد علا حاجبين بديعين تقوسا تقوساً حتى لاح أن الصلة قد انقطعت بينها في الوسط . كانت تتكلم قليلا ، وتنصت في شغف وحجاسة ، ترنو إلى المتحدث بعين المتسائل كأنها تزن كل لفظ من ألفاظه ، وكانت في كثير من الأحيان تقف بلا حراك مستغرقة في التفكير ويداها إلى جانبيها عاطلتان من الحركة . وكان وجهها يعكس في مثل هذه اللحظات ما يعتمل في عقلها ، وقد تنحير ابتسامه هينة على شفيتها فجأة ثم تختفي ، وترفع عينها السوداوين الكبيرتين ، فتسأله الآنسة بونكور : « ما بك ؟ » . قائلة لها إنه لا يليق بفتاة في مقتبل العمر أن تبدو مستغرقة في التفكير شاردة اللب . ولم تكن ناتاليا شاردة اللب ، بل كانت

تدرس في جد واجتهاد ، وتقرأ وتعمل بعزم وتصميم ، وكانت مشاعرها عميقة قوية وإن كانت تخفياً ، وقد بلغ من أمرها أنها كانت حتى في طفولتها لا تصرخ إلا نادراً ، أما الآن فقلاً تنهد ، وإنما يعلو وجهها شيء من الشحوب إذا ألم بها ضيق ، وكانت أمها تعدها فتاة مؤدبة بصيرة ، وتسميها على سبيل الدعابة : « فتاتي الرجل الصادق الأمين ! » ، ولكنها لم تكن ترى أنها من أصحاب العقول النيرة الممتازة ، وقد جرت على أن تقول : « من حسن التوفيق أن ناتاليا ثابتة الجنان ، رابطة الجأش ، فهي لا تتزع مترعى ، وهذا خير لها غاية الخير ، وسوف تكون سعيدة » .

ولكن السيدة لاسونسكايا كانت مخطئة ، وهيات أن تعرف أم ابنتها إلا نادراً . ولم تك ناتاليا تتق في أمها كل الثقة على الرغم مما عرفت به من البر والمعهود في الأبناء نحو الوالدين .

وقالت لها السيدة لاسونسكايا مرة : « ليس لديك ما تخفينه عني ، ولو كان عندك شيء من ذلك لأخفيته في حنايا قلبك ، فاحفظي برأسك لنفسك » . ونظرت ناتاليا إلى أمها نظرة مستقيمة وحدثت نفسها قائلة : « وأي ضرر في أن يحتفظ المرء بأفكاره لنفسه ؟ »

وعندما عثر بها رودين على الشرفة كانت ميممة صوب غرفتها بصحبة الآنسة بونكور لتضع القبعة على رأسها وتخرج إلى الحديقة ، ذلك أنها كانت قد انتهت من دروسها الصباحية ، ولم تعد تعامل معاملة الأطفال . وكانت الآنسة بونكور قد كفت منذ زمن بعيد عن تلقينها درساً في الأساطير والجغرافيا ، ولكن ناتاليا كان مفروضاً عليها أن تقرأ كل صباح - بحضور الآنسة - كتباً في التاريخ والرحلات

وغيرها من كتب الأدب التي يقصد بها التهذيب ، وكانت هذه الكتب جميعاً تختارها أمها التي كانت تزعم أن لها طريقة خاصة بها في ذلك . والحق أن كل ما كانت تفعله هي أنها كانت تحيل إلى ناتاليا أي كتب تلتقاها من كتبى فرنسى في بطرسبرج ، فيما عدا روايات دو ماس الأصغر وأضرابه بطبيعة الحال ، لأن هذه الروايات كانت مما يسرها قراءته . وكانت نظرات الآنسة بونكور تزداد من خلف عويناتها صرامة وجموداً عن المؤلف إذا رأت ناتاليا تقرأ كتب التاريخ ، فقد كانت الفرنسية العجوز تؤمن بأن التاريخ كله حافل بالشائعات ، ومن عجب أنها كانت لا تعرف من عظماء الرجال الأقدمين إلا واحداً هو قبيز ، ولا تعرف من رجالات العصر الحديث إلا لويس الرابع عشر ، ثم نابليون الذى كانت تكرهه من صميم قلبها ، على أن ناتاليا كانت تقرأ كتباً لم تكن المريية العجوز لتشتبه حتى في وجودها ، كما كانت تحفظ بوشكين عن ظهر قلب .

وما إن رأت ناتاليا رودين حتى علا وجهها شيء من حمرة الخجل .

وسألها قائلاً : « أواخرجة أنت في نزهة ؟ »

« نعم في الحديقة »

« أفلا تسمحين بأن أصحبك ؟ »

فنظرت ناتاليا إلى الآنسة بونكور

وأجابت العانس العجوز في خفة : « بكل تأكيد ياسيدى بكل سرور » .

وخلع رودين قبعته وتبعها إلى الحديقة .

وشعرت ناتاليا أول الأمر بالحرج ، وهى تسير مع رودين جنباً إلى جنب في طول

المشى الضيق . ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وسألها عن دروسها

وعن مقدار حبها للحياة في الريف ، وكان يخالط ردودها خلجة من خلجات التهيّب . ولكن هذه الردود كانت خالية من ذلك التهيّب المثير للقلق الذي يتخذ في كثير من الأحيان دليلاً على الاحتشام ، أو قل إن هذا هو المقصود به حقاً . وكان قلبها ينبض بشدة .

وسألها رودين ، وهو ينظر إليها من طرف عينيه نظرات شملتها كلها : « ألا تجدين الحياة كثيية في الريف ؟ »
 « وكيف يمكن أن تكون كثيية ؟ لشد ما يثلج قوادي أن نقيم هنا . إنني لجد سعيدة هنا » .

« سعيدة .. هذا شيء عظيم ، ولكنه شعور طبيعي ، فما زلت في مقتبل العمر » .

ونطق رودين هذه الكلمة الأخيرة نطقاً عجيباً - شابه شيء من الحسد أو من الرثاء - وقال : « آه ، الشباب ! إن الهدف الأخير للعلم هو أن يبلغ عن وعى ما وهب للشباب بلا مقابل » .

وتفرست ناتاليا في رودين ولم تكن قد أدركت ما يرمى إليه . ومضى يقول : « لقد قضيت هذا الصباح في حديث مع أمك ، إنها امرأة لا نظير لها بين النساء ، وقد أدركت الآن السبب في أن شعراءنا يعترفون بصداقتها » ، ثم أضاف بعد لحظة : « أو مغرمة أنت بالشعر ؟ » .
 وحدثت ناتاليا نفسها قائلة : « إنه يضعني موضع الاختبار » . ثم قالت :
 « أجل ، إني مغرمة به جداً » .

« إن الشعر لغة الآلهة ، وأنا شخصياً أحب النثر ، على أن الشعر لا يقتصر على

القصاصد ، بل هو يحل في كل مكان ويحيط بنا من كل جانب . . . انظري إلى تلك الأشجار ، وإلى هذه السماء ، إن كل شيء ينطق بالجمال وينبض بالحياة ، وحيثما ان الجمال والحياة كان الشعر» .

واسترسل يقول : « هيا بنا نجلس هنا ، على هذه الأريكة . . . أجل ، إني لأعتقد أنك كلما ازددت إلفاً لى . . . » ، واستقرت عيناه الباسماتان على وجهها ثم أتم حديثه . « . . . غدونا صديقين ، ألا تعتقدين هذا ؟ »

وعادت ناتاليا تحدث نفسها قائلة : « إنه يعاملنى كما لو كنت تلميذة » ، ثم سأله دون أن تدري ما تقوله : هل ينوى الإقامة فى الريف طويلاً ؟ .

« ضوال الصيف والحريف ، وربما الشتاء أيضاً ، فإني كما تعلمين لست غنياً بحال من الأحوال ، وظروفى سيئة ، ثم إننى قد تعبت من التجول بين الأماكن المختلفة ، وآن لى أن أستريح » .

وتملكك الالهة ناتاليا ، فسألته فى خجل : « أوتعتقد حقاً أنه قد آن لك أن تستريح ؟ » .

وواجهها رودين قائلاً : « ماذا تعنين بهذا السؤال ؟ »

فأجابت فى شيء من الارتباك : « أقصد أن غيرك قد يستريح ، أما أنت . . . فينبغى لك أن تعمل وتحاول أن تكون نافعاً . عجباً ، إن لم تفعل ذلك فمن يفعله غيرك ؟ . . . » .

وقاطعها رودين قائلاً : « شكراً لك على حسن ظنك ، أن يكون المرء نافعاً . . . أمر يسهل التحدث به ، ثم مر بيده على وجهه ، وكرر قوله : « أن يكون المرء نافعاً . . . إننى لو آمنت إيماناً راسخاً بأننى أستطيع أن أكون نافعاً على وجه من

الوجوه ، أو أوتيت الثقة بنفسى فأنى لى أن أجد القلوب المخلصه التى تتجاوب
معى . . . ؟ .

وأوماً رودين بيده إيماءة اليائس ، وبدا عليه ما يبدو على القانط للمهور ، حتى
إن ناتاليا لم تجد بدأ من أن تسائل نفسها ، أكانت الأحاديث الحماسية الزاخرة
بالأمل التى صدرت عنه فى الليلة الماضية ، أحاديثه حقاً ؟ .

وهتف ، وهو يلقى إلى الوراء يجمته التى تشبه معرفة الأسد : « بل حاشا ! فإن
ذلك كله هراء ، وإنك لعلى حق ، أشكرك يا ناتاليا ألكسييفنا . أشكرك من صميم
قلبي » ، ولم تدر ناتاليا قط علام يشكرها . « إن كلمة منك قد ردتنى إلى واجبي ،
وهدتنى الطريق الذى يجب على أن أسلكه ، أجل . ينبغي لى أن أعمل . ويجب
ألا أخنى موهبتى ، إن كانت لى موهبة . يجب ألا أبدد جهدى فى الحديث وحده
بل فى ثرثرة تافهة عقيم ، وكلمات لا تعدو أن تكون كلمات وحسب . . . » .

وتحدثت كلماته كالسيل ، وكان يتحدث عن خزيره من جنبه وكسله . وعن
حاجته إلى العمل حديثاً بديعاً حاراً مقنعاً ، وقد أنهال على نفسه باللائمة فوق
اللائمة ، قائلاً : « إن المرء إذا تحدث عمّا يفعل قبل أن يفعله جلب على نفسه
الضر ، وكان مثله كمثل من يبخز ثمرة على وشك التضج بدبوس . فإن فى ذلك
مضيعة للجهد وعصير الحياة أية مضيعة ، وقد أقسم بأن الفكرة النبيلة خليقة بأن
تجتذب القلوب . وأن أولئك الناس الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو لا يستحقون
أن يفهمهم أحد - هم وحدهم الذين لا يجدون من الناس إقبالا على تفهم
ما يريدون .

وتحدث رودين فى ذلك حديثاً مفصلاً ، ثم ختم حديثه بشكر ناتاليا مرة

أخرى ، ثم ضغط على يدها ضغطاً أخذها به على غرة تماماً ، وقال : « يالك من مخلوقة جميلة نبيلة ! »

وقد روعت هذه الحرية الآتية بونكور ، فإنها بالرغم من السنين الأربعين الحاملة التي قضتها في روسيا كان يتعذر عليها فهم اللغة الروسية ، وإنما كانت تعجب بذلاقة لسان رودين التي تحلب القلوب ، وطلاقة حديثه الأخاذ ، مما جعله يبدو في نظرها كالمغنى الخبير بأصول الغناء أو كالممثل ، وكانت مقتنعة بأنه يتعذر على المرء أن يتوقع من قوم على شاكلة هؤلاء أن يراعوا مقتضيات الأدب والاحتشام .

ثم نهضت ، وأصلحت من شأن ثوبها بحركة مفاجئة ، وقالت لئاتاليا : إن الوقت قد حان ليأووا إلى المنزل ، وخاصة أن السيد فوليتسوف (وهذا هو الاسم الذي كانت تطلقه على فوليتسوف) قد وغد بتناول طعام الإفطار معهم . وهتفت ، وهي تنظر إلى طريق من الطرق التي تؤدي من المنزل إلى الحديقة : « عجباً ، ها هو ذا قد أقبل ! » .

والحق أن فوليتسوف كان قد ظهر على بعد قليل منهم . واقترب فوليتسوف في حُطًى مترددة وانحنى لهم عن بعد ، ثم التفت إلى نأتاليا وعلى وجهه أمارات الألم وقال : « آه ! إنك تترهين ! » . وأجابت نأتاليا : « أجل ، وقد كنا على وشك العودة » . فقال فوليتسوف : « آه ! حسناً ، هلموا بنا إذن » ، ومضوا جميعاً صوب المنزل .

وسأل رودين فوليتسوف ، وفي صوته نبرة عجيبة يشيع فيها الود : « كيف

حال أختك ؟ » ، وكان في الليلة الماضية قد حدثه أيضاً حديثاً مفعماً بالود .
« شكراً ، إنها بخير ، وقد تحضر إلى هنا اليوم ، أظن أنكم كنتم تتناقشون في أمر
من الأمور عندما جئت » .

« أجل ، كنت أتحدث حديثاً غاية في الإمتاع مع ناتاليا ألكسييفنا ، ولقد
ذكرت شيئاً أثّر فيّ أثراً بليغاً » .

ولم يسأل فوليتسيف ما عسى أن يكون هذا الشيء ، وعاد الجميع إلى منزل
السيدة لاسونسكايا في سكون شامل .

* * *

واجتمع الضيوف مرة أخرى في غرفة الاستقبال قبل الغداء ، إلا أن يجاسوف
لم يحضر ، ولم يكن رودين في أحسن حالاته ، وراح يطلب من بندالفسكي أن
يعرف شيئاً من ألحان بيتوفن . وكان فوليتسيف يحملق في الأرض في صمت
وسكون ، ولم تترك ناتاليا جانب أمها ، وكانت تستغرق في التفكير حيناً ، وتطرز
حيناً آخر ، ولم يستطع باسيستوف أن يتزعج نظراته المستقرة على رودين وكله انتظار
لحكمة ينطق بها ، وهكذا انقضت ثلاث ساعات في ملل لا يخفف من وقعه شيء ،
ولم تأت السيدة ليبينا لتناول الغداء ، أما فوليتسيف فإنه لم يلبث أن أمر بإعداد
عربته الصغيرة بمجرد أن تركت الجماعة مائدة الطعام ، وانطلق إلى الخارج دون أن
يودع أحداً .

لقد أثقل الحزن قلبه لأنه كان يجب ناتاليا منذ أمد بعيد ، على أنه لم يستطع أن
يحمل نفسه على التقدم إليها طالباً يدها . لقد كانت تنظر إليه بعين العطف والرعاية
ولكن قلبها كان خالياً لا يعكس صفوه شيء : وكان هو يرى ذلك مجلاء ووضوح .

ولم يكن يراوده أمل في أن يثير في قلبها ما يزيد من حديها عليه ، وإنما كان ينتظر الساعة التي تألفه فيها كل الألفة وتنجذب إليه بحكم العادة . وإذن ففهم كل هذا الانزعاج الذي أصابه ؟ وأي تغيير لاحظته في ذينك اليومين ؟ إن ناتاليا تعامله كما كانت تعامله من قبل بلا تغيير ولا نقصان . . .

وسواء كان قد ألمت به فكرة حملته على الظن بأنه لا يعرف شيئاً عن أخلاق الفتاة ، أو توهم أنها كانت غريبة عنه أكثر مما حسب ، أو كانت عقارب الغيرة قد دبّت في قلبه وتسلمت عليه هواجس غامضة ، فإن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً ، فقد كان يتألم بصرف النظر عما بذله من جهد كبير في قلبه الأمر بينه وبين نفسه . ولحق بأخته في غرفتها فوجدها مع ليزنيف .

وسألته : « لِمَ عدت مبكراً كل هذا التبكير ؟ »

« إنني شعرت بالسأم فحسب » .

« وهل رودين هناك ؟ »

« أجل » .

وألقى فوليتسيف بقبعته واتخذ لنفسه مقعداً ، والتفتت إليه أخته في لطفة قائلة : « أرجوك أن تعاونني يا سرجي على إقناع هذا الرجل العنيد . . . » ، ثم أشارت إلى ليزنيف . « . . . بأن رودين على حظ عظيم من المهارة والفصاحة » . وتمم فوليتسيف بشيء في صوت متخافت .

وقال ليزنيف : « أنا لا أجادل في هذا أبداً ، ولا . . . يجالجنى أقل شك في

مهارة السيد رودين وفصاحته ، وكل ما أقوله إنه لا يروق لي » .

وسأله فوليتسيف : « أو قد رأيتك إذن ؟ »

« رأيت هذا الصباح في منزل السيدة لاسونسكايا ، وأنت تعلم أنه الآن صاحب اللحظة الكبرى عندها ، وسوف يأتي اليوم الذي تفرق فيه عنه أيضاً - ذلك أنها لن تفرق عن بندالفسكى وحده - ومع ذلك فهو الآن صاحب اللحظة إلى أن يحل ذلك اليوم . أجل رأيت ! لقد كان يجلس عندها وهي تعرضني عليه . فتأمل ياسيدى الفاضل فيمن عندنا هنا من أشخاص غريبى الأطوار ! إننى لست حصان سباق ، ولم أعود أن أحمل على السير متبخترًا أمام الناس يستعرضوننى ، ولذلك غادرتها من فورى » .

« وما الذى رمى بك إلى هناك ؟ » .

« ذهبت من أجل تلك المسألة الخاصة بالحد ، ولكن هذا كله كان شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، وكل ما فى الأمر أن نفسها تاقت لرؤية سحنة وجهى ، وإن ذلك لتزوة تملك كما تعلم نفس سيدة عظيمة » .

وهتفت السيدة ليينا تقول فى لهجة تفيض بالحرارة : « إن تفوقه فحسب هو الذى يثيرك ، وهذا شيء لا تستطيع أن تغفريه له ، وإنى لواثقة من أن قلبه يبلغ فى كماله ما يبلغه عقله ، انظر إلى عينيه عندما . . . » .

وقاطعها ليزنيف قائلاً : « لقد بلغ من كمال الخلق ما هو حقيق بالإشادة والإطئاب ! » .

« إنك تثير فى من الغضب والحنق ما يحملنى على البكاء ، ويؤسفنى حقاً أن أظل فى صحبتك بدلا من أن أذهب إلى السيدة لاسونسكايا ، إنك لا تستحق منى ذلك » ، ثم مضت تقول فى صوت باك : « ألا فلتكف عن معاكستى وحدثنى عن شبابه » .

« عن شباب رودين ؟ »

« أى نعم ، ألم تخبرنى أنك تعرفه حق المعرفة ، وأن معرفتك به ترجع إلى

سنوات طويلة ؟ »

ونهض ليزيف وأخذ يذرع الغرفة ، ثم أنشأ يقول : « أجل ، أعرفه جيداً ، أتريدين منى أن أخبرك عن شبابه ؟ حسناً جداً إذن ، لقد ولد فى ت - ف ، وكان والده من ملاك الأرض الرقيقى الحال ، ولم يلبث أبوه أن توفى وتركه وحيداً مع أمه ، وكانت من أرحم الناس قلباً ، لقد كانت تعبه ، وكان معاشها كله على الشوفان فحسب ، وقد أنفقت عليه ما كان لديها من مال . وتعلم رودين فى موسكو ، على نفقة عم من أعمامه أول الأمر ، فلما ترعرع وبلغ أشده ، واصل تعليمه على نفقة أمير ثرى صغير السن نفذ إلى قلبه بخله ومكره - حسناً ، وإنى لأرجو عفوك ! - لقد فاز بصداقته ، ثم التحق بالجامعة ، ولقيته فيها وأصبحنا صديقين حميمين ، وسأحدثك فى وقت آخر عن حياتنا فى تلك الأيام ، أما الآن فلا أستطيع ذلك ، ثم سافر رودين إلى الخارج . . . » .

ومضى ليزيف يذرع الغرفة ، وكانت السيدة ليبينا تتبعه بعينها .

ثم أردف يقول : « ولم يكتب رودين إلى أمه وهو فى الخارج إلا فى الأقل النادر ، ولم يزرها إلا مرة واحدة زيارة استغرقت عشرة أيام أو نحوها ، وماتت السيدة العجوز فى غيبته بين يدى بعض الغرباء ، ولم تحول نظراتها عن صورته حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ، وكثيراً ما زرتها وأنا أقيم فى ت - ف ، وكانت امرأة عجوزاً غاية فى الطيبة والكرم ، وقد ألفت أن تقدم لى مرعى الكرز ، وكانت مشغوفة بابنها ديمترى ، ويحدثك السادة معشر بخوريق أننا نحب دائماً أولئك

الذين يعجزون هم أنفسهم عن الحب ، ولكننى أعتقد أن جميع الأمهات يجبن أولادهن وخاصة إذا كانوا بعيدين عنهن .

ثم قابلت رودين فى الخارج بعد ذلك ، وقد وثقت صلتها به هناك سيدة متحذلقه عجوز من مواطناتنا قبيحة قبح الجورب القديم ، وأبقاها طوع أمره مدة طويلة جداً ، ثم هجرها . . . أو على الأصح ، وأرجو عفوك ، هجرته هى . ثم هجرته أنا ، وهذه هى القصة كلها .

والتزم ليزنيف الصمت ، ومريده على جبهته ، ثم غاص فى مقعد مريح كما يفعل المرء إذا حل به التعب .

وبدأت السيدة ليبينا حديثها قائلة : « هلا علمت ياسيد ليزنيف أنك رجل خبيث ، وأنتك لا تفضل ييجاسوف فى شىء ، وإنى لأعتقد أن كل ما قلته صحيح ، وأنتك لم تأت بشىء من عندك ، ولكن ما أقسى الأسلوب الذى اصطنعته فى روايتك هذه القصة ! ، فتصورك للسيدة العجوز ، وتقديسها لابنها ، ولقاؤها الموت وحيدة ، ثم وصفك لتلك السيدة التى عرفها فى الخارج . . . ترى ما الذى دعاك إلى إلقاء هذا الضوء الكريه على هذه الصورة ؟ عجباً لك ! ألا فتذكر أن حياة خير من عاش على ظهر البسيطة طراً يمكن تصويرها بمثل هذه الألوان حتى ليرتاع منها الناس أجمعين دون أن تضيف إليها شيئاً من عندك ، ولكن هذا أيضاً تجريح للناس وقذف فى حقهم ! » .

وانتصب ليزنيف واقفاً وعاد يذرع الغرفة قائلاً : « إنى لأبعد ما يكون رغبة فى إيذاء شعورك ياسيدتى ، فليس من شيمتى أن أغتاب الناس أو أشهرهم » ، ثم فكر لحظة ومضى يقول : « لعمري إن ما قلته فيه شىء من الحق . . . إبنى لم أغتب

رودين ، ولكن من يدري ؟ ، لعله تغير منذ ذلك الحين ، وربما كنت قد ظلمته .
 « آه ! لقد أدركت هذا الآن . . . عدنى إذن بأنك سوف تجدد صداقتك له .
 وتزداد معرفة به ، ثم أنبئني برأيك الأخير فيه . »
 « كما تشائين . . . ولكن فيما سكوتك ياسرجى بافلوفتش ؟ »
 . وفزع فوليتسيف ورفع رأسه كأنما أوقف من النوم لتوه .
 « وماذا عساي أن أقول ؟ إنني لا أعرفه ، ثم إنني أشعر بصداع . »
 وقالت أخته : « إنك لتبدو اليوم شاحب اللون حقاً ، هل أنت مريض ؟ » .
 فأجاب فوليتسيف : « عندى صداع » ، ثم غادر الغرفة .
 وشيعته السيدة ليبينا والسيدة ليزنيف بعيونهما ، وتبادلا النظرات ، ولكنهما لم
 يقولا شيئاً ، أما ما كان ينوء به قلب فوليتسيف فلم يكن سراً عليهما .



الفصل السادس

وانقضى على ذلك أكثر من شهرين . وظل رودين طوال هذه المدة ملازماً منزلاً السيدة لاسونسكايا لا يكاد يبتعد عنه ، ولم تكن هي تستطيع شيئاً بدونه . فقد أصبح من الضرورات عندها أن تحدّثه عن نفسها وأن تنصت إلى أحاديثه ؛ وأراد يوماً أن يرحل معتذراً بنفاد نقوده ، فأعطته خمسمائة روبل ، ثم اقترضت مائتي روبل أخرى من فولينتسف .

وعاد بيجاسوف لايזור بيت السيدة لاسونسكايا إلا لماماً ، فقد كان وجود رودين يلقى وجوده . ولم يكن بيجاسوف هو وحده الذى يشعر بطغيان شخصية رودين .

لقد كان يقول مثلاً : « إننى لأحب ذلك الحكيم ، فهو يتكلف الحديث تكلف شخصية فى رواية تصور الحياة فى روسيا ، فيقول « أنا » ويتوقف عن الحديث فى وقار ، « أنا . . أجل أنا » ، ثم إن الكلمات التى يستعملها طويلة جداً ؛ فإذا أنت عطست داهمك بالحديث وشرح لك شرحاً دقيقاً لِمَ عطست ؟ ولم

تسعل ؟ وإذا مدحك فعل ذلك كما لو كان يعلن ترقية رسمية ، وإذا شرع يعيب نفسه ، فعل ذلك في سرور واستمتاع حتى لتخال أنه لن يجرؤ على مواجهة ضوء النهار ثانية ، ولكن شيئاً من هذا لا يحدث ، بل يبدو أن ذكره لمعايبه ينعشه كما لو كان قد تناول قدحاً من الشراب الروسي اللاذع .

وكان بندالفسكى يخشى رودين ويحرص على تلمس الطريق إلى مرضاته ، أما علاقة فوليتسيف برودين فكانت غريبة ، ذلك أن رودين كان يدعوه الطاهر العفيف ويمتدحه في حضوره وفي غيبته ، ولكن ذلك لم يكن يقربه من قلب فوليتسيف الذى كان دائماً ينفذ صبره ويملكه الغيظ كلما شرع رودين يتغنى بخصاله في حضرته ، وكان يحدث نفسه قائلاً ، « أترأه يحاول خداعى ؟ » ويثور في قلبه العداة له ، وكان بالرغم عنه يغار منه من أجل ناتاليا ؛ وكان رودين أيضاً لا يكاد يشعر بالود نحوه على الرغم من أنه كان يفيض في الترحيب به ويلتمس الطريق إلى قلبه بمدح طهره وعفته ويقترض المال منه ، وكان من العسير أن نصف حقيقة شعور الرجلين عندما كان كل منهما يشد على يد أخيه مصافحاً في صداقة وود ، وينظر إلى عينيه نظرة فاحصة مستطلعة .

وظل باستتوف يعظم رودين ويتعلق بالكلمات التى تخرج من شفثيه ، وكان رودين لا يوليه من عنايته إلا القليل . وقد حدث يوماً أن قضى معه الصباح بطوله يناقش مهام الحياة ومشكلاتها العويصة ، وأثار فيه حمية وغيرة عظيمين ، إلا أنه تجاهاه من بعد ، والظاهر أنه لم يكن يسعى إلى النفوس الطاهرة المخلصة إلا بالقول دون الفعل ، ولم يأخذ رودين قط في مناقشته ليزيف الذى كان قد بدأ في زيارة السيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنه كان يتجنب الاجتماع به . وكان ليزيف من

ناحيته يعامله ببرود ، وإن كان قد امتنع عن إبداء رأيه الأخير فيه مما أغضب السيدة ليينا كثيراً ؛ فقد كانت تعجب برودين وثومن بليزنيف .

وكان كل من في بيت لاسونسكايا يلبي نزوات رودين ، ويحييه إلى أقل رغبة يبدئها ، وكان برنامج اليوم يتوقف عليه تماما ، فلم يكن القوم يخرجون في نزهة طلباً للمتعة بدونه ، إلا أنه لم يكن ممن يميلون كثيراً إلى الترهات والمسرات التي تأتي عفواً ، فكان يشترك فيها اشترك البالغين في ألعاب الأطفال ، متخذاً سمة التواضع اللطيف يشوبه شيء من السأم . على أنه كان يهتم بجميع الأمور العملية ، فكان يباحث السيدة لاسونسكايا في إدارتها لأملآكها وفي تنشئة أطفالها وفي مشكلاتها المتزلية وفي شئونها عامة ، وكان ينصت إلى خططها ويناقشها في كل تفصيل من تفصيلاتها وإن هان ، ويقترح ما يراه من وجوه الإصلاح والتجديد ، وكانت هي تنثني عليه بالكلام فحسب ، ولا تخطو بعد ذلك خطوة ، فقد كانت في المسائل المتعلقة بالعمل تأخذ بنصح ناظر زراعتها ، وكان خادماً أوكرائياً كهلاً أعور طيب السريرة وإن كان صاحب مكر ودهاء ، وقد ألف أن يقول وهو يتسم ويزر عينه الواحدة : « إن عجائز الجياد هي خير من يعمل » .

ولم يكن رودين يكثر الحديث أو يطيله مع أحد بعد السيدة لاسونسكايا إلا الآنسة ناتاليا ، فقد كان يدفع إلى ناتاليا بالكتب سراً ، وينفض إليها مطامحه في ثقة واطمئنان ، ويقرأ لها الصحف الأولى من مقالاته وكتبه التي يزمع نشرها ، وكثيراً ما كانت ناتاليا تعجز عن إدراك معناها ، على أن رودين لم يكن فيما يظهر يعنيه أن تفهم عنه أو لاتفهم ، طالما أنها كانت تصغي إليه ، ولم تكن صداقته الوثيقة بناتاليا بالشيء الذي ترتاح له السيدة لاسونسكايا كل الارتياح ، فقد

كانت تحدث نفسها قائلة « آه ، لا بأس ، ولدعها تثرثر معه قليلا وهى فى الريف . فإن الطفلة تسليه ، وليس فى هذا من ضير كبير ، فإنها بلا شك ستفيد منه . أما وى بطرسبرج فإن الأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف . . . » .

وقد أخطأت السيدة لاسونسكايا ، لأن ذلك لم يكن ثرثرة طفلة ؛ فقد كانت ناتاليا تنصت فى نهم إلى كلمات رودين وتحاول أن تتبين مراميها ، وكانت تخضع أفكارها وشكوكها لحكمه ؛ كان مشيرها وهاديا ، ولم يكن قد استيقظ فيها حتى ذلك الحين إلا رأسها ، إلا أن الرأس الصغير لا يظل يتحرك من تلقاء نفسه مدة طويلة ، فما أحلى تلك اللحظات التى كانت تقضيها ناتاليا جالسة على أريكة من أرائك الحديقة فى ظل شجرة الدردار اللطيف النسبات تنصت إلى رودين وهو يقرأ لها « فاوست » لجوته ، أو يقرأ لها هوفمان أو « رسائل » بتينا ، أو يقرأ لها نوفالس ، ثم لا يلبث أن يتوقف ليشرح بعض الفقرات التى كانت فيما يبدو غامضة عليها ! وكانت ناتاليا تتكلم الألمانية بصعوبة ، كما هو شأن معظم سيداتنا الشابات ، ولكنها كانت تفهمها جيدا . وقد عمد رودين ، وهو البصير بالشعر الألمانى الجدير بالرومانتيكية عند الألمان المحيط بفلسفتهم ، إلى الانطلاق بها إلى تلك العوالم المصونة المكنونة ، فأخذت تتكشف أمام نظراتها المتطلعة جميلة يحف بها الغموض . وقاضت من بين صفحات الكتاب الذى كان رودين يحمله بين يديه صور رائعة ، وأفكار جديدة مشرقة انسابت إلى نفسها انسياب الغدير يشدو بالنغم العذب ، ومضى فى قلبها الذى هزه الفرع السامى بالمشاعر العظيمة قبس النشوة المقدسة هينا رقيقا ، ثم لم يلبث أن غدا شعلة تتوهج .

وسألته ناتاليا مرة ، وهي تجلس بجوار النافذة إلى منسج نظريتها « خبرني :
أوقد عزمت على قضاء الشتاء في بطرسبرج ؟ أليس هذا ما عولت عليه ؟ »
فأجابها رودين وقد أرخى الكتاب الذي كان يتصفحه حتى استقر على ركبتيه :
« لست أدري شيئاً عن ذلك ، وسأفعل إذا تهيأت لي الوسيلة »
وكان يتحدث حديث من فترت همته ، فقد كان متعباً ، ولم يك قد أدى عملاً
منذ الصباح .

« يجيل إلى أنك لن تعجز عن التماس الوسيلة »
وهز رودين رأسه قائلاً : « هذا ما يجيل إليك » ، ثم التفت التفاتة ذات
مغزى ، وكانت ناتاليا تريد أن تقول شيئاً ولكنها أمسكت .
ثم بدأ رودين الحديث مشيراً صوب النافذة : « انظري ، أترين شجرة التفاح
القائمة هناك ؟ لقد ناءت بثقل ما تحمل من ثمارها ووفرتة ، وإنها رمز للعبقرية
الحق » .

وأجابت ناتاليا : « بل ناءت بما تحمل لأنه لم يكن لها معين » .
« إني لأدرك ما ترمين إليه ياناتاليا ألكسييفنا ، ولكن ليس من اليسير على المرء
أن يجد له معيناً » .
« يجيل إلى أن عطف الآخرين . . إن الوحدة على كل حال . . . وتلعثمت
ناتاليا في حديثها ، واحمر وجهها خجلاً ، ثم أردفت متعجلة : « وما الذي سوف
تفعله في الريف في الشتاء ؟ »
« ما الذي سوف أفعله ؟ أتم مقال الطويل ، وإنك لتذكرينه ، فهو يدور

حول الجانب المفجع في الحياة وفي الفن ، وقد أطلعتك على خطته ذلك اليوم ، بل بعثت به إليك .

« أوقد عزمت على نشره ؟ »

« كلا »

« كلا ؟ فمن أجل من إذن بذلت فيه جهديك ؟ »

« فلنقل إنه من أجلك »

وخفضت ناتاليا بصرها وقالت : « إن ذلك يكون تضحية بالغة منك »
وسأله باستتوف في حياء وكان يجلس على مبعدة منه : « ما موضوع المقال فيما قلت ؟ »

وكرر رودين قوله : « الجانب المفجع في الحياة وفي الفن ، وسيقرؤه أيضا السيد باستتوف ، ولكنني لم أستوعب فكرتي الرئيسية بعد ، ذلك أنني لم أستطع حتى الآن أن أستبين المدلول المفجع للحب »

وكان رودين يتحدث عن الحب حديثا منطلقاً مراراً وتكراراً ، وكانت الآنسة بونكور تفزع بادئ الأمر عند سماعها لفظ « الحب » وترهف السمع كما يفعل جواد الحرب العجوز عند سماعه النفير ، ثم ألفت سماعه فأصبحت تكتفي بزم شفقتها وتتعاطى السعوط في فترات منظمة .

وقالت ناتاليا في تهيب : « يلوح لي أن الجانب المفجع في الحب هو الحب من طرف واحد »

فأجاب رودين : « كلا البتة ! فإن ذلك هو الجانب المضحك في الحب ، ويجب أن يوضع السؤال وضعاً يختلف عن هذا الوضع بالمرّة . . يجب أن يتعمق

المرء أكثر من هذا . . الحب ! » ثم مضى يقول « إنه لسر من أوله إلى آخره ، في إقباله ونموه وزواله ، فهو يقبل تارة ثابت الخطى على حين غرة ، مشرقاً كمطلع الصبح ، ويحبو تارة مدة طويلة ، كالنار تحت الرماد ، ليشتعل في الفؤاد حين يبدو أن كل أثر له قد ضاع ، وينساب تارة إلى القلب كالأفمى ، ثم ينسل منه فجأة ، أجل ، أجل إنه لموضوع خطير ، ولكن من ذا الذى يجب فى زماننا هذا ؟ ومن ذا الذى يجسر على أن يجب ؟ » .

ثم استغرق رودين فى تأملاته .

وسأل فجأة : « لِمَ لم نر السيد فوليتسف منذ أمد بعيد ؟ » واصطبغت وجنتا ناتاليا بحمرة قانية وطأطأت رأسها منحنية على منسج تطريزها .
وأجابت هامسة : « لست أدرى » .

وهتف رودين وقد تهاى للنهوض « ياله من رجل عظيم نبيل ! لعله خير مثل للسيد الروسى الحقيقى »

ورمقته الآنسة بونكور من طرف عينيها الفرنسيتين الصغيرتين .

وراح رودين يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، ثم دار على عقبه فجأة وقال : « هل لاحظت ذلك فى شجرة البلوط ؟ ثم إن شجرة البلوط شجرة عظيمة لا تسقط أوراقها إلا عندما تبدأ الأوراق الجديدة فى النبت »

وأجابت ناتاليا فى تمهل : « أجل ، لقد لاحظت ذلك »

« وذلك هو عين ما يحدث للحب القديم فى قلب قوى ، فهو وإن كان قد ذوى فعلا لا يفتأ يتلبث حتى يدهمه حب جديد فيقتلعه من جذوره »
ولم تعلق ناتاليا على قوله بشىء .

وساءلت نفسها : « ترى ما الذى يعنيه ؟ »
 ووقف رودين لحظة لا ينبس ببنت شفة ، ثم ألقى بشعره إلى الراء ، وغادر
 العرصة .

ومضت ناتاليا إلى غرفتها ، وجلست طويلا على فراشها حيرى تتأمل فى كلمات
 رودين الأخيرة ، ثم شبكت يديها فجأة وأخذت تبكى بكاءً مرًا - أما لماذا
 بكت .. فالله يعلم ! بل إنها هى نفسها لم تستطع أن تعرف سبباً لانهار الدموع
 فجأة من عينيها . كانت تكفكف عبراتها مرة بعد مرة ، ولكنها كانت تنهر من
 جديد . كالماء يتدفق من عين طال احتباس الماء فيها .

* * *

وتحدثت السيدة لبيينا فى اليوم نفسه مع ليزنيف عن رودين ، ورفض ليزنيف
 أن يستجيب لها أول الأمر ، بيد أنها كانت قد نوت أن تحمله على ذلك حملا .
 وقالت له : « أرى أنك ما زلت تكره رودين كما كنت تكرهه من قبل ، وقد
 امتنعت عن قصد أن أسألك فى ذلك حتى الآن ، على أنه لاشك فى أنك
 استيقنت بعد : هل تغير أو لم يتغير؟ وأنا أريد أن أقف على سبب كراهيتك له »
 وتشدق ليزنيف بالقول فى لهجته الباردة : « على رسلك ، مادمت
 لا تستطيعين حمل نفسك على الصبر ، ولكن لا تغضبى منى ! »

« لا بأس ، وأرجو أن تبدأ فى الحديث ! »

« دعيني أقل ما أريد . . . »

« حسناً جداً ، ولتبدأ »

وقال ليزنيف وقد شرع يجلس فى تمهل على الأريكة : « وهكذا أجد لزاماً

« على أن أنبتك بأننى أكره رودين فعلا ، إنه رجل بارع . . . »

« لا مناص لى من القول بذلك ! »

« إنه رجل بارع جداً ، وإن كان فى جوهره سطحى التفكير . »

« ليس هذا إلا مجرد كلام ! »

وعاد ليزنيف يقول : « إنه فى جوهره سطحى التفكير ، ولكن ليس فى هذا ضير كبير ، فكلنا هذا الرجل ، ثم إني لآخذ عليه أنه مستبد فى الصمم ، كسول ، لم ينل قسطاً كافياً من التعلم . . . »

فهتفت ليبينا : « رودين . . . لم ينل قسطاً كافياً من التعلم ! »

وكرر ليزنيف قوله بالنخمة نفسها : « لم ينل قسطاً كافياً من التعلم ، ذلك أنه يجب التطفل على غيره من الناس ، ويجب أن يكون له شأن ، وما إلى ذلك ، وكل هذا من الأمور الطبيعية ، أما أسوأ ما فى الأمر فهو أنه بارد كالثلج »

« بارد ؟ تلك الروح المتأججة ؟ »

« أجل ، إنه بارد كالثلج ، وهو يعلم هذا ويتظاهر بأنه متأجج العاطفة ، وكانت الحمية قد أخذت تستولى على ليزنيف شيئاً فشيئاً ، فأردف يقول : « وأسوأ ما فى الأمر أنه يلعب لعبة خطيرة ولو أنها فى الحق ليست خطيرة عليه ؛ فهو لا يخاطر بفلس أو بشعرة على تلك اللعبة ، فى حين أن غيره يخاطرون فيها بأرواحهم . . . »

« عم . . . عمن . . . تتحدث ؟ إني لا أفهمك »

« أسوأ ما فى الأمر أنه رجل مخادع ، فقد كان من الحرى برجل بارع مثله أن يعرف قيمة كلماته ؛ ومع ذلك فإنه ينطق بها كما لو كانت تكلفه حقاً شيئاً ما ، وإني لأسلم بأنه محدث ماهر ، إلا أن فصاحته ليست من نوع الفصاحة التى عرف

بها الروس ، ثم إن الكلمات المنمقة تغتفر إذا صدرت من قتي ، أما بالنسبة لرجل في سنه فإن من العار أن يستمتع المرء برنين صوته هو ويتباهى بذلك ! «
 « يخيل إليّ أنه يستوى لدى السامعين أن يكون المتحدث من المتباهين أولاً يكون . »

« عفواً يا سيدتي ، ليس الأمر كما ذكرت ، فقد يحدثني أحد الناس بكلمة فتأجج مني العاطفة ، وقد يحدثني آخر بالكلمة نفسها أو بأجمل منها فلا أكاد ألقى بسمعي إليه ، فما السر في ذلك ؟ »

وأجابت السيدة لبينا : « أنت وحدك الذي لا تلقى بسمعك »
 فقال ليزنيف : « أجل ، لا ألقى بسمعي ، ولو أن أذنيّ فيما يظن كبيرتان بما فيه الكفاية ، وحقيقة الأمر أن ثم كلمات تظل هي هي مجرد كلمات ، ولا يمكن أبداً أن تخرج إلى حيز الأفعال . ومع ذلك فإن هذه الكلمات نفسها قد تفنّ قلباً قتيّاً وتلحق به الدمار »

« ولكن عمن تتحدث ؟ عمن ؟ »
 والترم ليزنيف الصمت لحظة ثم قال : تريدن أن تعرفي عمن أتحدث ؟ أتحدث عن ناتاليا . »

وتملك الدهول السيدة لبينا لحظة ، ثم ابتسمت ، وأنشأت تقول « يا إلهي ، ما أعجب ما يساورك دائماً من أفكار ؛ إن ناتاليا ليست إلا طفلة أو هي أكبر فيلا ، ثم إنه لو فرض أن كان كلامك صحيحاً فكيف يذهبن بك الظن إلى أن أمها . . . »

« إن أمها امرأة تغلب عليها « الأنانية » ولا هم لها إلا نفسها ، ثم إنها مؤمنة

كل الإيمان بقدرتها على تنشئة الأطفال ، فلا يساورها أبداً أى قلق من ناحيتهم . . . باللعار ! وبالها من فكرة ! وحسبها أن تنطق بكلمة أو تلقى بنظرة مهيبة حتى يستوى كل شيء في مجراه الصحيح . وذلك هو ما تظنه هذه السيدة التى تتوهم أنها نصيرة المواهب ، وأنها أوتيت الحكمة وما إلى ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، مع أنها فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون أرملة عجوزاً حمقاء ؛ إن ناتاليا لم تعد طفلة ، وصدقي أنها تفكر أكثر منى ومنك ، بل أعمق منى ومنك ، وإن من العار أن يلتقى بفتاة فى مثل استقامتها ورقة عواطفها وحميتها فى أحضان ممثل ، بل فى أحضان عيهور ؛ على أن هذا أيضاً لا ينافى طبيعة الأشياء .

« عيهور ؛ أتقول : إنه عيهور ؟ »

« أجل . وإلا فخبرنى ياسيدتى ماذا يكون وصفه فى بيت السيدة لاسونسكايا ؟ أو يلقى برجل أن يكون معبوداً فى بيت وصاحب الوحي فيه . يتدخل فى شئونه وفى مهارات الأسرة ومنازعاتها ؟ »
ونظرت إليه السيدة لبيينا فى ذهول ثم قالت : « إني لا أطمئن لك يامبخائيل ميخائيلوفتش ، فقد احمر وجهك وثارث أعصابك ، ولا شك أن وراء كل هذا شيئاً آخر . . . »

« هذا ما توقعته ؛ فإنك إذا حاولت أن تحلثى امرأة عن وعى وإدراك بما استقر فى نفسك من يقين فإنها لا تهدأ إلا إذا انتحلت سيباً وحجة لا تمت للموضوع بصلة تتدرج بها لسؤالك : ليم صورت الأمر على هذا الوجه ولم تصوريه على الوجه الآخر ؟ »

وأثار ذلك غضب السيدة لبيينا فقالت : « مرحى ياسيد ليزنيف ؛ إنك الآن

في سيالك إلى أن تكون عدواً لدوداً للمرأة مثل السيد بيجاسوف ، فعلى رسلك ، ولكنني على الرغم من كل ما عرفت به من حدة الذكاء فأجد من العسير أن أصدق أنك قد توصلت إلى معرفة كل إنسان وكل شيء في مثل هذا الوقت القصير ، إن من يستمع إليك يظن أن رودين رجل من طراز طرطوف «
 « العجيب في الأمر أنه لم يبلغ مبلغ طرطوف نفسه . فقد كان طرطوف على الأقل يعرف ما يسعى إليه ، أما هذا الرجل فعلى الرغم من كل ما اتصف به من ذكاء »

« ماذا تريد أن تقول عنه ؟ أفصح أيها الرجل الظالم البشع ! »
 وانتصب ليزنيف واقفاً ، وأنشأ يقول : « على رسلك يا سيدتي إنما أنت الظالمة لا أنا ، لقد ساءك مني حكمي القاسي على رودين ، ومن حق أن أقسو في الكلام عنه ؛ وربما أكون قد دفعت ثمناً غالياً في سبيل هذا الحق ، وإنما أنا أعرفه حق المعرفة وحسبي ما عشت معه من زمن . وإنك لتذكرين أنني وعدتك أن أقص عليك في يوم من الأيام قصة حياتنا في موسكو ، ويخيل إلى أن ذلك ما لا بد أن أفعله الآن . فهل تصبرين على سماع قصتي ؟ »

« تكلم ، تكلم ، »

« ليكن ما تريدين »

وأخذ ليزنيف يدرع الغرفة متمهلاً روحة وجيئة ، ويقف في الحين بعد الحين ويخني رأسه ، ثم شرع يقول :

« لعلك تعلمين أنني فقدت والدي في مطلع حياتي ، ولم يكن لي من الإخوة من يكبرني منذ بلغت السابعة عشرة من عمري ، وأقمت في منزل عمي بموسكو .

أفعل ما يحلو لي . لقد كنت شاباً في من سطحية التفكير والغرور الشيء الكثير . أحب التظاهر والمباهاة ، والتحقت بالجامعة وسلكت مسلك الطالب ، وسرعان ما وقعت في مأزق ، ولن أخبرك عن كنه هذا المأزق فإنه غير جدير بأن يروى . لقد كذبت ، وكانت كذبة فاحشة ، وانكشف أمرى ، وثبت جرمى ، وعمت علناً ، فذهلت وبكيت كما يبكي الطفل ؛ حدث هذا في غرفة صديق وبحضور كثيرين من زملائي الطلبة ، فشرعوا جميعاً يضحكون منى ، يضحكون جميعاً اللهم إلا طالباً واحداً ، كان هو ، على ما أحب أن أوجه إليه نظرك ، أشد الطلبة استهجاناً لمسلكى عندما أمعنت في كذبي ، ولا شك أنه رثى لحالى ، ومهما يكن من شيء فقد أخذنى من ذراعى وقادنى إلى غرفته »

وسألته السيدة لبيينا : « هل كان هذا الطالب هو رودين ؟ »

« كلا لم يكن رودين ، بل كان رجلاً ينذر أن يجد المرء مثله بين الرجال . وهو الآن في عداد الأموات ، وكان اسمه بوكورسكى . ولا أستطيع أن أصفه في بضع كلمات . ولو أننى شرعت أتحدث عنه فلن يطاوعنى قلبي على الحديث عن سواه . كان صافى القلب سامى النفس يمتاز بذكاء لم أصادفه في أحد قط . وكان يقيم في غرفة صغيرة منخفضة السقف في قبة منزل من المنازل الخشبية . وكان فقيراً معدماً يتحایل على العيش بإعطاء الدروس ، وكانت تمر به أوقات لا يستطيع فيها أن يقدم قدحاً من الشاي لزملائه به ، أما الأريكة الوحيدة التى كانت عنده فقد تهاوت من الوسط حتى بدت في هيئة القارب . ومع ذلك كان يزوره الكثيرون على الرغم من كل هذه المنغصات ، وحببه الجميع . فقد كان يجذب إليه قلوب الناس كافة . وهيات أن تتصورى مقدار ما ينعم به الجالس في غرفته الصغيرة في لطف وأنس

يغمر قلبه بالدفء ؛ وهناك لقيت رودين ، وكان قد افترق لتوه عن أميره الصغير «
وسألته السيدة لبيينا « وما الذى كان يمتاز به بوكورسكى هذا عن سائر
الناس ؟ »

« ليس من اليسير أن أصف لك ذلك فى كلمات ، إن طبيعته الشاعرية الصادقة
هى التى كانت تجذبنا جميعاً إليه ؛ لقد كان ظريفاً أنيساً مسلياً كالطفل على الرغم
من صفاء عقله وسعة مداركه ، وما زال يتردد فى أذنى رنين ضحكته الدالة على
الطفولة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يشعل صورة مصباح فى محراب الله ، على
حد قول شاعرٍ حبيب من زمرتنا كانت به جنة » .

وعادت السيدة لبيينا تسأله : « وكيف كان حديثه ؟ »

« كان جيد الحديث إذا تهيأت له نفسه ، لكنه لم يكن فى ذلك من المحدثين
الذين لا يشق لهم غبار ، حتى لقد كان رودين آتئذ أفصح منه بمراحل » .
وتوقف ليزنيف عن الحديث وشبك ذراعيه على صدره ثم قال : « لم يكن
بوكورسكى ورودين يتفقان إلا فى القليل ؛ فقد كان رودين أقوى بادرة وأشد
اندفاعاً وعبارته أكثر رنيناً ، بل لعله كان أكثر حماسة وغيره ، والظاهر أنه كان
أعظم موهبة من بوكورسكى بكثير ، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر يبدو ضئيلاً هزيباً
إذا ما قورن ببوكورسكى ، وكان رودين بارعاً فى بسط فكرة من الأفكار ؛ فقد
كان أستاذاً فى فن الجدل ، على أن الأفكار لم تكن وليدة عقله هو ، بل كان يتحلل
أفكار الآخرين وخاصة أفكار بوكورسكى ؛ وإنك إذا نظرت إلى بوكورسكى
وجدته هادئاً وديعاً بل ضعيفاً ، إلا أنه كان مفتوناً بالنساء يحب المرح ويستطيع أن
يثبت لأى إنسان ، أما رودين فكان فيما يظهر ممتلئاً بالحمية والبسالة والحيوية ؛

ولكنه كان في قرارة نفسه بارد العاطفة يكاد يكون رعديداً حتى تخدش كبرياؤه فتثور حميته كلها . وقد بذل رُودين غاية ما في وسعه لكي يأسر قلوب الناس . على أنه كان يتوصل إلى ذلك بالمبادئ والأفكار العامة . وكان له - حقاً - نفوذ عظيم على الكثيرين . ومع ذلك لم يكن يجبه أحد ، ولعلني كنت الشخص الوحيد الوثيق الصلة به . ذلك أن الناس كانوا يقاسون من نيره واستبداده ، أما بوكورسكى فقد كان الجميع يذعنون له طائعين مختارين ، ويجدر بي أن أذكر عن رودين أنه ما كان ليرفض قط أن يتحدث مع أى إنسان أو يناقشه ، ولم يكن واسع الاطلاع ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان قد قرأ أكثر من بوكورسكى ومنا جميعاً بكثير . ثم إن عقله كان مرتباً وذاكرته عارمة ، وهذا هو الشيء الذى يؤثر في الشباب بالذات . فهم يتصايحون في طلب الاستنتاجات والنتائج ، النتائج بأى ثمن . ولو كانت زيفاً وبهتاناً ! والإنسان ذو الضمير الحى الذى لا يتلون ولا يتقلب لا يفعل ذلك . وحسب المرء أن ينبىء هؤلاء الشباب بأنه عاجز عن أن يقول لهم الحق كاملاً . لأنه هو نفسه لا يعرفه حتى يصموا آذانهم عنه ولا يعودوا يستمعون إليه . وكذلك لا يستطيع المرء أن يخدعهم ، لأنه إذا شاء أن يفعل اقتضاه ذلك أن يكون على شيء من الإيمان بأنه يعرف هذا الحق . وهذا بعينه هو السبب الذى جعل لرودين مثل هذا السلطان العظيم علينا . ذلك أنه لم يكن على ما بينت لك وشيكاً ، عظيم الحظ من القراءة ، ولكنه قرأ كتباً فلسفية ، وقد نهى عقله لها إلى حد أنه كان يدرك مغزى أى شيء يقرؤه وينفذ من فوره إلى أعماق الموضوع ويفصل من كل ناحية ما يصل إليه من نتائج نيرة بارعة كاشفاً عن آفاق عقلية جديدة . والحق أن زميرتنا كانت في ذلك الوقت من الشباب الغريبين ، أو قل من أنصاف المتعلمين من

الشباب . وكانت الفلسفة والفن والتعليم بل الحياة نفسها في نظرنا ليست في واقع الأمر إلا عدداً من الكلمات . أو لعلها كانت نظرات جذابة جميلة . ولكنها مبعثرة لا رابط لها . ولم تكن ندرك أو نحس الصلة التي تربط هذه النظرات بعضها ببعض أو التاموس الأكبر الذي يسير عليه الكون . ولو أننا كنا نناقشها مناقشة مهمة ونحاول جاهدين أن نفهمها . وكنا إذا أصغينا إلى رودين خيل إلينا أننا قد اهتدينا آخر الأمر إلى تلك الصلة التي كانت تراوغنا . وأن النقاب قد رفع عنها . ولعل رودين لم يكن في ذلك مبتكراً . ولكن ماذا يهمننا من هذا الأمر ؛ إنما يهمننا أن كل شيء قد ردّ إلى وضعه الطبيعي وارتبطت فجأة حلقات ما كان مبعثراً . ونهض أمامنا كأنه الصرح . وغمر الضوء كل شيء . وشاع الحق في أوصاله ولم يبق شيء بلا حس . ولم يبق شيء عارض . وساد كل شيء تدبير وجمال يتمشيان مع العقل . واتخذ كل شيء معنى واضحاً وخفياً في آن واحد . وارتبطت كل ظاهرة من ظواهر الحياة بغيرها في نهج واحد . وغشى نفوسنا لون من ألوان الخشبية التي يصاب بها أهل التقي ، ومست قلوبنا هزة حلوة إذ أحسنا بأننا أصبحنا شرايين حية للحقيقة السرمدية أو سيلا إلى غاية أكبر . . وبعد أفلا يبدو لك كل هذا سخيفاً ؟

فأجابت السيدة لبيينا في بطنه وتمهل : « كلا ألبتة ، ولم يبدو لي كذلك ؟ إنني لا أفهم كل ما تقول ، ولكنني لا أظنه سخيفاً »

ومضى ليزيف يقول : « لاشك في أننا ازددنا حكمة منذ ذلك الحين . وقد يبدو لنا ذلك كله مضحكاً الآن ، ولكنني أعود فأقول : إننا كنا مدينين بالكثير لرودين في تلك الأيام ، وكان بوكورسكي بلا أدنى ريب أنبل نفساً . يث فينا

الحمية والقوة ، على أنه كانت تمر به أوقات تفرّ فيها همته ويلتزم الصمت . فقد كان سريع التأثر معتل الصحة ، إلا أنه كان إذا نشر جناحيه فالله يعلم مدى ما يبلغ في تخليقه ! لقد كان يضرب في كبد السماء ! أما رودين . ذلك الفنى الوسيم الرشيق ، فقد كان مليئاً بالصغار ، بل كان قد أمعن في الثرثرة وأولع بالتدخل في كل صغيرة أو كبيرة وتعريف كل شيء وشرح كل شيء ، والظاهر أنه لم يكن ثم حد لفضوله . فقد كان سياسياً بطبعه ! إني لأتحدث عنه كما عرفته وقتئذ . ولكنه لم يتغير مع الأسف . ثم إن مثله لا يتغير أبداً . ويصدق هذا عليه وهو في سن الخامسة والثلاثين ؛ وقل من الناس من يستطيع أن يقول عن نفسه قدر ما قلت « وقالت السيدة لبينا « اجلس ، فإنك تصيبي بالدوار بغدوك ورواحك » . وأجاب ليزنيف متلعثماً : « ذاك ديلنى . ثم إنى بعد أن تهبأت لى فرصة الدخول فى زمرة بوكورسكى ، كنت كالرجل يولد من جديد ، ولا أخنى عليك . أنى أصبحت متواضعاً ، محباً للاستطلاع ، مقبلاً على التحصيل . تملكنى نشوة ويعلوفى وقار حتى كأننى وهبت نفسى لخدمة الله ، والحق أنى عندما أفكر فى اجتماعاتنا . لا أجد مناصاً من الاعتراف بأنه كان فيها خير كثير ، بل كان فيها ما يهز القلوب ؛ فلتتخلى اجتماعاً يعقده خمسة أوستة من الشبان حول شمعة واحدة . ويشربون الشاى الكريه بالكعك اليابس . ألا ليتك شهدت تلك الوجوه جميعاً وسمعت الأحاديث التى كنا نتبادلها ؛ لقد كانت العيون تلتمع بنار الحماسة . والحدود تتوهج والقلوب تنبض ونحن نتحدث عن الله . وعن الحقيقة وعن مستقبل الإنسان ، وعن الشعر ، وماذا علينا لو تحدثنا أحياناً حديثاً باطلا فاستبدت بنا النشوة بلا مسوغ ولا داع ؟ كان بوركوسكى يجلس وقد وضع ساقاً على

ساق ، وأسند خده الشاحب إلى يده وتألقت عيناه ؛ وكان رودين يقف في وسط الغرفة ويتحدث ، يتحدث ببراءة فيبدو في أعين الجميع كأنه ديموستين في شبابه وقد وقف يخاطب البحر العجاج ، وكان سبوتين الشاعر الأشعث يهتف فجأة من حين إلى حين ، كما يهتف المرء وهو مستغرق في نومه ، وكان شيلر الطالب ابن القس الألماني ، شيلر الطالب الجامعي الذي يبلغ من العمر أربعين سنة قد اشتهر بالفكر العميق لإخلاده الدائم للسكوت ، لا يفتح شفثيه ، ولا تخرج من فيه كلمة إلا بوقار عظيم يزداد باطراد ، أما سيثوف المرح ، أو قل أرسطوفان مجتمعاتنا ، فقد كان خفيض الجناح باسم الثغر ، وكان ثمّ تلميذان أو ثلاثة من حديثي العهد ينصتون مفتونين وقد خلّبت الأحاديث لبهم ؛ وكان الليل يمر هادئاً رقيقاً كأنه يطير طيراناً . . ثم يبرز الفجر فنترق مهتاجي العاطفة سعداء محافظين على استقامتنا (ذلك أننا لم نكن نفكر في الخمر وقتئذ) يغشانا شيء من الكلال الرضى الهنيء . . . وإني لأستطيع أن أتمثل نفسي سائراً خلال الطرقات وقد خلت من المارة أرقب النجوم بشعور من الثقة جديد كأنما هي قد زادت قرباً وأصبحت أدنى إلى الفهم . . . آه ؛ لقد كانت أياماً عجيبة ، وإني لا أومن أبداً بأنها ذهبت هباءً ! كلا إنها لم تذهب هباءً حتى بالنسبة لأولئك الذين أذلّهم الحياة من بعد . . . وكم من مرة قابلت مصادفة أولئك الرجال ، زملائي القدماء ! وقد يبدو لك أن أحدهم انحط فقداً وحشاً من الوحوش ، فإذا ذكر اسم بوكورسكى في حضرته استيقظ في نفسه كل ما بقى فيها من عواطف نبيلة كأنك رفعت السدادة عن قنينة منسية من العطر في غرفة قدرة مظلمة .

وسكت ليزنيف ، وقد احمر وجهه « الباهت » .

وسألته السيدة ليينا وهي تحملق فيه مدهوشة : « ولكن لماذا ؟ بل متى تشاجرت أنت ورودين ؟ » .

« إنني لم أتشاجر معه . بل قطعت علاقتي به عندما استبان لي في الخارج حقيقة أمره ، ولو أنه حدث قبل هذا في موسكو أن تهيأت لي الأسباب لمخاصمته ، ذلك أنه كان قد خدعني خدعة دينية » .

« وما هي ؟ »

« هي هذه ، كنت ماذا عساي أن أقول ، إنني لم أخلق للحب ولكنني كنت دائماً سريع التأثر به »

« أنت ؟ »

« أجل ، أليس هذا غريباً ؟ ولكن هذا هو ما حدث ، لقد وقعت في حب فتاة لطيفة جداً . . . ما بالك تنظرين إلي هكذا ؟ إنني لمستطيع أن أحدثك عن نفسي بشيء أكثر إثارة لعجبك من ذلك »

« أو أستطيع أن أسألك ما هو ؟ »

« إليك هذا النبا مثلاً : لقد دأبت في تلك الأيام التي قضيتها في موسكو أن ألقى . . . من فيم تظنين ؟ . . . شجرة زيزفون صغيرة في أسفل حديقتي كنت أحتضن جذعها النحيل الرشيق ، فيخيل إلي أنني أحتضن الطبيعة بأسرها . وكان قلبي يمتلئ ويزفرف كأن الطبيعة تنسكب فيه حقاً ، كنت ذلك الرجل ، ولم يكن هذا كل ما في الأمر ! ولعلك تظنين أنني ما كنت أقرض الشعر ؟ ولكن رويدك ، لقد نظمته ، بل كتبت مأساة أقلد بها « ما نفريد » ، وكان من أشخاصها طيف تلتطخ صدره بالدم ، ولا تحسبي أن هذا الدم كان دمه بل كان دم البشرية . . .

أجل لا تعجبي . . . على أنى كنت قد بدأت أروى لك قصة حبي ، لقد تعرفت
بفتاة . . . »

« ونسيت مواعيدك مع شجرة الزيزفون ؟ »

« نعم ، كانت الفتاة غاية في طيبة القلب واللفظ ، تتلأأ عينها وتتألق ،
وينساب صوتها كرنين الفضة . »

وقالت السيدة لبيينا وقد افترثرها عن ابتسامة تم عن الدعابة : « إنك لبارع
في الوصف »

فأجابها ليزنيف : « وإنك لناقذة غاية في القسوة . ثم إن الفتاة كانت تقيم مع
أيها ، وكان رجلاً مسناً ، ولكنني لن أدخل في التفاصيل ، وحسبي أن أقول
لك : إنها كانت حقاً طيبة القلب جداً ، كانت تصب لك من الشاي ما يبلغ ثلاثة
أرباع القدح إذا طلبت النصف فقط ! وفي اليوم الثالث للقاء لها أول مرة
أحسست بنار الحب تشتعل في جسمي كله ، وفي اليوم السابع لم أقدر على إخفاء
حالي فبحث بما في قلبي لرودين ، وهيئات أن يكتم شاب حبه بين ضلوعه ! . .
قد كنت دائماً أفضي بأسراري إلى رودين . وكنت في ذلك الحين تحت تأثيره
اماً ، وأنا لا أنكر أن هذا كان مفيداً لي من عدة وجوه : ذلك أنه كان أول
خصر عاملني معاملة لا تنطوي على الاحتقار والازدراء ، بل حاول أن يجعل مني
حلاً . لقد كنت أعظم بوكورسكي وتغشاني رهبة من طهارة نفسه ، على حين
ن التجاوب بيني وبين رودين أقوى وأشد . وعلم رودين بأمرحي فقابل ذلك مني
سة تفوق الوصف : ذلك أنه هنأني . وضمني إلى صدره ، ولم يلبث أن بادر
شادي وتبصيري . وبث في أن أقدر الأهمية الكاملة لموقفى الجديد . وكنت

أستمع بأذن مرهفة واعية ؛ وهل يخفى عنك مقدار براعته في الحديث ؟ كان لكلماته وقع عجيب في نفسي . فقد ارتفع قدرى في عيني . واتخذت سمة الجدل . وأمسكت عن الضحك . وإني لأذكر أنه قد بلغ من أمرى أنى ازددت حرصاً في مشيتى . فكنت أسير مترقفاً كأنى أحمل في طيات نفسى آنية مملوءة بسائل تفتيس أخشى عليه أن ينسكب . كنت سعيداً كل السعادة منذ علمت أنى نلت رضاها . وأراد رودين أن يلقى حبيبى . وإنى لأظن أنى ألححت في أن أقدم بنفسى كلا منها إلى الآخر»

وقاطعته السيدة لبيبا قائلة : « آه ! لقد فهمت ! فهمت كل شىء الآن ؛ إن رودين قد سرق منك حبيبك . وأنت لا تستطيع أن تصفح عنه حتى الآن إننى لمستعدة بأن أراهن بأننى على صواب »

« لو أنك راهنت لحسرت رهانك . فأنت مخطئة . إن رودين لم يسرق حبيبى . ولم يكن في نيته أن يفعل هذا . على أنه بالرغم من ذلك وضع حداً للنعم الذى كنت فيه . ولو أنى مستعد الآن أن أشكره بعد أن ثبت إلى رشدى . أما في ذلك الوقت فقد كدت أجن ؛ إن رودين لم يكن يميل قطاً إلى إلحاق الأذى بى . بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً ؛ ولكنه انقاد لتلك العادة الملعونة التى درج عليها . ألا وهى تفويض كل ما في الحياة من بواعث . سواء أكانت حياته هو أم حياة غيره من الناس . شأنه في ذلك شأن من يقضى على الفراشة بتشيها بدبوس . فراح يكشف لنا عن خبيثة نفوسنا . ويشرح لنا علاقاتنا بالناس . وما الذى ينبغى أن يكون عليه مسلكنا . وأوصانا وصية من يفرض رأيه فرضاً بأن نخلل أفكارنا ومشاعرنا . وطقق يمتدحنا ويتقدنا . بل شرع يراسلنا تصورى

هذا ! لقد بلبل أفكارنا بلبلة كاملة ! ولم يكن في الحسبان أن أتزوج حبيبتى (فقد بقى لى شىء من العقل يحول بينى وبين ذلك) على أننا على أية حال كنا خليقين بأن نقضى معاً بضعة أشهر مجيدة على نحو ما فعل « بول وفرجينى » إلا أننا بدلا من ذلك وجدنا أنفسنا نعانى من الحيرة والتوتر أشكالا وألواناً ، ويا للمأزق الحرج الذى وقعنا فيه ! وقصارى الأمر أن رودين أقنع نفسه فى صباح يوم مشرق بأن واجب الصداقة المقدس يقتضيه بأن يزف النبا إلى أبيها ، وقد فعل .

وصاحت السيدة لبيينا : « حقا ؟ »

« أجل . ولتعلمى أنه فعل هذا بموافقى ، وكان ذلك أعجب شىء فى الموضوع . وإنى لأذكر مقدار ما أصاب عقلى من اضطراب ؛ لقد كانت الدنيا من حولى تدور وتتغير كما يحدث فى آلة التصوير المظلمة ، وبدا لى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، والباطل حقاً ، والوهم واجباً ، آه ! إن ذكرى ذلك تخز فى نفسى حتى الآن ! أما رودين فلم يأبه لذلك ، وهيهات أن يأبه لشىء ! فقد كان ينفلت من شباك سوء التفاهم كأنه عصفور الجنة يرق من فوق غدير . »

وسألته السيدة لبيينا فى دلال ، وهى تميل برأسها الصغير جانباً وترفع حاجبها :

« وهكذا افترقت عن حبيبتك ؟ »

« أجل افترقتا . . . وكان فراقاً مؤلماً تقبلاً كريهاً ، سافراً ، بل مفضوحاً فى غير مقتضى . وبكيت وبكيت هى أيضاً والشيطان يعلم ماذا قال كلُّ منا للآخر ، لقد كان الأمر أشبه بقطع أنشودة معقدة ، مؤلماً ، ولكن لا حيلة فيما لا حيلة فيه ، على أن كل شىء فى العالم ينتهى إلى الخير . فقد تزوجت رجلاً جديراً بها ، وهى الآن سعيدة . »

وشرعت السيدة لبيينا تقول : « ومع ذلك تسلّم بأنك لم تستطع الصّح عن رودين . . . » .

فقاطعها ليزنيف قائلاً : « وى . لا ! ، لقد بلغ بي الأمر أن بكيت كالطفل عندما ودعته في رحيله إلى الخارج . والحق أن البذور قد رسبت في قلبي . فلما لقيته من بعد في الخارج . . . أجل لما لقيته كانت السن قد تقدمت بي . . . ورأيت رودين في صورته الحقيقية » .

« وما الذى اكتشفته فيه ؟ »

« ذلك الذى قلته لك منذ ساعة بلا زيادة ولا نقصان ، ولكن كفانا حديث عن رودين ، ولعل كل شىء ينتهى إلى الخير ، وغاية ما فى الأمر أنى أردت أن أبين لك أننى إذا قسوت فى الحكم عليه فلا يرجع ذلك إلى أننى لا أعرفه . أما ناتاليا فلن أزيد على ما قلته حرفاً ، ولكن يجب أن تعنى بأمر أخيك » .

« أخى ! لماذا ؟ »

« انظرى إليه جيداً ، ألم تلاحظى عليه شيئاً ؟ »

وأرخت السيدة لبيينا بصرها وغمغمت : « إنك لعلى حق . . . أجل . . . أخى . . . إنه قد تغير منذ حين . . . ولكن أتعنى حقاً . . . ؟ »

فقال ليزنيف هامساً : « صه ، أظن أنه قادم ، وصدقينى إذا قلت لك : إن ناتاليا ليست طفلة ، وإن كانت مع الأسف كالطفلة فى قلة خبرتها ونقص تجاربها ؛ واذكرى كلباتى ، فإن هذه الفتاة سوف تدهشنا جميعاً فى يوم من الأيام » .

« وكيف ؟ »

« ألا تعلمين أن الفتيات من أمثالها هن اللاتى يهلكن أنفسهن غرقاً ويتجرعن

السم وما إلى ذلك ؟ فلا تغترى بنظراتها الهادئة فإن من شيمتها شدة الانفعال وتأجيج العاطفة »

« إيه ، هات ما عندك ! فإنك فيما يبدو لى ترق وتمضى فى الخيال ، وإنى لا أستبعد أن أبدو فى نظر شخص بارد مثلك كالبركان »
 فقال ليزنيف وهو يبتسم : « أف ، أف ، أما عن الخلق فأحمد الله على أنك لا تتحلين منه بما يستحق الذكر ! » .
 « أتحاول أن تكون وقحاً ؟ » .
 « كلا والله ! فإن هذا لأعظم آيات المديح » .

ودخل فوليتسيف الغرفة ورمى أخته هى وليزنيف بنظرة يشوبها الشك . وكان قد ازداد نحولا فى الأيام الأخيرة ووجه كلاهما إليه الحديث فى آن واحد ، ولكنه لم يكذب يبتسم لحديثها ، وبدا على ما وصفه بييجاسوف مرة ، كالأرنب البرى الحزين ، ومع ذلك فقل أن تجد فى العالم رجلا لا يبدو فى أتمس حالاته مرة واحدة على الأقل فى حياته ؛ لقد كان فوليتسيف يشعر بأن ناتاليا تفلت من يده . وكان فى صحبتها يبدو كأن الأرض تميد من تحت قدميه .

الفصل السابع

كان اليوم التالى يوم أحد . وقد نهضت ناتاليا من نومها متأخرة ، وكانت قد صعدت عن الكلام صدوداً فى اليوم الذى قبله ، وخجلت فى دخيلة نفسها من دموعها ، ونامت نوماً مضطرباً . وجلست ناتاليا إلى بيانها الصغير ولم يكن عليها من الثياب إلا قليل ، وعزفت بعض الأنغام فى صوت لا يكاد يسمع خشية أن توقظ الأنسة بونكور ، ثم أسندت جبهتها إلى مفاتيح البيان الباردة وظلت ساكنة وقتاً طويلاً . وراحت تفكر وتنعم التفكير لا فى رودين نفسه ، بل فيما صدر عنه من أقوال ، وكانت صورة فوليتسيف تمر بمخيلتها لماماً . كانت تعلم أنه يحبها ، ولكنها كانت تقصى صورته فى الحال . . . لقد كانت واقعة فى قبضة نوع عجيب من ثورة المشاعر .

وانقضى الشطر الأكبر من الصباح ، فارتدت ملابسها على عجل ، وهبطت الدرج ثم حيت أمها وخرجت إلى الحديقة وحدها بأسرع ما تستطيع . وكان اليوم حاراً مشرقاً مشمساً بالرغم مما غشيه من مطر بين الفينة والفينة .

وكانت بعض السحب المسفة الغائمة تنساب سريعة عابرة السماء الصافية دون أن تحجب الشمس ، ويفيض منها على الحقول أحياناً شؤبوب من المطرينهم فجأة ثم لا يلبث أن يكف ؛ وكانت قطرات المطر الكبيرة المتألقة تتساقط في صوت حاد كأنها قطع من الماس ؛ وكانت الشمس تتألق من خلال غاشية المطر المنهمر ، وقد سكن العشب ، ولم يعد يتأيل بفعل الريح . وراح يروى غلته من الماء ، وكانت أوراق الشجر التي غسلها المطر تهتز في وهن وفطور ، والطيور تغرد وتغرد بلا توقف ولا انقطاع ، ولم يكن ثم أمتع للنفس من أن تنصت إلى سقسقتها الصادرة من قلب خلى تطفئ على ذلك الشؤبوب العابر وخريره ، وتصاعد الغبار من الطرق المتربة واختلطت بفعل ضربات المطر المتدارك النازلة عليها ثم تنقشع السحابة وتحقق الريح ويتألق العشب بلون من الزمرد والذهب . وتتعانق أوراق الشجر ويشرق الضوء من خلال العصون ، ويشيع في الجو شذا قوى . . .

ودخلت ناتاليا الحديقة وقد صفت السماء أوكادت ، وكانت الحديقة تشف عن النضارة والاطمئنان ، ذلك الاطمئنان الهنيء السعيد الذى يستجيب له قلب الإنسان فى استرخاء لذيذ ينبعث من العاطفة المكنونة والرغبة المبهمة . وسارت ناتاليا على طول حافة البركة مجتازة طريقاً طويلاً من الحور الفضى ، وعلى حين بغتة وقف أمامها رودين وكأن الأرض قد انشقت عنه . وتملكها الدهشة . ونظر هو فى وجهها .

وسألها : « هل أنت وحدك ؟ »

فأجابت ناتاليا : « أجل ، أنا وحدى . . . وإنما خرجت لأستنشق الهواء

برهة ، وينبغى لى أن أعود الآن » .

« سأصحبك »

وعدل من خطوته بحيث تماشى خطوتها ، وساه إلى جوارها .

غمغم : « إنك لتبدين حزينة » .

« حقاً ؟ لقد كنت أوشك أن أقول بأنك تبدو فاطر الهمة »

« ربما كان هذا هو حالى . . . وكثيراً ما تتأبى هذه الحالة وعذرى فى ذلك

أوجه من عذرك »

« لماذا ؟ أنتظن أنه لا يكون عندى أبداً ما يخزنى ؟ » .

« إن من هن فى مثل سنك حريات بأن ينعمن بالحياة » .

وسارت ناتاليا بضع خطوات فى صمت ثم قالت : « ديمترى نيقولا يفتش ! »

« نعم ؟ »

« أتذكر . . . المقارنة التى عقدتها بالأمس . . . تلك المقارنة الخاصة

بشجرة البلوط ؟ »

« أجل ، أذكرها حقاً ، وما شأنها ؟ »

واختلست ناتاليا النظر إليه وقالت : « لماذا . . . بل ما الذى عينته بذلك ؟ »

وحنى رودين رأسه وحملق فى الفضاء

وشرع يقول فى لهجته العجيبة المتحفظة الحافلة بالمعاني التى كانت تحمل السامع

على الظن بأنه لم يكن يزيع عن صدره إلا عشر معشار ما كان يثقل عليه :

« ناتاليا ، لعلك لاحظت أنى قلماً أتحدث عن ماضى ، فإن ثم شئوناً لا أمسها

أبداً ، وقلبي - ولكن من ذا الذى يجب أن يعرف ما عاناه ؟ لقد كان ينجيل إلى دائماً

أن الكشف عن خباياه أمام الناس جميعاً فيه انتهاك لحرمة ، ولكننى أستطيع أن

أكون صريحاً معك . . . فإنك توحين إلى بالثقة . وأنا لا أستطيع أن أخفى عنك أنني أيضاً قد أحببت وشقيت كسائر الناس . أما متى كان هذا ؟ وكيف ؟ فإن ذلك لا يعنى أحداً ! إلا أن قلبي قد عرف الفرح كثيراً وكابد الحزن كثيراً »

والترزم رودين الصمت لحظة ثم مضى في حديثه : « إن ما قلته بالأمر يمكن أن ينطبق علىّ إلى حد ما ، أى على موقفي الحالي ، ولكن هذا أيضاً لا يهم ، فإن ذلك الجانب من الحياة لم يعد له وجود بالنسبة إلى ، وكل ما بقي لي هو أن أضرب في طريق مغرب لفتحته الشمس ، من مرحلة إلى مرحلة في عربة خضخاضة ؛ ولكن متى أستقر في مكان ؟ وهل لي أن أستقر في مكان ؟ الله وحده يعلم ! ولخير لنا أن نتحدث عنك » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « أيمكن يا ديمتري نيقولايفتش أن يكون السبب أنك

لا تنتظر شيئاً من الحياة ؟ »

« آه ، كلا ! إنني أنتظر الكثير ، ولكني لا أنتظره لنفسى ، ولن أنحلي عن نشاطي وما يجلبه من سعادة ، على أنني نبذت أسباب اللهو والمتعة . إن آمالي وأحلامي لا تمت إلى سعادتي بأى سبب ، أما الحب . . . » وهز كتفيه عندما نطق بهذا اللفظ ، « . . . فلم يخلق لي ، إني غير جدير به ، ذلك أن المرأة التي تحب من حقها أن تقتضى من الرجل نفسه كلها ، وأنا لا أستطيع بعد أن أهب نفسي كلها ، ثم إن الجاذبية من شيم الشباب ، وقد تجاوزت سن الشباب بكثير ، فكيف أدير رأس أية امرأة ؟ إني لأبتهل إلى الله أن يحفظ رأسي قائماً على كتفي » .

وغمغمت ناتاليا : « لقد فهمت ما ترمى إليه ؛ إن الذي يسعى إلى غاية جلييلة يجب أن ينقطع عن التفكير في نفسه ، ولكن أليست المرأة بمستطعية أن تقدر مثل

هذا الرجل ؟ إني لأظن أن احتقارها للشخص « الأثاني » أقرب إلى طبيعتها . فإن أولئك الشباب جميعاً ، الشباب الذين تحدثت عنهم ، « أنانيون » ، قد شغلوا بأمور أنفسهم ولو كانوا من المحبين ، وصدقني إذا قلت لك : إن المرأة ليست بمستطية أن تقدر التضحية فحسب ، بل هي تستطيع التضحية أيضاً .

وتوردت وجتنا ناتاليا ولعت عيناها ، ولم يؤثر عنها قط إلقاء مثل هذا الخطاب الحماسي الطويل قبل أن تعرف رودين .

وقال رودين وهو يتسم متلطفاً : « لقد سمعت في أكثر من مناسبة رأيي في وظيفة المرأة ، وأنت تعلمين أن من رأيي أنه ما من أحد كان يستطيع إنقاذ فرنسا إلا جان دارك . . . ، ولكن نيس هد بيت عصيد . فقد كنت ريد التحدث عنك ، إنك في مسهل حياتك ، والمناقشة في أمر مستقبلك خليفة بأن تكون ممتعة ومثمرة ، فأصغى إلى : إنك لتعلمين أنني صديقك ، وأنتى أعنى بأمرك عناية تبلغ عناية الأخ بأخته أو تكاد ، أرجوك ألا ترى في سؤالى فضولاً أو بعداً عن الفطنة ؟ خبريني ، أو قلبك خالٍ خلواً تاماً ؟ »

وقاض وجه ناتاليا بدم الحجل حتى بلغ منابت شعرها ، ولم تنبس ببنت شفة . وتوقف رودين وتوقفت هي أيضاً ، ثم سألتها : « أتراك قد غضبت مني ؟ » فأجابته قائلة : « كلا ، ولكني لم أكن أنتظر هذا السؤال قط . . . » وأردف يقول : « ومع ذلك فليس ثم ما يدعوك إلى إجابتي ، فإنى أعرف سرى . »

ونظرت إليه ناتاليا في رعب .

« أجل أجل ، إننى أعرف من هو ، ولا مناصر لى من القول بأنك ماكنت

بمستطاعة أن تختار رجلاً أفضل منه ، إنه لفتى ولا كالفتيان ، ولسوف يستطيع أن يقدرك ، ثم إن الحياة لم تنل منه ، وهو ذكى نقي السريرة . . وهو خليق بأن يسعدك .

« من تعنى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

« كأنك لاتعلمين ! أعنى فوليتسف طبعاً ، وى ! أأنت مصيباً ؟ »

وأشاحت ناتاليا بوجهها ، وقد أخذت منها الحيرة كل مأخذ .

« ألاينجك ؟ أفصحى ، أفصحى ؛ فإنه لايرفع عينيه عنك ويتبع كل حركة

من حركاتك ، وهل يستطيع المرء أن يخفى حبه ؟ إن جميع الظواهر تدل على أن أمك أيضاً تؤثره . ثم إن اختيارك . . »

وقاطعته ناتاليا مادة يدها إلى شجيرة قريبة لتخفى ارتباكها وقالت : « إن من

العسير على حقا أن أناقش هذا الموضوع يا ديمترى ميخائيلوفتش ، ولكنى أؤكد لك . . أنك مخطئ »

فردد رودين قولها : « هل تقولين « مخطئ » ؟ لا أظن ذلك ، فإني أعرفك حق

المعرفة وإن كنا حديثي العهد بالصدقة ، فما السر إذن في هذا التغير العجيب الذى ألاحظه عليك ؟ إنك لست ناتاليا التى لقيتها منذ ستة أسابيع ، كلا ياناتاليا ؛ إن قلبك ليس خالياً . »

وقالت ناتاليا فى صوت خافت لا يكاد يسمع : « ربما ، ولكنك مع ذلك

مخطئ » .

فسألها رودين : « وكيف ذلك ؟ »

« أرجوك أن تدعنى وشأنى ، ولا تسألنى أى سؤال ! » ثم اثنت ميممة شطر

المتزل في حُطَى سريعة ، فقد أفرغتها الأحاسيس التي انبعثت فجأة في قلبها .
ولحق بها رودين واستوقفها ، وقال لها جاداً : « ناتاليا ! إن هذا الحديث
لا يمكن أن ينتهى على هذه الصورة ، فإنه عظيم الأهمية بالنسبة لى أيضاً ، بربك
كيف أفهمك ؟ »

وعادت ناتاليا تقول : « دعنى وشأنى ! »

« ناتاليا ؛ بالله عليك ! » ، وبانت الحيرة والقلق على وجه رودين ، وشحب
لونه .

وقالت ناتاليا : « إنك تفهم كل شيء ، فينبغى لك أن تفهمنى أيضاً ! .
وانترغت يدها من يده ومضت في طريقها لاتلوى على شيء .

وصاح رودين خلفها قائلاً : « كلمة واحدة ! »

وتوقفت ولكنها لم تلتفت إلى الورا .

« لقد سألتنى ماذا عنيت بالمقارنة التي عقدتها بالأمس ، وإنى لمخبرك ، ولا تجعلى
سوء التفاهم يدب بيننا ، لقد كنت أتكلم عن نفسى . . . وعنك . »
« عجباً ! عنى ؟ »

« نعم عنك ، وأكرر لك أننى لا أحب أن يحدث بيننا خطأ فى الفهم ، وإنك
لتعلمين الآن مبلغ ذلك الشعور ، أجل ؛ الشعور الجديد الذى كنت أتحدث عنه
وقتئذ ، وما كنت لأجرؤ قط حتى اليوم . . . »

وغطت ناتاليا وجهها بيديها فجأة وركضت صوب المتزل .

واستبد الدهول بناتاليا مما بلغ إليه حديثها مع رودين من غاية مفاجئة . ومرت
بفوليتسفس وهى تركض فلم تقع عليه عيناها قط ، وكان يقف ساكناً بلا حراك

وظهره ممسند إلى جذع شجرة . ذلك أنه كان قد وصل إلى ضيعة السيدة لاسونسكاي قبل ذلك بربع ساعة . فوجد ربة الدار في غرفة الاستقبال . فتبادلا بضع كلمات ثم انسل إلى الخارج باحثاً عن ناتاليا . وهدته غريزة العشاق فضى إلى الحديقة لايلوى على شيء . وفاجأهما في اللحظة التي كانت تنتزع فيها يدها من يد رودين . فاسودت الدنيا في عينيه . وراح يرقب ناتاليا ثم تخلى عن الشجرة وخطا بضع خطوات على غير هدى . ورفع رودين بصره فوجد فوليتسيف يقف بجواره . والتقت نظراتهما . فانحنى كل منهما إلى الآخر وافترقا في سكون .

ودار في خلد كل منهما : « إن الرواية لم تتم فصولاً » .

وانطلق فوليتسيف يجوب الحديقة حتى بلغ قرارها ، وغشيه شعور بالمرارة والشقاء ، وجثم على صدره حمل ثقيل ، وكان دمه يغلي أحياناً من الحنق والغضب . وعادت السماء مرة أخرى تمطر رذاذاً . وأوى رودين إلى غرفته . فقد كان هو أيضاً مضطرباً . وكان عقله في دوامة . ذلك أن الناس حتى غلاظ القلوب منهم تهتم مشاعرهم إذا رأوا شاباً غصاً صادقاً يكشف عما في نفسه فجأة في ثقة واطمئنان .

وجرى كل شيء على مائدة العشاء بخلاف ما ألف القوم . فقد تعذر على ناتاليا أو كاد أن تجلس على مقعدها وهي في مثل شحوب الموتى . ولم ترفع عينها . أما فوليتسيف فقد جلس كشأنه بجوارها . وكان من حين إلى حين يعمل نفسه على توجيه ملحوظة إليها . وقد اتفق أن كان يبجاسوف يتناول العشاء في مترل السيدة لاسونسكاي في ذلك اليوم . فراح يتحدث أكثر من أي شخص آخر . وقال فيما قال : إن الناس كالكلاب يمكن تصنيفهم صنفين : مقطوعى الذيل وطوائف

الذليل . ثم قال إن مقطوعي الذليل إما أن يكون ذيلهم قد خلق هكذا عند مولدهم . وإما أن يكون نتيجة لخطأ ارتكبه . ومقطوعو الذليل قوم أشقياء . لا ينجحون أبداً ؛ إذ تعوزهم الثقة بأنفسهم . أما من أوتى ذيلًا كئيبًا طويلاً فهو الذى يخالفه الحظ . وقد يكون أسوأ أو أضعف من صاحب الذنب المقطوع . ولكنه أوتى الثقة بنفسه . فإذا نشر ذيله بهر كل من رآه . وإنكم لتوافقونى على أن هذا أمر عجيب . فالذليل عضو من أعضاء الجسم لانفع فيه أبداً . فأى خير يرحى من الذليل . إلا أن كل إنسان يعرف مقدارك بذيلك ؟

ثم أردف يقول وهو يتهد : « وأنا نفسى من رهط مقطوعي الذليل . على أن الشيء الذى يذهل فى هذا الأمر هو أننى أنا الذى قطعت ذيلى بيدي » . وقال رودين عرضاً : « أى أنك تريد بعبارة أخرى أن تقول ماقاله لاروشفوكو من قبلك بزمن طويل : ثق بنفسك يثق بك الناس . ولست أدرى مكان الذليل فى ذلك » .

وأجاب فوليتسيف بخدة وقد مضت عيناه : « إن كل إنسان . أجل . إن كل إنسان . له الحق فى أن يعبر عما فى نفسه كما يشاء . تتحدثون عن الاستبداد . إنكم إذا سألتونى الرأى فى ذلك قلت : ليس ثم استبداد أسوأ من استبداد أولئك الذين يعرفون بأهل البراعة . ألا لعنة الله عليهم ! » .

وخيم السكون على القوم جميعاً . وانعدت ألسنتهم من جراء ثورة فوليتسيف ، ولقيت عينا رودين عينيه ولكنه لم يستطع الثبات أمامها . فأدار رأسه وابتسم ولم ينس بينت شفة .

وقال ييجاسوف بينه وبين نفسه : « ها ! إذن فأنت مقطوع الذليل أيضاً ! »

وقفز قلب ناتاليا إلى فمها ، وحملت السيدة لاسونسكايا في فوليتسيف في حيرة
وذ هول ، وكانت أول من قطع جبل السكون ، فأخذت تصف كلباً عجيباً يملكه
صديقها الوزير « ن » .

وغادر فوليتسيف الدار بعد الغداء بقليل ، ولم يملك نفسه وهو يستأذن ناتاليا في
الانصراف من أن يقول لها : « لماذا تبدين مرتبكة كل هذا الارتباك كأنك مذنبه ؟
هيئات أن تكوني مذنبه أمام أى مخلوق ! »

ولم تدرك ناتاليا مايرمى إليه ، فاكثفت بأن شيعته بنظرة حائرة .

وقصد رودين إليها قبل تناول الشاي ، وانحنى على المائدة كما لو كان يبحث في
الجرائد ، وقال هامساً : « لقد كان الأمر كله كاللحم ، أليس كذلك ؟ لامناص لي
من مقابلتك وحدك - ولو لحظة » .

والتفت إلى الأنسة بونكور قائلاً : « هاك ، أليست هذه صحيفة الأدب التي
كنت تبحثين عنها ؟ » ، ثم انحنى مرة أخرى صوب ناتاليا وأردف يقول هامساً :
« حاولي أن توافيني إلى خميلة الليلق قرب الشرفة حوالى الساعة العاشرة . . سأكون
في انتظارك » .

وأسلم رودين الميدان لبيجاسوف ، فقد كان بطل السهرة وروح عن السيدة
لاسونسكايا كثيراً . ذلك أنه قص عليها أولاً قصة جار له استكان لامرأته ثلاثين
عاماً فتطبع بطباع النساء حتى لقد رفع أطراف سترته يوماً وهو يجتاز وشلا في حضور
بيجاسوف كما تفعل النساء بنقباتهن ، ثم وصف سيداً آخر من سادة الريف كان في
أول أمره ماسونياً ثم غداً متطيراً ، وقرر آخر الأمر أن يكون صيرفياً ، وسأله

بيجاسوف « وماذا فعلت عندما كنت ماسونياً » فأجاب : « ما أفعله عادة : لقد أطلت ظفري أصبعي الخنصر » وازداد ضحك السيدة لاسونسكايا مرحاً وحبوراً عندما شرع بيجاسوف يفصح عن آرائه في الحب ، ويزعم أنه هو أيضاً قد أثار هذه العاطفة الرقيقة في النساء . بل إن سيدة ألمانية ملتية العاطفة قد بلغ بها الأمر أنها كانت تناديه يا « أفريكان الصغير اللذيذ » . وضحكت السيدة لاسونسكايا . ولكن بيجاسوف لم يكن يكذب . فقد كان حرياً به حقاً أن يفخر بغزواته ؛ ذلك أنه قال على سبيل التأكيد : إنه مامن شيء أيسر من إيقاع امرأة ، أياً كانت . في حباتك حبك . وحسبك أن تظل عشرة أيام متصلة تكرر على سمعها أن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعم وأن سائر النساء بالقياس إليها كالدمى المصنوعة من الخرق ! فإذا جاء اليوم الحادى عشر حدثت نفسها بأن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعم . ثم تقع في حبك . وهذه الأمور جائزة الحدوث . ومن يدري ؟ لعل بيجاسوف قد أصاب شاكلة الصواب . وما إن انتصفت العاشرة حتى كان رودين قد بلغ الحميلة بالفعل . وكانت الكواكب الصغيرة قد أخذت لتوها تلوح في أعماق السماء الشاحبة . وكان الأفق الغربى لا يزال يتوهج بالضوء القرمزى ، وبدت السماء هنالك أكثر تألقاً وشفاءً . وكان القمر في ربه الأول يرسل ضوءه الذهبى فينفذ من غمار شجرة التامول المهذلة ، وقامت الأشجار الأخرى كأنها المعالقة السود تتخللها آلاف من الفجوات الشبيهة بالعيون . أو تضرب في الجوكالهاكل الشاهقة الكثبية . وسكت أوراق الشجر لاتريم منها ورقة واحدة . فكانت قمم أشجار الليلق والسنتط تتصبب في الجو الحار خفيفة متقطعة . والمتزل يلوح عن قرب معتماً مظلماً . وقد بدت نوافذه الطويلة المضاءة كالبقع الحمراء المتوهجة . كانت أمسية

ناعمة هادئة . حتى لكأن المرء يسمع في هدأة السكون زفرة تند عن عاطفة مكبوتة .

ووقف رودين وذراعه مشبكتان على صدره . وراح يرهف السمع في قلق واهتمام . وكان قلبه ينبض بشدة وقد كتم أنفاسه . وطرق أذنيه آخر الأمر وقع أقدام خفيفة سريعة ودخلت ناتاليا الجميلة .

وقفز رودين منطلقاً إليها . وأخذ يديها بين يديه . وكانتا باردتين كالثلج . وهمس في صوت مختلج : « أي ناتاليا ! لقد أردت أن أراك . . وما كنت أستطيع الانتظار حتى الغد . إذ لا بد لي أن أقول لك شيئاً لم أكن أتوهمه قط . بل شيئاً لم أتبينه حتى هذا الصباح - إني أحبك ! » وارتجفت يدا ناتاليا قليلاً في يديه . وعاد يقول : « أحبك ! كيف غشى مني البصر كل هذا الوقت . فلم أتبين منذ أمد طويل أنني أحبك ! . . وأنت ؟ ! . . وأنت يانااتاليا ؟ » .

وحبست ناتاليا أنفاسها . وقالت أخيراً بعد جهد : « إنك لترى أنني قد أتيت » .

« أجل ولكن خبريني . . أتجيبني ؟ »

فهمست : « أعتقد . . أنني أحبك » .

وضغط رودين على يديها أكثر وأكثر . وحاول أن يجذبها إليه .

ونظرت ناتاليا حولها بسرعة وقالت : « دعني ؛ إنني مرتاعة . وأظن أن بعضهم ينصت إلينا . بالله عليك كن أكثر حرصاً ؛ فإن فوليتسيف يرتاب في أمرنا » .

« دعك منه ! وقد رأيت أنني لم أكلف نفسي مشقة الرد عليه عصر اليوم ؛ آد

يا ناتاليا . ما أعظم سعادتي ! لن يفرق بيننا شيء الآن .

ونظرت ناتاليا في عينيه وهمست تقول : « دعني فإنه يجب علي أن أذهب . »

وأنشأ رودين يقول : « لحظة واحدة . . »

« كلا . دعني . أرجوك ! »

« أتخافيني ؟ »

« كلا . ولكن يجب أن أنصرف الآن »

وسألته ناتاليا : « أتقول إنك سعيد ؟ »

« أنا ؟ إنني أسعد رجل في العالم ! أيجامرك شك في هذا ؟ » ورفعت ناتاليا

رأسها . وكان وجهها جميلاً ينطق بالنبل والشباب والعاطفة في ظلال الخميصة

الخفية وفي الضوء الخافت الهابط من السماء في تلك الأمسية .

ثم قالت : « ألا تعلم أنني سأكون لك ؟ »

وصاح رودين : « يا إلهي ! »

وانفلتت ناتاليا من بين يديه وتوارت عن الأنظار . ووقف رودين لحظة

ساكناً . ثم خرج من الخميصة متمهلاً ، وكشف ضوء القمر عن وجهه في الظلام .

وكانت تداعب شفثيه ابتسامة . وغمغم : « إني سعيد » ثم ردد هذا القول :

« أجل إني لسعيد » كأنما أراد أن يقنع نفسه بذلك ، وشد قامته . وطرح بخصلات

شعره المجمع إلى الوراء ، وراح يهز ذراعيه طرباً وسروراً . ثم دخل الخديقة مسرعاً .

وعندئذ انفرجت شجيرات خميصة الليلق في سكون وظهر منها بند الفسكي . ثم

نظر حوله في حرص وحذر . وهز رأسه . وزم شفثيه . ثم تتم في لهجة لها مغزاها

« أهكذا ؟ ليلفن الأمر سيدة البيت » واختفى عن الأنظار .

الفصل الثامن

وعاد فوليتسيف إلى المنزل كسير الخاضر تفيض نفسه بالغم والكآبة . وراح يرد على أخته في تبرم وإحجام . وما لبث أن اعتكف في مكتبه مما جعل السيدة ليينا تصمم على أن ترسل في طلب ليزنيف . ذلك أنها ألفت أن تعتمد عليه كلما ألت بها ملمة . وبعث إليها ليزنيف يقول إنه سيوافيها في اليوم التالي .

ولم تتغير حال فوليتسيف في صبيحة اليوم التالي . فقد كان يعتزم الخروج لبعض شأنه بعد تناول الشاي . ولكنه عدل عن ذلك . ولزم الدار . واستلقى على أريكة . وراح يقرأ في كتاب . ولم يكن ذلك من وكده قط . فقد كان لا يتذوق الأدب . ولا يجشى شيئاً خشيته للشعر . ومن أقواله المأثورة : « هذا شيء مستغلق على الأفهام كالشعر » . وآية ذلك أنه كان يستشهد دائماً بالأبيات الآتية للشاعر أيولات :

وهل يستطيع المرء مهما بلغ حظه من العقل والتوفيق
أن يقطف زهر البانسيه المخضب بدم الحياة

إلا إذا ذهبت أيام الحزن وولت؟ هيهات !
 وكانت السيدة لبيبا تنظر إلى أخيها في قلق وإشفاق . ولكنها تجنبت أن توجه
 إليه أى سؤال . ووقفت عربة بالبواب . فحدثت نفسها قائلة : « شكراً لله ، لاشك
 أنه ليزيف » . وجاء خادم وأعلن وصول رودين ، فالتى فوليتسيف بكتابه على
 الأرض ورفع رأسه . ثم سأل قائلاً : « من ؟ » .
 وعاد الخادم يقول : « ديمتري نيقولايفتش رودين » .
 وهب فوليتسيف واقفاً وأمر الخادم قائلاً : « دعه يدخل » ، ثم أردف وهو
 يلتفت إلى السيدة لبيبا . « وأنت يا أختاه . هلا تخلين بيننا » .
 فسألته : « ولكن لماذا . ؟ »
 فقاطعها وقد تجلى غضبه قائلاً : « لدى من الأسباب ما يدعونى إلى ذلك .
 وأرجوك أن تفعل ما قلته لك » .
 ودخل رودين . وكان فوليتسيف يقف في وسط الغرفة فانحنى له في برود . ولم
 يقدم له يده لمصافحته . واستهل رودين كلامه قائلاً وهو يضع قبعة على عتبة
 النافذة : « إني لوائق من أنك لم تكن تنتظرنى » . وكانت شفتاه تحتلجان بعض
 الاختلاج ، فقد كان قلقاً مضطرباً ، ولكنه حاول جاهداً أن يخفي قلقه .
 وأجاب فوليتسيف : « لم أكن أنتظر حقاً . فقد كان أحرى بى . بعد
 ما حدث بيننا الليلة الماضية ، أن أنتظر شخصاً يحمل رسالة منك » .
 فقال رودين وهو يجلس : « إني لأدرك ما ترمى إليه ، وأقدر صراحتك حق
 قدرها ، ولكن ما فعلته أفضل من ذلك بكثير ، فقد زرتك بنفسى كما أزور رجلاً
 شريفاً » .

وقال فوليتسيف : « أفلا تتخلى عن هذه المجاملات ؟ »
« أريد أن أشرح غرضي من الزيارة . »
« لقد سبق أن تعارفنا . فما الذى يحول بينك وبين زيارتي ؟ ثم إن هذه ليست
المرّة الأولى التي تشرفني فيها بزيارتك . »
فردد رودين قوله : « جئت لزيارتك كما يزور الرجل الشريف صاحبه . وأنا
أريد أن أحتكم إليك . لأنني أثق فيك كل الثقة . »
فقال فوليتسيف « أرجوك أن تدخل في الموضوع . » وكان لا يزال واقفاً في
وسط الغرفة ينظر شزراً إلى رودين . ويجذب طرفي شاربه من حين إلى حين .
« عفواً . لقد جئت أحدث إليك في الأمر . مافي هذا من شك . ولكن المرء
لا يستطيع أن يبدأ حديثه في الحال . »
« ولم لا ؟ »
« إن ثمّ شخصاً ثالثاً له دخل في الأمر . . . »
« ومن ذلك الشخص ؟ »
« أنت تعلم من أعني ياسرجي بافلوفتش »
« لا أعلم ياديمتري نيقولايفتش . »
« إذن تريد . . . »
فقاطعه فوليتسيف قائلاً : « تمنيت أن تكف عن اللف والدوران . » وكان
مرجل غضبه يشتد سريعاً . وقطب رودين حاجبيه قائلاً : « على رسلك إذن . فإننا
على انفراد . ويجدر بي أن أقول لك . . . ولو أنك ربما تكون قد (حذرت) الأمر
فعلا » (وهز فوليتسيف كتفيه مفضحاً عن نفاذ صبره) . يجدر بي أن أقول لك إنني

أحب ناتاليا . وعندي من الأسباب مايجملني على الاعتقاد بأنها تحبني » .
 وشحب لون فوليتسف ولكنه لم ينبس بينت شفة . بل ذهب إلى النافذة .
 وأدار ظهره إلى رودين ومضى رودين يقول : « ولعلك تدرك أنني لو لم أكن
 مقتنعاً . . » .

فقاطعه فوليتسف في لطفة قائلاً : « يا إلهي ! إنني لا أشك في ذلك أبداً .
 وأرجو لك التوفيق ! ولكنَّ ثمَّ شيئاً واحداً لا أستطيع أن أدركه . فقل لي بحق
 الشيطان : لم تحمل إلى هذه الأخبار ؟ وماجدواها بالنسبة لي ؟ وماذا يهمني من أمر
 من تحب ومن يحبك ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه ! » .
 وظل فوليتسف يخلق من خلال النافذة . وكان يتحدث بصوت خاوي
 النبرات .

ونفض رودين . وقال : « سأقول لك السبب في اعترامي المحيي إليك . وما
 حداثي إلى الظن بأن ليس من حق أن أخفي عنك . . شعورنا المتبادل ! إنني
 أحترمك غاية الاحترام ، ولذلك جئت إليك . ولم أشأ . بل لم يشأ أحدنا . أن
 يخذلك باصطناع أسباب العبث والمجون . لقد كنت أعرف شعورك نحو ناتاليا . .
 ولتعلمن أنني أعرف قدر نفسي حقاً . أعرف أنني أقل من أن أستحق الحلول محلك
 في قلبها . أما وقد قضت بذلك المقادير فهل نزل إلى أساليب الخداع والمكر
 والدهاء والنفاق ؟ أينق لنا أن نعرض أنفسنا للمواقف الناجمة عن سوء الفهم ، بل
 إلى مجرد احتمال وقوع مشهد كالذي وقع على مائدة الغداء بالأمس ؟ أينق لنا هذا
 ياسرجي بافلوفتش ؟ » .

وشبك فوليتسف ذراعيه على صدره . كأنه يريد أن يعقل ماتضطرم به نفسه .

ومضى رودين يقول : « أى سرجى بافلوفتش ! لقد آذيت شعورك ، وإني لمدرِك ذلك . . ولكن حاول أن تفهمنا . لم تكن أمامنا وسيلة أخرى نستطيع أن نثبت بها مانكنه لك من احترام . وندلل على أننا نستطيع أيضاً أن نقدر حق التقدير ماجبلت عليه من سلامة الفطرة وشرف الطبع . ولو كنت أخاطب أى رجل آخر ماكان للصراحة . الصراحة الكاملة . محل . أما معك فالصراحة تصبح واجباً . ونحن سعيدان إذ ندرك أننا وضعنا سرنا بين يديك » .

وأطلق فوليتسيف ضحكة مغتصبة . وهتف يقول : « شكراً لك على ثقتك ! ولو أنني أحب أن تعلم أنني ماكنت أود أن أشاركك في أسرارك أو أفضي إليك بأسرارى . على أنك تتصرف في أسرارى كأنها ملكك . وقد فهمت من حديثك أنك لا تتكلم عن نفسك فحسب . فهل لى أن أخرج من ذلك بأن الآسنة لاسونسكايا تعلم بأمر زيارتك والغرض منها ؟ » .

فأخذ رودين بعض الشيء وقال : « كلا . لم أخبر ناتاليا بنواياى ، ولكنى واثق من أنها تشاركنى في رأى » .

وعاد فوليتسيف إلى الكلام بعد سكون قصير . وهو ينقر زجاج النافذة بأصابعه : « كل هذا جميل . بل جميل جداً . والحق أنك لو قللت من احترامك لى هوناً ما لكان ذلك أفضل . ولتعلم . إن شئت أن تعلم . أن احترامك هذا لا يغنينى فى قليل أو كثير . ولكن . ماذا تريد منى الآن ؟ » .

« لا أريد شيئاً . . أو قل إني أريد شيئاً واحداً : أريد أن تعلم أنني لست رجلاً ماكرأ أدبر المكاييد . أريد منك أن تفهمنى . وأرجو ألا تعود إلى الشك فى إخلاصى . أريد أن نفرق . . صديقين وأن نتصافح كما كنا نفعل من قبل » .

ودنا رودين من فوليتسيف .

وقال فوليتسيف مواجهاً رودين ومترجعاً إلى الوراء : « عفواً ياسيدي . إني لمستعد أن أقر بحسن مقاصدك إقراراً لانتشوبه شائبة . فإنها مقاصد رفيعة جداً . بل هي إن شئت الحق سامية جليلة . إلا أن أمثالي من السذج يؤثرون البساطة في الأمور بلا تزويق ولاخيال . وهم عاجزون عن أن يتابعوا وثبات عقل كبير كعقلك . فإن المخلص في نظرك يبدو لأعيننا لجوجاً مغروراً . والشيء الواضح البسيط عندك نراه نحن مهوشاً غامضاً . إنك تفخر بأشياء نخفيها نحن ؛ فكيف نفهمك ؟ سألتك المعذرة . فإني لا أستطيع أن أعدك صديقاً . ولن أمد لك يدي . قد يكون هذا صغاراً ولكنني أنا نفسي رجل صغير » .

والتقط رودين قبضته من عتبة النافذة . وقال في لهجة يشوبها الحزن : « وداء يا سرجي بافلوفتش ! لقد أخطأت في تقديري . وإني لأسلم بأن زيارتي كانت عجيبة شيئاً ما . ولكن كنت آمل . . » (وأنى فوليتسيف بحركة تم عن نفاذ صبره) . « لا تؤاخذني . فإني لن أتحدث في الأمر بعد . وقد تبينت من الظروف مجتمعة أنك على حق . ولعمري أنه لم يكن أمامك طريق آخر تسلكه . وداعاً . واسمح لي مرة أخرى على الأقل . بل اسمح لي للمرة الأخيرة . أن أؤكد لك صدق نواياي . إني أتق كل الثقة في حصافتك . . » .

فصاح فوليتسيف وهو يهتز غضباً : « عجباً . كأن الأمر يَحتمل المزيد ! إني لم أفعل شيئاً لحملك على الثقة بي . وليس لك حق أو شبه حق في أن تعتمد على حصافتي ! » .

وكان رودين على وشك أن يقول شيئاً . إلا أنه أمسك . وأنى بحركة من يده

تنظري على الاستسلام ، وانحنى ثم خرج . وألقى فوليتسيف بنفسه على الأريكة .
ولفت وجهه صوب الحائط ، وسمع أخته تقول بالبواب : « أو تأذن لي
بالدخول ؟ » .

ولم يجب فوليتسيف لتوه بل مريده خلسة على وجهه . وقال في صوت يختلف
كل الاختلاف عن صوته المهود : « كلا يا ألكسندره ، دعيني وحدي لحظة » .
وجاءت بعد نصف ساعة ووقفت بالبواب .

وقالت : « لقد جاء ليزنيف ، هل تحب أن تراه ؟ » .

فأجابها : « نعم دعيه يدخل » .

ودخل ليزنيف ، وسأله وهو يجلس في كرسى مريح قرب الأريكة :
« ما بالك ؟ أمرض أنت ؟ » .

ورفع فوليتسيف نفسه مستنداً على مرفقه . وحملق طويلاً في وجه صاحبه . ثم
أعاد على مسامعه ماجرى بينه وبين رودين بالحرف الواحد . ولم يكن قد لَمَّحَ
لليزنيف من قبل قطّ بما يكفه من شعور نحو ناتاليا ، ولو أنه كان يوجس أن الأمر لم
يكن خافياً عليه .

وانتهى فوليتسيف من سرد قصته فقال ليزنيف : « لاشك أن ذلك كان
مفاجأة يا صديقي ؛ لقد كنت أنتظر منه كثيراً من الأمور العجيبة . أما هذا . . ولكنه
حتى في هذا منطوق مع نفسه » .

وصاح فوليتسيف وقد ثارت ثائرتة : « قسماً إنها لوقاحة مابعدھا وقاحة ! لقد
كدت ألقى بالرجل من النافذة ! أكان يريد التفاخر أمامي . أم أن الجبن هو الذى

حمله على ذلك؟ وما الدافع له؟ وكيف واثته الشجاعة على أن يقصد رجلا . . . »

وطوح فوليتسيف بيد خلف مؤخر رأسه والتزم الصمت .

وقال ليزنيف في هدوء : « كلا يا صديقي . ليس الأمر كما تظن . ولن تصدقني إذا قلت لك إنه فعل ما فعل بدافع حسن . والحق . . أنك لحرى بأن تعلم أن ذلك كان فرصة نبيلة شريفة واثته للحديث . أو قل لإظهار فصاحته . وهذا هو الشيء الذي كان ينبغي ولاشئ سواه . الشيء الذي لا يستطيع أن يعيش بدونه ، أجل . إن لسانه عدوه . . ولكنه خادمه أيضا . . » .

« هيهات أن تتصور ما تخلى به من وقار عندما أقبل على وراح يتحدث ! » .

« لا جرم ! بل قل إنه ليزرر سترته كأنه يؤدي فريضة مقدسة . تمنيت أن أنبذه في جزيرة قاحلة وأرقبه من خلف ركن لأرى كيف يدبر شأنه فيها . ومع ذلك فهو يستمسك بالبساطة ! »

فقال فوليتسيف : « قل لي بريك : مامعنى هذا كله ؟ أفسلفة هو أم ماذا ؟ » .

« أعتقد أنه حقاً فلسفة من وجه . وشيء يختلف تماماً عن الفلسفة من وجه آخر . فإنك لاتستطيع أن تتحاشى في براعة كل أنواع الهراء بتفسيره على ضوء الفلسفة » .

ونظر فوليتسيف إليه وقال : « ألا تظن أن الأمر كله كان كذبة ؟ » .

« كلا يا بني . وكفانا حديث في الموضوع . ولنشعل غليونينا ولنذع أختك .

فلحديث وهي معنا أعذب والسكوت أيسر ، وستقدم لنا الشاي » .

وقال فوليتسف : « أى والله » ، ونادى قائلاً : « أدخلى يالكسندره » .
 ودخلت السيدة ليينا ، فأمسك يدها وطبع عليها قبلة حارة .

* * *

وعاد رودين إلى الدار في حالة نفسية عجيبة مضطربة ، فقد كان غاضباً من نفسه ، وأخذ ينحى عليها باللائمة لما كان من تهوره الصياني الذى لا يغتفر ، وقد صدق عليه ذلك القول الحق : « مامن شيء أشد إيلاًماً للمرء من اكتشافه أمر حقاة وقع فيها لتوه » .

وكان رودين نادماً . وراح يفح من خلال أسنانه المطبقة قائلاً : « أى شيطان حملنى على الذهاب إلى ذلك السيد؟ يالها من فكرة جنونية ! أأعرض نفسى للوقاحة جهاراً نهاراً؟ » .

وكانت تجرى في الوقت نفسه حوادث عجيبة في بيت السيدة لاسونسكايا ؛ ذلك أن ربة الدار لم تظهر طوال الصباح . ولم تدخل غرفة المائدة لتناول طعام الغداء . وقال بندالفسكى . وهو الوحيد الذى سمح له بدخول غرفتها . إنها مصابة بصداع . ولم ير رودين أيضاً ناتاليا كثيراً . فقد بقيت في غرفتها مع الأنسة بونكور . فلما قابلته في غرفة المائدة نظرت إليه نظرة تفيض بالحزن غاص لها قلبه بين ضلوعه . إذ كان وجهها قد علتته سمة من التغير كأنما حلت بها مصيبة منذ اليوم السابق . فانتابت رودين هواجس مهيمة . ونشد التسلية في صحبة باستوف . واتصل الحديث بينه وبينه . فألفاه غلاماً ممتلئاً حمية . مرحاً نشيطاً يعمر قلبه الأمل السامى والإيمان الطاهر . ثم ظهرت السيدة لاسونسكايا ساعة أو ساعتين مساءً في غرفة الاستقبال . وكانت لطيفة مع رودين . إلا أنها كانت مترفعة بعض الشيء .

تبتسم حيناً . وتعبس حيناً . وتتحدث من أنفها في بطء وتمهل . وكان جل حديثها تلميحات مبهمة . وصفوة القول أنها كانت مثالا لسيدة المجتمع المهذبة الكاملة ! ويبدو أن علاقتها برودين قد شابهت شيئاً من البرود . وحدث رودين نفسه وهو ينظر خلصة إلى رأسها الشامخ قائلاً : « ترى ما حل هذا اللغز؟ » .

ولم تشأ المقادير أن يصبر طويلاً حتى يجد حل اللغز . فبينما كان عائداً إلى غرفته ماراً بالدلهيز المظلم وقد انتصف الليل أو كاد إذا ببعضهم يدس في يده رسالة على حين غرة . فالتفت فرأى فتاة تبتعد عنه . وقد خيل إليه أنه لمح فيها وجه خادم ناتاليا . ودخل غرفته . وصرف الخادم . ثم فتح الرسالة وقرأ السطور التالية بخط ناتاليا :

« وافنى في منتصف الساعة من صباح الغد . وليس بعد ذلك . إلى بركة أفديوخين خلف حرجة السنديان . ولا تفكر في أى موعد آخر ، وسيكون هذا لقاءنا الأخير . وفيه النهاية مالم . . تعال . فإنه ينبغي لنا أن نصل إلى قرار . . .
حاشية : إن لم آت فلن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ، وفي تلك الحالة سأكتب لك . . . » .

واستغرق رودين في التفكير ، وأخذ يقلب الرسالة بين يديه . ثم وضعها تحت وسادته . وخلع ملابسها واستلقى على فراشه . ولكنه لم يتم إلا بعد وقت طويل . نام نوماً خفيفاً . ثم استيقظ ولما تبلغ الساعة الخامسة .

الفصل السابع

كانت بركة أفديوخين التي واعدت ناتانيا برودين على اللقاء عندها . قد زالت عنها هذه الصفة منذ وقت طويل . ذلك أن القنطرة التي توصل إليها الماء كانت قد تصدعت . ومضى على تصدعها ثلاثون سنة كاملة . ثم أهملت من بعد . ولا يستطيع المرء الآن أن يتكهن بأن ثم بركة كانت في هذا الموضع إلا من قاع تلك الوهدة المنبسط الناعم الذي كان يغطيه يوماً الغرين الزلق . ومن بقايا القنطرة . وكان يقوم على ضفة البركة في وقت من الأوقات مترل لأحد الملاك . وقد اختفى هذا المترل أيضاً منذ وقت طويل . وكانت تدل عليه شجرتا صنوبر ضخمتان . لم تنقطع الريح قط عن الزفيف والدمدمة في كآبة وحزن وهي تمر خلال غصونها العالية التحيلة الدائمة الاخضرار . وكانت الشائعات الخفية لاتزال حية بين أهل الريف يتناقلون خبر جريمة بشعة تخيلوا أنها وقعت عند جذورهما . وقيل أيضاً إنه ما من شجرة تسقط من هاتين الشجرتين إلا يموت بسقوطها أحد من الناس . وإن شجرة صنوبر ثالثة كانت تقوم في ذلك الموضع أطاحت بها عاصفة فقتلت فتاة

صغيرة ، وكان القوم يعتقدون أن أكناف البركة جميعاً مسكونة . كانت البقعة مقفرة موحشة ، كثية مظلمة حتى لو واتاها يوم مشمس . وقد زاد في كآبتها ووحشتها حرجة السنديان الهرمة التي كانت تقوم في جوارها وقد ذوت أشجارها وماتت منذ وقت طويل ، وارتفعت الهياكل السمراء المتناثرة لشجر السنديان الضخم كأنها الأشباح تنقبض لها النفس وهي تطل على ماتحتها من نبات . لقد كانت هذه الهياكل المشثومة أشبه بعصبة من العجاثر الأشرار اجتمعوا لتدبير مكيدة خبيثة ؛ وكان يخف بها طريق ضيق لا يطرقة الناس إلا لماماً . ولم يكن أحد يمر ببركة أفديوخين إلا إذا ألجأته حاجة ملحة ، وقد تعدت ناتاليا اختيار هذه البقعة المهجورة التي كانت تبعد نصف ميل أو نحو ذلك من منزل السيدة لاسونسكايا .

وبلغ رودين بركة أفديوخين وقد علت الشمس السماء . إلا أن الصباح كان كثيباً تنقبض له النفس ، فقد غشيت السماء كلها غيوم كثيفة يشوبها بياض مغبر . وكانت الريح تدفعها في طريقها بسرعة ، وهي تصفر وتعوى ، وشرع رودين يروح ويغدو على القنطرة التي كان عالقاً بها نبات رأس الحمام وحشائش القريض الضاربة إلى السواد ، وانتابه قلق واضطراب . فقد كانت تلك المقابلات ، وتلك المشاعر الجديدة تنعش نفسه ، إلا أنها كانت في الوقت نفسه تشغل باله وخاصة بعد رسالة الليلة الماضية . وأحس بأن النهاية قريبة ، وشعر في قرارة نفسه بأن عزمته تخور ؛ وما كان لأحد أن يتبين ذلك وهو يراه يشبك ذراعيه على صدره في عزم صارم ويتلفت حوله . لقد صدق بيجاسوف عندما قال مرة : إن رودين صنم من أصنام الصين رأسه دائماً أثقل من جسمه . وليس يسهل على المرء إذا استعان برأسه وحده مهما بلغ من قوته ، أن يتبين ما يجري في طوايا نفسه . ولم يكن رودين ، وهو الثاقب

الفكر النافذ البصيرة ، بمستطيع أن يقول في يقين جازم : أنجب ناتاليا حقاً ؟ وهل مايعانيه في حبها يصدر عن شعور صادق ؟ وهب أنه افترق عنها فهل يقاسى من ذلك ويشقى ؟ وإلا فما الذى حمله على أن يدبر رأس الفتاة المسكينة . في حين أن واجب الإنصاف يقتضينا على الأقل أن نقول : إنه لم يتعمد أن يمثل معها دور العاشق الوطمان ؟ ولم كان ينتظرها وقد تملكته رعدة خفيفة ؟ ليس لهذا السؤال إجاب واحد . وهو : ما من أحد يجوز عليه الافتتان بقدر مايجوز على من لا قلب له .

وبينما كان رودين يروح ويغدو على القنطرة ، كانت ناتاليا تسرع الخطى إليه مجتازة الحقول وهي تضرب في العشب الندى .

وظلت خادمتها ماشا تقول لها ، وهي تلاحقها بصعوبة « يا آنسة ! يا آنسة ! ستبتل قدماك ! » .

ولم تأبه ناتاليا لها ، ومضت في طريقها مسرعة .

واسترسلت ماشا تقول : « آه لو كشفوا أمرنا ! إنها لأعجوبة أننا استطعنا التسلل من المنزل ، فإذا يكون من أمرنا إذا استيقظت الآنسة بونكور ؟ أحمد الله على أن المكان ليس بعيداً غاية البعد . . » ثم أردفت تقول ، وقد أبصرت رودين على حين غرة يقف كالتمثال على القنطرة : « عجباً ! هذا هو السيد ، فما باله يقف هكذا في العراء ، لقد كان أجدر به أن يهبط إلى الوهدة » .

وتوقفت ناتاليا ، وقالت لها : انتظري هنا ياماشا بجوار شجرتى الصنوبر ، ثم هبطت إلى البركة ، وصعد رودين للقائها ، ولكنه توقف وقد غلبه الدهول . ذلك

انه لم ير وجهها من قبل قطّ على هذه الحال . فقد قطبت جيئها وزمت شفيتها .
وكانت نظراتها صارمة قاطعة .

وشرعت تقول : « إن وقتنا أضيّق من أن نضيعه ياديمتري نيقولايفتش . فقد
جئت لأقضى معك خمس دقائق . ويجدر بي أن أنبئك بأن أمي تعرف كل شيء .
فقد تجسس علينا السيد بندالفسكى أول أمس . ونقل إليها خبر مقابلتنا . ذلك أنه
جرى دائماً على أن يكون جاسوساً لأمي . وقد استدعتني البارحة إلى غرفتها . . » .
وهتف رودين : « يا إلهي ! إنه لأمر فظيخ ! وماذا قالت أمك ؟ »
« لم تغضب مني ولم تنهري ، وإنما أخذت عليّ تصرفي الأخرق على حد قولها .
« وهل اكتفت بذلك ؟ »

« أجل . ثم قالت : إنه لأهون عليها أن يدركني الموت سريعاً من أن تراني
زوجة لك » .

« أوقالت ذلك ؟ » .

« أجل . وأردفت تقول : إنه ليس في نيتك أبداً أن تتزوجني ، وغاية ما في
الأمر أنك تغازلني لشعورك بالملل ؛ وإنما لم تكن تنتظر منك هذا ، وإنما الملومة
لسماحها لي بمقابلتك كثيراً . . وإنما كانت تعتمد على حسن إدراكي . . وإني قد
أدهشتها كثيراً . . وأقوال أخرى كثيرة لأذكرها » .

وكانت ناتاليا تقول هذا كله في صوت عجيب في هدوئه واتزانه .

« وأنت ياناتاليا . . ماذا قلت لها ؟ » .

ورددت ناتاليا قوله : « ماذا قلت لها ؟ وما الذي عولت عليه الآن ؟ » .
وهتف رودين : « يا إلهي ! يا إلهي ! باللقسوة ! أهكذا بسرعة . وبمثل

هذه الضربة المفاجئة . . ؟ أتقولين إن أمك كانت غاضبة أشد الغضب
 « أجل . . أجل ، وهي تأتي أن يذكر أمامها اسمك ! »
 « إنه لأمر فظيع ! إذن . فليس ثم أمل يرجى ! »
 « أبداً » .

« لماذا ينال منا سوء الطالع هذا المنال ؟ بندالفسكى - ياله من وغد بر
 تسأليني يا ناتاليا ما عسى أن أصنع ؟ إن رأسي يدور . . ولا أستطيع التفكير
 أشعر بمبلغ ماأنا فيه من تعس . ومن عجب أن تتلقى الأمر بمثل هذا الهدوء
 وأجابت ناتاليا : « أتظن أن الأمر هين على ؟ »

وأخذ رودين يذرع القنطرة ، وظلت ناتاليا ترمقه بنظراتها لاتريم
 وسألها آخر الأمر : « أولم توجه إليك أمك أية أسئلة ؟ »
 « سألتني : هل كنت أحبك ؟ » .

« حسنا ، وبماذا أجبتها ؟ »

وسكتت ناتاليا . ثم قالت : « لم أكذب » .

وتناول رودين يدها وقال : « إنك نبيلة كريمة - دائماً ، وفي كل أمر ،
 إن قلوب العذارى قد صيغت من الذهب الخالص ! أوجاهرت أمك -
 تقف بشدة في طريق زواجنا ؟ »

« أجل . لقد قلت لك : إنها مقتنعة بأنه ليس في نيتك أن تتزو
 « إذن فهي تحسبني محتالاً ؛ ماذا فعلت حتى أستحق هذا ؟ » . وأمسك
 برأسه بين يديه . وأخذت ناتاليا تستحثة قائلة : « إننا نضيع الوقت .
 نيقولايفتش . ألا فلتذكر أنني لن أقابلك مرة أخرى . ولم آت هنا لأ

أشكر ، وأنت ترى أنني لا أبكي . وإنما جئت أطلب منك النصح .
 « ولكن أى نصح يمكننى أن أسديه إليك ياناتاليا ؟ » .
 « أى نصح ؟ إنك رجل ، لقد جئت لألقى فى قلبى الإيمان بك وسأومن بك حتى النهاية ، فأفصح عن نواياك » .
 « نواياى ! أغلب الظن أن أمك ستحول بينى وبين دخول المنزل » .
 « قد يكون هذا ، ذلك أنها قالت لى البارحة إنها ستضطر إلى قطع علاقتها بك . . ولكنك لم تجب على سؤالى » .
 « أى سؤال ؟ » .
 « ماذا نحن فاعلان الآن فيما تظن ؟ »
 وردد رودين قولها : « ماذا نحن فاعلان ؟ يجب أن نستسلم طبعاً » .
 ورددت ناتاليا عبارته فى بطمه وقد ابيضت شفتاها : « نستسلم ! »
 ومضى رودين يقول : « نستسلم للمقادير ، وماعسانا نستطيع غير هذا . إني لأعلم حق العلم مبلغ ما فى ذلك من مرارة وألم وشقاء لا يخطر على بال ، ولكن احكى أنت ياناتاليا - إبنى فقير . . صحيح أنني أستطيع أن أعمل ، ولكن هى أنني كنت غنياً فكيف تواجهين غضب أمك وانقطاع صلتك بأسرتك على هذا النحو العنيف ؟ كلا ياناتاليا ! هذا أمر لا يصح التفكير فيه ، والظاهر أننا لم نخلق لنعيش معاً ، والسعادة التى كنت أحلم بها ليست من نصيبى ! » .
 وأخفت ناتاليا وجهها فجأة بين يديها ، وانفجرت باكية فحذف إليها رودين .
 وصاح فى حرارة : « ناتاليا ! عزيزتى ناتاليا ! بربك لاتبكى . ولا تعذبى قوادى ، وهدنى من روعك . . »

ورفعت ناتاليا رأسها وقالت ، وعيناها تقدحان شرراً من خلال عبراتها :
تقول لى هدى من روعك ، إننى لا أبكى لما توهمت . . إنه ليس ذلك . بل
سى يؤلنى أننى كنت مخدوعة فيك ، وى ! لقد جئت أطلب منك النصيحة وى
مثل هذه الظروف . فماذا وجدت منك ؟ وجدت أن أول مابادرتنى به هو أن
ستسلم ! وإذن . فهذا هو أسلوبك فى تطبيق جميع آرائك عن الحرية والتضحية
التي »

وأخذ صوتها يخفت رويداً رويداً حتى تلاشى .

وراح رودين يقول فى لهجة تم عن الحيرة والارتباك : « ولكن اذكرى
يا ناتاليا . . أننى لا أنكث بوعده أقطعه على نفسى . . وإنما . . . »

ومضت ناتاليا تقول وقد تزودت بزداد من القوة جديد : « لقد سألتنى بماذا
أجبت أمى عندما قالت لى إنه لأهون عليها أن يدركنى الموت سريعاً من أن توافق
على زواجنا . لقد قلت لها : إنه لأهون على أن يدركنى الموت سريعاً من أن أتزوج
أحداً سواك . وأنت تقول . . استسلمى ! إذن فقد كانت على حق . . وغاية ما فى
الأمر أنك توددت إلى لأن السأم كان قد نال منك . . »

وقال رودين : « أقسم لك ياناتاليا . أؤكد لك . . » ، بيد أنها لم تستمع
إليه .

« لماذا لم تصدىنى ؟ ولماذا أنت نفسك . . أم أنك قدرت أنه لن تكون ثم
عقبات ؟ إننى لأخجل أن أتحدث فى هذا الأمر . . ولكن كل شىء قد انتهى
الآن . »

فقال رودين : « يجب أن تهدنى من روعك ياناتاليا ، يجب أن نضع رأسينا معاً

وتندبر مانستطيع أن نفعله . . . » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « ما أكثر ما تحدثت عن تضحية المرء بنفسه ، ولكن هلا علمت أنك لو قلت لي اليوم ، بل في هذه اللحظة « إني أحبك ، ولكني لأستطيع الزواج منك فإنني لأعلم ما يخفيه الغد . أعطني يدك واتبعيني » ، لكنك تبتعدك ، لقد كنت مستعدة لكل شيء ! ولكن شتان بين الأقوال والأفعال ، وأنت الآن تلوح بغصن الزيتون كما فعلت تماماً أول أمس في أثناء العشاء في حضرة فوليتسيف ! » .

واندفع الدم إلى وجه رودين . فقد أثر جيشان عاطفتها في نفسه تأثيراً عظيماً .
إلا أن كلماتها الأخيرة جرحت كبريائه .

وأنشأ يقول : « إنك منهوكة القوى الآن يانا تاليا ، وأنت لاتدركين مبلغ قسوتك في إيلامي . وأرجو أن تنصفيني في الوقت المناسب ، وستفهمين عندئذٍ كم تحملت في سبيل التخلى عن سعادة لم تكن لتفرض علي فيما قلت أى التزام ؛ إن هدوء نفسك لأغلى عندي من أى شيء في هذه الدنيا ، وما أحراني أن أكون أحط الناس طراً لو أنني انتهزت الفرصة . . . » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « لعلك . . لعلك على صواب ، أما أنا فأهذى لا أعرف ، ولكنني كنت أومن بك حتى اليوم ، أومن بكل كلمة تقولها ، فأرجو أن تزن كلماتك في المستقبل . ولا تلق الكلام على علاته . فإنني حين قلت لك إني أحبك كنت أعرف معنى هذه العبارة ، لقد كنت مستعدة لأى شيء . . ولم يبق لي الآن إلا أن أشكرك على الدرس الذى ألقيته عليّ . وأن أستودعك الله » .
« كفى بالله يانا تاليا . أتوسل إليك . إني لم أفعل شيئاً أستحق من أجله

ازدراءك . وأقسم لك على هذا . ولتحاول أن تضعى نفسك فى موضعى . فإنى
 مسؤل عنك وعن نفسى . ولو أننى لم أكن أحبك أخلص الحب وأعمقه -
 رباه ! - لكن قد عرضت عليك أن تهربى معى . أما أمك فإنها كانت خليفة أن
 تصفح عنك إن عاجلاً أو آجلاً . . ثم . . ولكن قبل أن أفكر فى سعادتى . . .
 وكبح جاح نفسه . فقد أزعجته نظرة ناتاليا وهى تنفرس فيه دون أن يهترها
 جفن .

وقالت : « إنك تبذل قصارى جهدك لتثبت لى أنك رجل شريف .
 وأنا لا أشك فى هذا . فإنك لست من طراز أولئك الذين يدبرون الخطة . ولكن
 أهذا الذى كنت أريد أن أقنع به نفسى ؟ ألهذا جئت لى هنا ؟ » .
 « لم أتخيل قط يا ناتاليا . . » .

« آه ! لقد كشفت الآن عن خبيثة نفسك . أجل . إنك لم تتخيل قط أن
 ينتهى الأمر لى ما انتهى إليه ؛ ذلك أنك لم تكن تعرفى . ولكن لا تتزعج . إنك
 لاتجبنى . وأنا لا أفرض نفسى على أحد » .
 وهتف رودين : « إنى أحبك ! » .

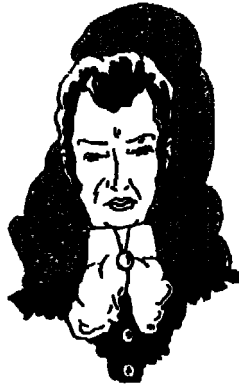
وشدت ناتاليا قامتها وقالت : « ربما . ولكن كيف يكون هذا الحب ؟ إنى
 لأذكر جميع كلماتك يا ديمترى نيقولايفتش . ألا تذكر أنك قلت لى : لا يقوم
 الحب إلا إذا تساوى الطرفان فى كل شىء ؟ إنك لأرفع منى كثيراً . ولست
 مثلك . . لقد حق على العقاب . ولسوف تقبل على أمور أجدر بك منى بكثير .
 ولن أنسى هذا اليوم . أستودعك الله . . » .
 « ناتاليا . أذاهبة أنت ؟ أوحق علينا أن نفرق على هذا النحو ؟ » .

ومد يديه إليها . فتوقفت . وبدا أن صوته المبتهل قد أوهن من عزيمتها .
وتكلمت آخر الأمر فقالت : « كلا . فإني أشعر بأن شيئاً قد انتزع من أعماق
نفسى . لقد جئت وتحدثت إليك كالمحمومة . ويجدر بي أن أتوب إلى رشدى . إن
ذلك لا يمكن أن يكون . وهذا هو ماقلته أنت . ياإلهى . لقد ودعت في محيلتى وأنا
مقبلة في طريق إليك . بيتى وماضى كله . ثم ماذا حدث ؟ ومن لقيت هنا ؟ لقيت
قلباً ضعيفاً . وما الذى جعلك تحسب أننى لن أقوى على احتمال القرقة بقطع مايبينى
وبين أسرى ؟ » إن أمك تأبى زواجنا . . إنه لأمر فظيع ! » . وهذا هو كل ماسمعه
منك . فهل أنت صادق مع نفسك ؟ هل هذا هو شأنك يا ديمترى نيقولايفتش ؟
كلا وداعاً . . أواه ، لوكنت تحبى لشعرت بجنبك الآن . وفى هذه اللحظة . .
كلا . كلا . وداعاً ! » .

ودارت على عقبيها وانطلقت صوب ماشا التى كانت بدافع من قلقها قد دأبت
منذ وقت طويل على أن تبدى لها من الإشارات مايفصح عن هذا القلق .
وصاح رودين من وراء ناتاليا : « إنك أنت الجبانة ولست أنا ! » .
ولم تعره ناتاليا من بعد التفاتاً . ومضت إلى المنزل لاتلوى على شىء مجتازة
الحقول . وعادت إلى مخدعها دون أن يقع لها حادث . ولكنها ما إن اجتازت عتبة
الاباب حتى خارت قواها وغشى عليها بين ذراعى ماشا .
وتلكأ رودين عند القنطرة طويلاً . واستيقظ آخر الأمر من سباته . وشق
طريقه في بطء إلى الممر ، واجتازه في غير عجلة . لقد كان يشعر بذلّ وقلق
عظيمين . وحدث نفسه قائلاً : « يالها من فتاة ! ثم هى لم تجاوز الثامنة عشرة !
كلا لم أكن أعرفها . ما أعجيبها من فتاة ! وبالقوة إرادتها ! إنها على حق . فهى

خليقة بحب أفضل من الحب الذى كنت أشعر به نحوها » ، ثم ساءل نفسه :
 « أشعر به ؟ ألا أشعر به بعد ؟ وهكذا انتهى كل شيء إلى زوال ! يا الضالّتى فى
 عينها ! » .

وطرق أذنى رودين جلجلة خفيفة صادرة من عربة سباق . فرفع عينيه ورأى
 ليزنيف يسوق جواده الأثير خبياً مقبلاً نحوه . وانحنى كل منهما للآخر فى سكون .
 ومالبت رودين أن هجر الطريق الذى كان يسير فيه كأنما طرأت عليه فكرة
 مفاجئة . وغدّ السير ميمماً صوب منزل السيدة لاسونسكايا .
 وتركه ليزنيف يمر . ثم شيعه بنظراته . وأعمل الفكر لحظة . ثم لوى عنان
 جواده . وانطلق إلى منزل فوليتسيف . حيث كان قد قضى ليلته بالأمس . فوجد
 فوليتسيف نائماً . وأمر الخدم بالألّا يوقظوه . وجلس فى الشرفة ، وأشعل غليوناً فى
 انتظار الشاي .



الفصل العاشر

استيقظ فوليتسيف في الساعة العاشرة أو نحوها . واشتدت دهشته إذ علم أن ليزنيف يجلس في الشرفة . فأرسل إليه يقول إنه سيلقاه في غرفته .
وسأله : « ما الخبر؟ لقد كنت تنوى أن تعود إلى دارك » .
« لقد كان ذلك في نيتي . ولكنني صادفت رودين في طريق . وكان يحتاج الحقول وحده . وقد بدا مضطرباً غاية الاضطراب حتى إنني قررت العودة » .
« أتريد أن تقول إنك عدت لأنك صادفت رودين ؟ » .
« لست أعرف وإيم الحق لم عدت ؟ ، ولعلني ذكرتك فأحببت أن ألقاك مرة أخرى . ولم يكن ثمة ما يحملني على العودة سريعاً إلى داري » .
وابتسم فوليتسيف ابتسامة مريية وقال : « أجل ، فإنك تستطيع أن تفكر الآن في رودين دون أن تفكر في » . ثم نادى بصوت مرتفع : « أنتم يامن هناك ، إلينا بشيء من الشاي ! » .
وأخذ الصديقان يشربان الشاي . وشرع ليزنيف يتحدث في أمور تتصل

بالعمل . أو قل في طريقة جديدة لتغطية أسقف الأنبار بالورق . . .
وقفز فوليتسيف بغتة من كرسية المريح . وضرب المائدة بقوة جلجلت الأقداح
والصحاف .

وهتف : « كلا ! لم أعد أحتمل هذا ! سأتحدى ذلك الرجل الماهر وأتركه
يقتلني . أو أودع رأسه المليء بالعلم رصاصة ! »
وتتم ليزنيف : « وى . على رسلك . على رسلك ! كيف ترفع عقيرتك
هكذا ؟ لقد جعلت الغليون يسقط من فى . ماذا دهاك ؟ » .
« لأطبق سماع اسمه . فإن سماعى له يجعل دمي يغلي في عروقي » .
فعنه ليزنيف . وهو يلتقط غليونه من الأرض . قائلا : « مهلا . مهلا
يا صديقي . يجب أن نتحجج من نفسك . كفى ! وليذهب إلى الجحيم » .
ومضى فوليتسيف يقول . وهو يذرع الغرفة : « لقد أهانني ذلك الرجل . أجل
لقد أهانني ؛ وإنك لتسلم بهذا ! كنت أول الأمر في حيرة من أمرى . فقد أخذني
على غرة ولم أك أتوقع قط ما حدث ! ولكنني سأثبت له أنني لست ممن يعبث بهم .
سأقتل ذلك الفيلسوف الملعون كما لو كنت أقتل حجلا » .
« لشد ما يعود عليك هذا بالخير ! . ناهيك بوقع ذلك في نفس أختك !
لاشك أنك واقع تحت رحمة آلام نفسية عنيفة أعجزتك عن التفكير في أختك ؛
ولكن ما رأيك في الطرف الآخر؟ أنتظن أنك تصلح الأمور بقتل غريمك
الفيلسوف ؟ » .
وألقى فوليتسيف بنفسه في كرسى مريح . قائلا : « إذن سأرحل إلى مكان ما ؛
إن قلبي ليدوب هنا . ولست أدري ماذا أفعل بنفسى ؟ » .

« تقول إنك سترحل ، إذن فهذا شيء آخر ، بل هو الشيء الذى يجب أن تفعله ، أتدرى ما أعنيه ؟ لترحل معاً . . إلى القوقاز . أو نكنف بالسفر إلى أوكرانيا ، ونأكل « الجالوشكى » الذى اشتهر القوم به هناك ، لقد وقفت كبيراً فى فكرتك هذه ! » .

« وأترك أختى وحيدة لايونس وحشها أحد ؟ » .

« ولم لاتأتى السيدة لبيينا معنا ؟ لعمرى ليكون هذا خيراً ما نفعل ! ولو جاءت لسهرت عليها ، وجعلت العناية بها شغلى الشاغل ، ولن ينقصها من ثم شيء ؛ وحسى كلمة تفصح عن موافقتها فأرتب لها كل ليلة من يشدو بأناشيد الحب تحت نافذتها . وأنضح الحوذى بالعطري . وأغرس الزهور على طول الطريق ، أما أنت وأنا يا صديقى - فسكنون كمن ولد من جديد ، ولسوف نغم بالكثير ، وتثوب وقد سمن كرشاننا فلا نعود نصلح للحب أبداً » .

« كل همك أن تمزح » .

« أنا لا أمزح بخال ، وإنما كانت فكرتك هذه شيئاً رائعاً » .

« كلا ! فإنها ليست إلا عبثاً وهراء ! سأناضل ، أريد أن أناضله ! » .

« تعود إلى الشطط مرة أخرى ! إنك اليوم فى حالة من الخلق لم أعهد لها فىك

من قبل إلا نادراً ! » .

ودخل خادم وفى يده خطاب .

وسأله ليزنيف : « من الخطاب ؟ » .

« من ديمترى نيقولايفتش رودين ، أتى به خادم من خدم السيدة

لاسونسكايا » .

وردد فوليتسيف القول : « من رودين ؟ ولن ؟ » .

« لك ياسيدى »

« لى ؟ على به ! » .

وأمسك فوليتسيف الخطاب وفضه على عجل ، ومر مروراً سريعاً على محتوياته . وكان ليزنيف يرقبه عن كعب . وغشى ملامح فوليتسيف ذهول عجيب يكاد يبلغ مبلغ القرح ، وأرخى يديه .

وسأله ليزنيف : « وما الذى جاء فى الخطاب ؟ » .

فقال فوليتسيف فى صوت أجش : « اقرأه » ، وناوله الخطاب .

وأخذ ليزنيف يقرؤه ، وهذا ماكتبه رودين :

عزيزى سرجى بافلوفتش :

. إني لراجل اليوم عن منزل السيدة لاسونسكايا ، راحل فى ضوء ماحدث بالأمس . ولا أستطيع أن أشرح لك بالدقة الأسباب التى تحملنى على ذلك ، إلا أننى أشعر بأنه ينبغى على أن أثبتك برحيلى ، إنك تبغضنى ، بل تعدنى رجلا سيئ السمعة ، وليس فى نيتى أن أبرئ نفسى ، فالزمن كفيفل بهذا ، وعندى أنه ليس خليفاً بالمرء ولا هو بمجديه أن يحاول أن يثبت لشخص من أصحاب الهوى بطلان أهوائه ، ذلك أن من يفهمنى يعذرنى ، ومن لا يفهمنى أو لا يستطيع أن يفهمنى - لن يحرك لومه منى ساكناً ؛ لقد كنت مخدوعاً فيك ، ولسوف تظل فى نظرى الرجل النبيل الشريف ، ولكنى حسبك قادراً على الارتفاع عن البيئة التى تنتمى إليها ، وكنت فى ذلك مخطئاً ، وأسفاه . فإن هذه ليست هى المرة الأولى . ولن تكون الأخيرة ، أجل ، إني راحل ، وأتمنى لك السعادة والهناء ، وأرجو أن تعلم أن

رغبتي تلك كانت بريئة كل البراءة من الهوى ، وأرجو أيضاً أن تكون ناعم البال
الآن ، ولعلك تغير رأيك في عندما يأتي الأوان ، لست أدري : ألتقي مرة
أخرى ؟ ، ولكني سأظل دائماً .

المخلص الذي يكن لك الاحترام

. د . ر .

حاشية : سأرد لك مائتي الروبل التي اقترضتها منك عندما أصل إلى قريتي في
ناحية « ت - آيا » وأرجوك ألا تذكر شيئاً من أمر هذا الخطاب للسيدة
لاسونسكايا .

حاشية أخرى : لي مطلب آخر لا مطلب لي بعده ، لكنه من الأهمية بمكان :
أما وإني راحل الآن فرجائي إليك ألا تذكر أبداً لنا تاليا لاسونسكايا خبر زيارتي
لك .

وما إن فرغ ليزنيف من تلاوة الخطاب حتى سأله فوليتسيف : « والآن .
ما رأيك في هذا ؟ » .

وهتف ليزنيف : « وما عسى المرء أن يقول ؟ حسبه أن يصيح قائلاً : « الله .
الله ! » كما يفعل المشاركة ويضع إصبعه في فمه كالمشده ، إنه راحل ، وأنا أقول إلى
غير رجعة ، ولكن الشيء العجيب أنه ظن أن الواجب يقتضيه أن يكتب هذا
الخطاب إليك ، وأن الواجب يقتضيه أيضاً أن يأتي ليراك . . إن كل خطوة يحطوها
هؤلاء السادة لواجب من الواجبات » ثم أضاف ليزنيف وهو يشير إلى الحاشية
بابتسامة ساخرة : « إن عليهم دائماً واجباً يقضونه . . أو ديناً يوفون به » .
وصاح فوليتسيف : « باللعبارات التي يسوقها سوقاً ! لقد كان مخدوعاً في .

فقد حسب أنى سأرتفع عن بيثة من البيثات أو شيئاً من هذا القبيل ! يا إلهى !
باللهراء ! إنه لأقبح من الشعر ؛ »

ولم يجب ليزنيف ، ولكن كان في عينيه بريق .

وانتصب فوليتسف واقفاً وقال : « أريد أن أزور السيدة لاسونسكايا ، يجب
أن أتبين معنى هذا كله » .

« مهلاً يا صديقى ، أفسح له الوقت حتى يرحل ؛ ما بالك تريد أن تسرع إليه
مرة أخرى ؟ إنه على وشك الرحيل ، فماذا تود أكثر من هذا ؟ لخير لك أن تأوى إلى
فراشك وتنال قسطاً من النوم ، فإنك بلا شك قد تقلبت في فراشك طول الليل .
ولكن أمورك أخذت تتكشف الآن » .

« ما الذى حملك على هذا الظن ؟ » .

« وى ! هذا ما يبدو لى ، ويحسن بك حقاً أن تغفو قليلاً . أما أنا فسأذهب
لأجلس مع أختك » .

فقال فوليتسف وهو يجذب أطراف سترته : « ليست لى أقل رغبة فى النوم !
ولماذا أنام ؟ سأسرع إلى الحقول أتفقدتها » .

« فكرة لأبأس بها ؛ اركب جوادك يا صديقى ، اركب جوادك واخرج ، وألق
نظرة فاحصة على تلك الحقول » .

ومضى ليزنيف إلى جناح السيدة ليينا .

ووجدها ليزنيف فى غرفة الاستقبال ، فحيته مرحبة ، فقد كان يسرها دائماً أن
تراه ، إلا أن القلق ظل مرتسماً على وجهها ، فقد أزعجتها زيارة رودين بالأمس .
وسألت ليزنيف : « هل رأيت أخى ؟ كيف حاله اليوم ؟ »

« إنه بخير ، وقد خرج ليلقى نظرة على الحقول » .
 والتزمت السيدة لبيينا الصمت لحظة . ثم شرعت تقول وهي تحديق ملياً في
 أطراف منديلها : « هلا أخبرتني ! أو تعلم الغرض من . . ؟ » .
 وقاطعها ليزنيف قائلاً : « من زيارة رودين ؟ أجل ، لقد جاء مودعاً » .
 ورفعت السيدة لبيينا رأسها وقالت : « ماذا تقول ؟ مودعاً ؟ »
 « أجل . ألم يبلغك الخبر ؟ إنه سيرك السيدة لاسونسكايا » .
 « أراحل هو ؟ » .

« إلى غير رجعة ، وهذا على الأقل مايزعمه هو » .
 « ولكني لأفهم بعد كل هذا . . » .
 « وى . ذلك شيء آخر ! إنه لأمر غير مفهوم . ولكنه الواقع فعلاً ، وما من
 ريب في أن شيئاً حدث بينهما . لقد أفرط في شد الوتر . . فانقطع ! » .
 وأنشأت تقول : « إنني لأفهمك يا ميخائيل ميخائيلوفتش ، ويبدو لي أنك
 تسخر مني » .

« لا والله ! أقول لك إنه راحل . بل إنه ليخطر معارفه برحيله كتابة . وليس
 هذا في رأي بعضهم بالأمر السيئ ، إلا أن رحيله قلب رأساً على عقب خطة رائعة
 كنت أناقش فيها أخاك » .
 « خطة . أى خطة ؟ » .

« هي هذه . لقد اقترحت على أخيك أن يسافر في رحلة نسرى بها عن أنفسنا .
 وتأخذك معنا . وقد تعهدت بأن أسهر على راحتك . . » .
 وقالت السيدة لبيينا في سخرية وتهكم : « ما أبدع هذا ! في مقدورى أن

أتحيل كيف يكون سهرك على راحتى ، وى ، لسوف تضيق على الأنفاس حتى أفضى .

« تقولين هذا لأنك لاتعرفينى ، وتحسينى دمية ، دمية من الخشب ، أفلا تعلمين أنى أستطيع أن أذوب كما يذوب السكر . وأن أفضى أياماً بطولها جاثياً على ركبتي ؟ » . « أسلم لك بأن هذا المشهد لأحب أن يفوتنى » .

وانتصب ليزنيف واقفاً على حين غرة وقال : « إذن فما عليك إلا أن تزوجينى ، فلا يفوتك هذا المشهد » .

وصبح دم الحجل وجه السيدة لبيينا حتى بلغ منابت شعرها وتمتت فى حيرة وارباك : « ماذا قلت ؟ » .

وأجاب ليزنيف : « لقد قلت ماتردد على أطراف لسانى منذ أمد بعيد ، بل ماعجزت عن أن أقوله ألف مرة ، لقد انطلق لسانى أخيراً ، ولك أن تفعلنى بهذا الأمر ماشئت ، ولكننى لا أريد إحراجك ولأتركك الآن ، وإذا شئت أن تكونى زوجتى .. إنى لذاذهب ! فإن كنت لاتشمتزين من هذه الفكرة فما عليك إلا أن ترسلنى فى طلى ، وسأفهم .. » .

وهمت السيدة لبيينا كأنها تريد أن تحول بين ليزنيف والرحيل ، إلا أنه انصرف على عجل ، ودخل الحديقة عارى الرأس ، ومال على بابها وحملق فى الفضاء . وطرق سمعه صوت خادم تقول من خلفه : « سيدى ليزنيف ، إن سيدتى تريد أن تراك ، أرجوك ، إنها تريد أن تراك » .

ودار ليزنيف على عقبه ، وأخذ رأس الخادم بين يديه وطبع قبلة على جبينها . دهشت لها كثيراً ، ثم صعد للقاء السيدة لبيينا .

الفصل الحادى عشر

وعاد رودين إلى الدار بعد لقائه ليزنيف مباشرة . واعتكف في غرفته ، ثم كتب خطابين : أحدهما إلى فولستسيف (وقد مر بالقارئ) والآخر إلى ناتاليا ، وقد استغرق في كتابة الخطاب الأخير وقتاً طويلاً جداً يحذف ويبدل كثيراً من عباراته ، ثم بذل عناية في نسخه على ورقة من كراسة الخطابات الأنيقة ، وطواه في أقل حجم ممكن ووضع في جيبه ، وشرع يروح ويغدو في الغرفة وقد غشيت وجهه مسحة من الحزن ، ثم جلس في كرسى مريح بجوار النافذة ، وأسند ذقنه بيده ، وسالت دمعته في هدوء من رموش عينيه . . . ثم نهض وزدر أزرار سترته ، ونادى الخادم وطلب منه أن يسأل السيدة لا سونسكايا هل يستطيع أن يلقاها ؟ وسرعان ما عاد الخادم ينقل إليه أن سيدته في انتظاره ، فضى رودين إليها . واستقبلته في مكتبها ، كما فعلت في المرة الأولى منذ شهرين ، إلا أنها لم تكن وحدها هذه المرة ، فقد كان بندالفسكى يجلس معها كما ألفناه متواضعاً متألماً أنيقاً متكلفاً .

ورحبت السيدة لاسونسكايا برودين في أدب ، وانحى لها رودين متأدباً ، إلا أن نظرة واحدة إلى وجهيها الباسمين كانت تكفي أى دارس للطبيعة البشرية أن يعلم بأن شيئاً مكدرًا يعز على الإفصاح قد وقع بينهما ؛ وكان رودين يعلم أن السيدة لاسونسكايا غاضبة منه ، وكانت السيدة لاسونسكايا تشبهه في أنه على علم بما حدث فعلاً .

لقد أزعتها كثيراً وشاية بندالفسكى ، وأحيت في صدرها شعور السيدة العظيمة ، إذ كيف اجترأ رودين ، ذلك الرجل الفقير الذى لا لقب له ولا حسب والذى لم ينبه صيته بين الناس بعد على مواعده ابنتها . . . ابنة داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا .

وقالت تناقش هذا الأمر : « هب أنه رجل بارع بل عبقرى ! فما قيمة ذلك ؟ أمعناه أن كل إنسان يستطيع أن يأمل أن يصبح زوجاً لابنتى ؟ »
ووافقها بندالفسكى وقتئذ بقوله : « لم أصدق عيني وقتاً طويلاً ، ألا ما أقبح أن يجهل المرء قدره ! »

وصبت السيدة لاسونسكايا في سورة غيظها جام غضبها على ناتاليا .
وطلبت من رودين أن يجلس ، فلبى الأمر ، ولم يكن رودين كههدنا به . رب نذار أويكاد ، أوحى ذلك الصاحب القديم ، بل أصبح ضعيفاً ، ضعيفاً لا يستأهل الترحيب أبداً ، حدث كل هذا في مثل وميض البرق ، كالماء يستحيل بغيته إلى ثلج صلد .

وأنشأ رودين يقول : « لقد جئت أشكرك يا سيدتى على كرم ضيافتك ، فقد تلقيت أبناء من قرينى الصغيرة نَحَم على الرحيل اليوم بلا إبطاء »

وحدثت السيدة لاسونسكايا ملياً في رودين . وقالت تحدث نفسها : « لقد سبقني ، وإني لأحسب أنه قد تكهن بكل شيء ، وهذا يكفيني مئونة شرح الأمر على ما فيه من إيلا م وخيراً فعل ، بارك الله في القوم البارعين » .
ثم جاهرت بالقول : « حقاً ؟ وأسفاه ! ولكن لا بد مما ليس منه بد . وسأطلع إلى لقائك في موسكو هذا الشتاء . فإننا لا نلبث أن نعود إلى المدينة » .
« لست واثقاً يا سيدتي من أني أستطيع الذهاب إلى موسكو . ولكن إذا تهيأت لي الوسيلة فستكون زيارتك فرضاً علي »
وأخذ بندالفسكى يتحدث نفسه أيضاً قائلاً : « ها يا صديقي ! لقد كنت منذ برهة السيد المتحكم هنا ، فما بالك تتحدث الآن هكذا ؟ »
وقال بندالفسكى في صوته المتزن المعهود : « لاشك أنك تلقيت أبناء سيئة من قرينتك ! »

فأجاب رودين في جفاء : « أجل »
« ربما كان المحصول رديئاً ؟ »
« كلا - ليس الأمر كما تقول » ، ثم أردف : « صديقي يا سيدتي . لن أنسى الوقت الذي قضيته في دارك »
« وأنا أيضاً سأذكر تعارفنا دائماً بالابتهاج والسرور . . . ومتى ترحل ؟ . »
« اليوم ، بعد الغداء »
« بهذه السرعة ! على رسلك ، وإني لأتمنى لك رحلة سعيدة ، أجل . وإذا لم تعقل أعمالك كثيراً فربما أدركتنا هنا »
فقال رودين وهو ينهض : « لسوف يتعذر علي أن أعود » ثم أردف يقول :

« عفواً ، ولكننى لست فى مركز يسمح لى بأن أفىك فى هذه اللحظة ما على من دين ، ولكننى ما إن أبلغ قريى . . . »

فقاطعت قائلة : « وى ! وى يا ديمىرى نيقولايفتش ، لا تذكر ذلك ، وبهذه المناسبة ما الساعة ؟ »

وأخرج بندالفسكى من جيب صدره ساعة ذهبية صغيرة طليت بالمينا ونظر فيها . وهو يميل فى عناية خده المتورد على بنيقته البيضاء الجامدة .

وقال : « الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والثلاثون »

فهتفت السيدة لاسونسكايا : « يجب أن أبدل ملابسى ، إلى اللقاء يا ديمىرى

نيقولايفتش ! »

وغادر رودين الغرفة ، وكان الحديث كله الذى دار بينه وبين السيدة لاسونسكايا يتسم بطابع خاص أشبه بمرانة الممثلين على أداء أدوارهم . ويتبادل الساسة فى المؤتمرات عبارات معدة من قبل .

لقد تعلم الآن بالتجربة كيف أن على القوم لا يلفظون المرء فحسب ، بل يتركونه يسقط إذا انتهت حاجتهم إليه ، كما يفعلون بالقفاز بعد الرقص . أو بالورق الذى يغلف قطعة من الحلوى ، أو بتذكرة « يا نصيب » لم تريح .

وحزم متاعه على عجل ، وأخذ ينتظر ساعة رحيله بصبر نافذ ، وقد استبدت الدهشة بكل من فى المنزل عندما علموا بنيقته ، وكان الخدم أنفسهم ينظرون إليه نظرات الحيرة والارتباك ؛ ولم يحاول باستتوف أن يخفى ألمه . وكان من الجلى أن ناتاليا تتحاشاه ، فقد أمسكت عن أن تقابل نظراتها نظراته ، إلا أنه أفلح فى دس خطابه فى يدها ؛ وكررت السيدة لاسونسكايا فى أثناء الغداء رجاءها فى أن

تراه قبل أن يرحل إلى موسكو ، إلا أن رودين لم يجب ؛ وحاول بندالفسكى أن يجره إلى الحديث معه ، وتملكت رودين أكثر من مرة رغبة قوية في أن ينقض عليه ويلكم وجهه المتورد الذى يفيض صحة وعافية ؛ وظلت الأنسة بونكور تصوب إلى رودين نظرات تنطق بالمكر والحبث ، نظرات يستطيع المرء أحياناً أن يلمح لها شيئاً فى عيني كلب الصيد العجوز الحبير ، وقد بدا أنها تحدث نفسها قائلة : « أف ! لقد دارت عليك الدوائر الآن . »

ودقت الساعة السادسة آخر الأمر ، ودرجت إلى الباب عربة السفر التى سيستقلها رودين ، وراح يودع الموجودين على عجل ، وكان حزيناً مغموماً ، فما كان يتوقع قط أن يبرح الدار على هذا النحو الذى كان كالطرد أو هو أشبه ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « بالموقف البديع ! ما الذى جعلنى أدفع الأمور إلى غايتها ؟ ايه ! لا بد مما ليس منه بد ! » كان هذا ما يحول بفكره عندما شرع ينحنى فى كل ناحية محيياً المجتمعين وعلى شفثيه ابتسامة مغتصبة ، ثم نظر إلى ناتاليا نظرة أخيرة حارت لها عزيمته ؛ فقد شاع اللوم فى نظرة الوداع الحزينة التى لاحت فى عينيها . وهبط الدرج مسرعاً ، وقفز إلى عربة السفر ، وتطوع باستتوف بمرافقته إلى أول محطة ، وركب العربة معه . وقال رودين عندما غادرت العربة فناء البيت وخرجت إلى الطريق الواسع يحف به شجر الشربين : « أتذكر ما قاله دون كيخوته لتابعه وهو ينادر بلاط الدوقة ؟ قال : (الحرية نعمة من أغلى النعم التى أفاءها الله على الإنسان ؛ سعيد من يعطيه الله كسرة خبز لا يدين بالفضل فيها لأحد إلا الله وحده) ، وإنى لأشعر الآن بما كان يشعر به دون كيخوته وقتئذٍ ، وأرجو الله يا عزيزى باستتوف أن تنعم أنت أيضاً بهذا الشعور فى يوم من الأيام . »

وتأثر باستتوف ، فضغط على يد رودين ، وأخذ قلب الشاب الأمين ينبض بقوة في صدره المتأجج ، وظل رودين يتحدث طوال الطريق إلى المحطة عن كرامة الإنسان وعن معنى الحرية الحق ، وقد شاعت الحرارة في حديثه كما شاع النبل والصدق ، وحانت ساعة الفراق ، فأطلق باستتوف لعواطفه العنان ، وألقى بنفسه على رودين وراح يتتجب ، وانهمرت الدموع من عيني رودين أيضاً ، على أنه لم يكن يندب فراقه لباستتوف ، بل كانت دموعه دموع الغرور والخيلاء .
وأوت ناتاليا إلى غرفتها ، وقرأت خطاب رودين .

وقد كتب إليها يقول :

« عزيزتي ناتاليا : لقد عزمت على الرحيل ، ولم يكن لي حيلة في ذلك . عزمت على الرحيل قبل أن يطلب مني أن أغادر الدار ، وسيضع رحيلي كل شيء في نصابه ، ولن يفتقدني أحد . فما الذي يدعوه إلى ذلك ؟ وهذه هي الحقيقة . ولكن ، ما الذي يدفني إلى الكتابة إليك؟ »

« إني أفارقك . وقد يكون ذلك إلى الأبد ، وسوف ينجز في نفسي أن تظني بي من السوء فوق ما أستحق ، وهذا هو ما حملني على الكتابة إليك . ولست أريد أن أبرر موقفي . أو ألوم أحداً إلا نفسي ، وأود أن أبين لك مسلكي بأحسن ما أستطيع ؛ لقد كانت حوادث الأيام القليلة الماضية أشد ما يكون مباحثة وأبعد ما تكون توقعاً . ولاشك أن لقاءنا اليوم سيكون درساً لن أنساه . لقد كنت على حق ، وكنت أنا واهماً عندما ظننت أنني عرفتك ! لقد بلوت صنوف الناس جميعاً طوال حياتي ، وصادقت الكثير من النساء والفتيات . ولكنك كنت أول من صادفت في حياتي كلها شرف نفس وطهارة قلب . فأذهلتني صفاتك عن أن أفيك »

حقك ، لقد انجذب إليك قلبي من أول لقاء - ولعلك لاحظت ذلك ، وقضيت ساعات معك - على أنني لم أعرفك ، ولست بمستطيع أن أقول حقاً إنني حاولت أن أعرفك . . . ومع ذلك فقد خيل إلى أنني وقعت في حبال حبك ! وأنا الآن ألقى الجزاء على ما أجمرت .

« لقد أحببت امرأة من قبل وبادلتني الحب ، وكان شعوري نحوها معقداً ، وكذلك كان شعورها نحوى ؛ ولم يكن ذلك عن افتعال بل كان طبيعياً . لأن طبيعتها كانت بعيدة عن البساطة ، ولم أتبين حقيقة الأمر وقتئذ . ولم أتبينه عندما واجهته ، وأنا الآن على بينة منه ، ولكن بعد فوات الوقت ، ولأترك الماضي فلا أعود إليه . لقد كان من الممكن أن يلتئم شمل حياتنا . وهيئات أن يكون ذلك الآن ؛ كيف أثبت لك أنني كنت خليقاً بأن أحبك حباً صادقاً ، حباً ينبع من القلب لا من الخيال ، في حين أنني أنا نفسي لا أستطيع أن أتبين : هل كان في مقدوري أن أحبك مثل هذا الحب ؟

« لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، وأجزلت لى العطاء ، وأنا أعلم ذلك ، ولن أحاول أن أتكلف معك تكلف من يصطنع الحياء الكاذب وخاصة الآن . في لحظة يفيض فيها قلبي بالمرارة والذلة ، أجل ، لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، ولكنني سأقضى دون أن أحقق شيئاً جديراً بمواهي ، أو أترك أى أثر ينفخ الناس . وستذهب جميع كنوزي بدداً ، ولن أرى ثمرة ما أزرع ، وإنه لينقصني . . . ولست أدري تماماً ما ينقصي . . . لعل ما ينقصي هو ذلك الشيء الذى يستحيل على المرء بدونه أن يحرك قلوب الرجال أو يفوز بقلب امرأة ، أما السيطرة على العقل وحده فأمر مشكوك فيه ولا جدوى منه ؛ إن مصيرى مصير عجب بل هو مضحك

أويكاد ، أحاول أن أبذل نفسى قلباً وروحاً ، أبذل نفسى جميعاً صادقاً مخلصاً . . . فأجلى عجزاً عن ذلك ، وسينتهى بي الأمر إلى أن أبذل نفسى في سبيل قضية سخيفة ربما لا أكون مؤمناً بها . يا إلهي ! ما أعجب أن يكون المرء دائماً على التأهب لتحقيق شيء وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره !

« لم أتحدث قط بهذا الحديث إلى أحد من قبل ، وهذا هو اعترافي »
 « حسبي ما تحدثت به عن نفسى ، فإني أحب أن أتحدث عنك وأن أسدى إليك بعض النصيح . فلست أصلح لشيء غير هذا . . . إنك مازلت شابة ، فلا تلي إلا نداء قلبك مهما بلغ بك العمر ، ولا تدعى لعقلك أو أى شخص آخر سلطاناً عليك ، وصدقيني أنه كلما ضاقت دائرة حياتك وزاد حظها من البساطة ، كان ذلك خيراً لك ، وليس الأمر أمر التماس نواح جديدة في الحياة ، بل إنه لأحرى بك أن تدعيها تجرى في مجراها رخيّة ميسرة على مراحل معلومة . (طوبى لمن يظل شاباً في شبابه . . .) ولكننى أرى أن نصيحتى تصدق على أكثر مما تصدق عليك بكثير .

« والحق يا ناتاليا أننى في أسوأ حال ، فما خدعت نفسى قط عن طبيعة الشعور الذى أثرته في أمك ، ولكننى كنت أرجو أن أجد على الأقل ماوى إلى حين . . . أما الآن فلا مناص لى من أن أهم على وجهى مرة أخرى شريداً بلا ماوى ، ومن لى بمن يعوضنى عن حديثك ومحضرك ونظراتك الحكيمة المتوقدة ؟ إن اللوم فى ذلك على وحدى ، ولكنك تسلمين بلا شك أن الزمن قد تعمد أن يسخر منا . . . لقد كنت منذ أسبوع واحد لا يكاد يخامرنى شك فى أننى أحبك ، وحدث فى أول من أمس عندما كنا فى الحديقة أن قلت لى . . . ولكن أى فائدة ترجى من تذكيرك بما

قلت؟ . . . واليوم أرحل . أرحل والعار يكسوفى . بعد أن أفصحت لك عن حقيقة أمرى إفصاحاً حزناً في نفسى حزناً ؛ أرحل ولا أمل لى فى المستقبل . . . وأنت غير مدركة لمقدار ما أجمرت فى حقلك . إنه ليعتربنى أحياناً نوبات من الصراحة الحمقاء ، والثرثرة المطلقة . . . ولكن ما الذى يجعلنى أثير ذلك ؟ إننى راحل . راحل إلى الأبد .

(وكان رودين قد وصف لنا تاليا فى هذا المقام زيارته لفوليتسيف . إلا أنه محاذ هذه الفقرة بعد روية وتدبر وأضاف الحاشية الثانية على خطابه إلى فوليتسيف) .
 « سأظل وحيداً فى هذه الدنيا مكرساً نفسى لأمر أجدر بى كثيراً من ذلك . كما قلت هذا الصباح فى تهكم اللاذع ؛ وأسفاه ! لو أننى استطعت أن أكرس حياتى حقاً لهذه الأمور وأتغلب على كسلى فى النهاية . . . ولكن لا ! سأظل ذلك المخلوق القاتر الهمة الذى كتته دائماً . . . ما إن تصادفتى أول عقبة حتى أصاب بنجية مرة . . . وهذا الحادث الذى وقع لى معك قد أثبت لى ذلك بأجلى بيان ؛ لو أننى كنت على الأقل قد ضحيت بنجى فى سبيل عملى المقبل ، بل فى سبيل تحقيق رسالتى ! ولكن كلا ! إنما كنت أخشى المسئولية تلقى على كفى . وأنا غير جدير بك حقاً لهذا السبب وحده . إننى لا أستحق أن تترعى نفسك من بيتك فى سببى ، ولكن ، لعل ذلك كان أفضل . وأخيراً ، ربما خرجت من هذه المحنة أظهر مما كنت وأشد عزماً .

« وإنى لأتمنى لك السعادة كاملة ، وأستودعك الله ! اذكرينى أحياناً . . . وأرجو أن تسمى عنى مرة أخرى » .

وتركت ناتاليا يدها التي أمسكت بها خطاب رودين تسقط في حجرها .
 وجلست ساكنة وقتاً طويلاً ، وعيناها مثبتتان إلى الأرض ؛ وقد كان هذا الخطاب
 أفصح لديها من أى برهان ؛ فقد تميز لها منه كم كانت محقة عندما هتفت على
 البديهة وهي تفتقر عنه ذلك الصباح قائلة إنه لا يجبها ؛ ولكن هيات أن يكون في
 هذا عزاء لنفسها ؛ لقد كانت تجلس ساكنة بلا حراك ، وقد خيل إليها أن أمواجاً
 حالكة قد غمرتها في هدوء . فأخذت تفرق وقد ذهب منها الحس وفارقتها الحياة .
 إن المرء ليألم دائماً متى تكشفت له الأوهام أول مرة ، فإذا كان صادق الشعور
 لا يلتمس العزاء في التويه على نفسه ولا يعرف التغافل ولا التهوريل ، عجز عن
 احتمال ذلك أوكاد .

وذكرت ناتاليا طفولتها ، وكيف كانت تخرج في نزهة مساءً ، فتشقى دائماً صوب
 الجانب المضىء من السماء حيث كانت الشمس الغاربة تزهو بلونها الوردى ،
 وتتسكب الظلام وتشيح بوجهها عنه . لقد بدت الحياة الآن مظلمة في عينيها
 وأدارت ظهرها للضوء .

واغرورت عينا ناتاليا بالدموع ، والدموع لا تأتي دائماً بالفرج ، بل هي تروح
 عن النفس وتشفيها مما بها إذا واثت بعد طول احتباس ، واستعصت أول الأمر على
 الجهد . ثم راحت تنهمر في تكاثر رحية عذبة ، وهكذا ينحف الألم المبرح
 الصامت . على أن ثم عبرات باردة ، عبرات تند من العين في حلق وضغينة ،
 ويعتصرها من القلب قطرة قطرة ما ناء به من حزن شديد مقيم ؛ وهذه العبرات
 لا تأتي بعزاء ولا تفرج كرباً . والحاجة الملحة هي التي تستدر هذه الدموع ، ومن لم
 يذرفها لا يكن قد عرف الشقاء حقاً ؛ وقد عرفت ناتاليا تلك الدموع في يومها

هذا ، وانقضى على ذلك ساعتان . ثم تماكنت ناتاليا نفسها ونهضت . وكفكت عبراتها وأشعلت شمعة أحرقت على لها خطاب رودين . ثم فتحت مجلداً لبوشكين حيثما اتفق . وقرأت السطور الأولى التي وقعت عليها عينا (وكانت كثيراً ما تفزع إلى بوشكين على هذا النحو كلما شاءت أن تستطلع ما تخبئه لها المقادير) . وهذا هو ما قرأته :

إن من ذاق طعم الحب
تلازمه أشباح الأيام الخوالي
فلا يجد الهناء في شيء
وتصبح ذكرياته كلدغ الأفاعي
وينهش الندم قلبه

ووقفت ساكنة لحظة تتأمل خيالها في المرأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة باردة .
ثم أوامت برأسها وهبطت إلى غرفة الاستقبال .

وما إن لمحت السيدة لاسونسكايا ناتاليا حتى أخذتها إلى مكتبها وأجلستها بجانبها . وربتت برفق خد ابنتها ، وراحت تتفرس في وجه الفتاة . بنظرات غلب عليها حب الاستطلاع ؛ فقد كانت السيدة لاسونسكايا تشعر بالحيرة في قرارة نفسها ، وخيل إليها فجأة أنها لم تكن تعرف ابنتها حق المعرفة . فلما أخبرها بندالفسكى بقاء ناتاليا لرودين . لم يرعها أن ترتكب ابنتها ناتاليا العاقلة الحكيمة مثل هذا الفعل بقدر ما دهشت له . واستدعت السيدة لاسونسكايا ابنتها . وأخذت تنهرها بصوت مولول لا يصدر عن سيدة مهذبة بل لا يليق بسيدة تثقت

بالثقافة الأوربية ، فتملكتها الحيرة بل اتابها الفرع من إجابات ناتاليا الحازمة ونظراتها الثابتة وإيماءاتها المستقيمة .

وقد أزاح رحيل رودين المفاجئ بل المحير ، حملاً ثقيلاً عن صدرها ، وكانت تتوقع أن تجد من ابنتها دموعاً تفيض ونوبات عصبية حادة . . . إلا أن ظهور ناتاليا بمظهر المتماكلة لنفسها قد بلبل أفكارها مرة أخرى .

فأنشأت تقول : « حسناً يا بنيتي ، كيف حالك اليوم ؟ »

ونظرت ناتاليا إلى أمها

« لقد رحل . . . حبيبك ، أتعلمين لماذا عجل بالرحيل ؟ »

فقال ناتاليا في صوت خافت : « أماه ! أعدك بأنك إن أمسكت ولم تعرضي

له بالحديث فلن تسمعي مني كلمة عنه »

« إذن فأنت تسلمين بجرمك في حقى ؟ »

وحنّت ناتاليا رأسها ورددت قائلة : « لن تسمعي مني كلمة عنه »

فقال أمها وهي تبسم : « سأخذك بكلمتك فأني أثق فيك ؛ واذكري ماذا

كان من أمرك أول أمس . . . ولكن فلأمسك ولا أزد ، فقد انتهى الأمر ودفن

وانقضى . أليس كذلك ؟ وهأتندى قد ثبت إلى رشذك . لقد كنت بلبت أفكارى

وحيرتني أشد الحيرة ، تعالى ، أعطني قبلة يا فتاتي الأربية ! »

ورفعت ناتاليا يد أمها إلى شفتيها . وقبلت السيدة لاسونسكايا رأس ابنتها

الحنانية .

« انتصحي بنصحي دائماً » ، ثم أردفت تقول : « ولا تنسى أبداً أنك من

أسرة لاسونسكايا ، وأنك ابنتي ، وستواتيك السعادة ؛ ولأتركك لشأنك الآن . »

وانصرفت ناتاليا في سكون ، وشيعتها المرأة الكهله بنظراتها ثم حدثت نفسها قائلة : « إنها تتزع متزعى ، وسيكون من اليسير التأثير عليها هى أيضاً . ولكن لن يهجرها الكثيرون كما هجرونى » واستغرقت السيدة لاسونسكايا في ذكريات الماضى البعيد الذى عنى عليه الزمن .

ثم أرسلت في طلب الأنسة بونكور . واعتكفت معها وقتاً طويلاً ، ثم صرفتها واستدعت بندالفسكى ؛ ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن تكشف عن السبب الحقيقى الذى حمل رودين على الرحيل . وطيب بندالفسكى نفسها تماماً . فقد كان لا ينجيب و ذلك أبداً .

وجاء فوليتسيف هو وأخته في اليوم التالى لتناول الغداء . وكانت السيدة لاسونسكايا تلقاه بالبشر دائماً . إلا أنها هشت له هذه المرة وبشت أكثر مما كانت تفعل . وكانت ناتاليا تشعر بشقاء ناءت عن حملة ، ولكن فوليتسيف كان كثير الاحترام لها . وكان يخادتها في حياء شديد . حتى إنها لم تملك نفسها من الشعور بعرفان الجميل .

وانقضى اليوم في هدوء أقرب إلى الملالة والسأم . إلا أن القوم شعروا عندما انفرط عقدهم بأنهم عادوا إلى نهجهم القديم الذى ألفوه . وهذا قول فيه مبالغة . أجل . لقد عادوا جميعاً إلى نهجهم القديم . اللهم إلا ناتاليا فقد جرت نفسها جراً إلى فراشها . بعد لأى وطول عناء . وحيدة . متعبة . شقية . وألقت بنفسها ووجهها على الوسائد . فقد بدت الحياة في عينها مريرة كل المرارة ، قبيحة أعظم القبح . خسيصة كأشد ما تكون الحسة . وبدا لها حيبا وشقاؤها . بل كيانها كله مجللاً بالخزى حتى لقد هان عليها الموت في تلك اللحظة . . . وكان الغد لا يزال

يحمل لها في طياته كثيراً من ليالي الحزن . وكثيراً من ليالي السهاد . بل يحمل لها الألم الممض تشقى به نفس معذبة ؛ ولكنها كانت في مقتبل العمر . لم تكد حياتها تبدأ . وما أخرى الحياة أن تعود عاجلاً أو آجلاً إلى سابق عهدها . ومهما يكن من أمر مُصائب التي تخل بالمرء . فإنه لا مناص له من أن يأكل - وليغفر لي القارئ ماى هذا التعبير من ابتذال - يأكل في يومه أو في غده على الأكثر . وهذا هو العزاء الاول .

لقد كانت ناتاليا تتألم كثيراً ، تتألم للمرة الأولى . . . إلا أن الآلام الأولى كالحب الأول ، لا تتكرر . ولنحمد الله على ذلك .



الفصل الثاني عشر

ومضت ستان أو نحوهما . وى با كورة شهر مايو . كانت السيدة ليزيفا - ولم يعد اسمها السيدة ليينا - جالسة وى شرقه مترها . وقد انقضى على زواجها أكثر من سنة . كانت لا تزال كعهدنا بها فاتنة ساحرة . ولو أن جسمها كان قد ازداد امتلاء فى الأيام الأخيرة . وكانت تمشى أمام الشرفة التى يؤدى درجها إلى الحديقة مرصع حملت بين ذراعها طفلاً متورداً الوجنت ارتدى عباءة بيضاء . وقلنسوة عليها كرة من زغب أبيض ، وكانت أمه تنظر إليه فى لهفة . ولم يكن الطفل يبكى . بل كان يمص إبهامه فى جد وحرصانة . ويتطلع حوله فى هدوء . وقد ظهرت عليه أمارات تبشر بأنه سيكون ابناً جديراً بأبيه ميخائيل ميخائيلوفتش ليزيف .

وكان صديقنا القديم بيجاسوف يجلس فى الشرفة بجوار السيدة ليزيفا . وقد علا رأسه المشيب بشكل ملحوظ منذ رأيناه آخر مرة ، وازداد ظهره انحناءً . واشتد هزاله ؛ وكان إذا تحدث هس هسيساً ، ذلك أنه قد فقد شيئاً من أسنانه الأمامية . وكان المسيس يزيد أحاديثه غلا وحفيظة . ولم يستطع الزمن أن يكسر من حدة

ففاظظته ، إلا أن مَلَحَه كانت باردة ، كما كان يردد ما يقوله في أكثر الأحيان فلا يأتي بمجديد .

وكان ليزنيف غائباً عن الدار ترتقب عودته في موعد تناول الشاي ، وكانت الشمس قد غربت ، وامتد على طول الأفق خط امتزج فيه اللون الذهبي الشاحب باللون الأصفر الليموني . وكان ثمَّ خطان في الجانب المقابل له ، أسفلها أزرق باهت وأعلىهما أرجواني ضارب إلى الحمرة . وكانت الغيوم الصغيرة الخفيفة تذوب في كبد السماء ، وكل شيء يبشر بحلول فترة يهدأ فيها الجو ويستقر .
وشرع ييجاسوف يضحك فجأة .

فسألته السيدة ليزنيفا : « ماذا دهاك ؟ »

« لاشيء . . . لقد سمعت بالأمس فلاحاً ينهى زوجته عن الرثرة قائلاً لها :
« كَفِّي عن الصّرير ! » ولشد ما أعجبنى هذا منه ، وإني لأتساءل حقاً فم تستطيع
المرأة أن تتحدث ؟ وإنك لتعلمين أنني أستثنى دائماً من يكنّ حاضرات . لقد كان
أجدادنا أبرع منا وأمهر ، ذلك أن الغادة الجميلة في حكاياتهم الخرافية تجلس دائماً
بجوار النافذة وقد علا جبينها نجم وضاء ، ولكنها لم تكن تنطق بحرف واحد ، وهذا
ما يجب أن يكون عليه حالها ، والآن أترك الحكم لك ! لقد حدث منذ أيام أن
قالت زوجة كبير الأعيان في ناحيتنا إن نزعني لا تروقها ! فكان قولها هذا أشبه
برصاصة انطلقت من مسدس فأصابتنى في مقتل ! لعمرى ، نزعني ! ألم يكن من
الخير لها ولغيرها لو أن الطبيعة كانت كريمة فحرمتها استعمال لسانها ! »
« مازلت على عهدى بك يا أفريكان سميونوفتش . تحمل علينا نحن النساء
المسكينات . ألا تعلم أن ذلك حقاً هو بليتك ؟ إني لأرثى لك »

« بليتي؟ لعمري ماذا تقصدين؟ إني لأقول لك أولاً إنما البلايا في هذه الدنيا ثلاث: الإقامة في غرف باردة شتاء، وارتداء الأحذية الضيقة صيفاً، وقضاء الليل في غرفة واحدة مع رضيع يصرخ ولا تستطيعين أن تستخدمى معه المسحوق القاتل للحشرات؛ وأقول لك ثانياً، إذا سمحت، إني الآن أرق الرجال حاشية بل إني لفريد في الحسن، وتلك هي شيمتي في الوقت الحاضر. »
 « يالها من شيمة غراء حقاً! عجباً، لقد شكيت لي منك بالأمس فقط إيلينا أنظونوفنا »

« أوقد بدر منها هذا؟ وهل لي أن أسألك: ماذا قالت لك عي؟ »
 « قالت لي: إنك قضيت الصباح كله تجيب على أسئلتها بقولك: ماذا؟ ماذا؟ في صوت أشبه بالصراخ والعيول »
 وضحك بييجاسوف وقال: « ألا فلتعترفي بأن ذلك كان فكرة مليحة »
 « فكرة مذهشة جداً، أيصح لك أن تكون فقط مع امرأة؟ »
 « ماذا! أتخسبن إيلينا أنظونوفنا امرأة؟ »
 « فإذا تكون إذن؟ » .

« طيلة بلاشك، طيلة عادية كتلك التي تفرعينا بالعصا... »
 فقاطعته راغبة في الانتقال إلى موضوع آخر وقالت « أي نعم! علمت أنك خليق بالهتة »

« علام؟ »

« على كسبك قضيتك، وستظل مروج جلييوف ملك يدك »
 فأجاب بييجاسوف مكتئباً: « أجل، ستظل ملك يدي »

« لقد ظل اهتمامك معلقاً بها سنين . ومع ذلك تبدو الآن غير راض »
 فقال ييجاسوف متمهلاً : « لا أخفى عليك أنه ما من شيء أكثر سوءاً وأشد
 إقلاقاً للبال من فرحة تتأخر عن أوانها كثيراً فإن ذلك يقلل نصيبك من المتعة .
 ويحرمك تلك الميزة الحلوة . . . ميزة الشكوى وصب اللعنات على حظك السيئ »
 واكتفت السيدة ليزنيفا بأن هزت كتفها ثم نادت : « أيها المرضع . أظن أن
 الوقت قد حان لكي يأوى ميشا إلى فراشه فعلى به »

شغلت بابنها . ودلف ييجاسوف إلى الركن الآخر من الشرفة وهو يتمم .
 وظهر ليزنيف بغتة يسوق عربة سباقه على بعد يسير من الشرفة . في الطريق
 الذي يحف بالحديقة . وكان ثمّ كلبان ضخمان من كلاب البيت يركضان أمام
 حصانه . أحدهما أصفر والآخر أشهب . وكان وب الدارق قد اقتنهما حديثاً . وكانا
 يتعاركان دائماً . ولكنها كانا صديقين حميمين . وجاء كلب هجين أشعث عجوز
 من خلال الباب وفتح فمه كأنما يريد أن ينبح ولكنه تئأب . وقفل راجعاً وهو يهز
 ديله في تودد .

« صاح ليزنيف من بعيد يقول لزوجته : « انظري يا ألكسندرة بمن جئتك ؟ »

ولم تتبين السيدة ليزنيفا للوهلة الأولى الرجل الجالس خلف زوجها

ثم هتفت آخر الأمر : « آه ! السيد باستوف ! »

وأجابها ليزنيف : « هو بعينه وفي جعبته أخبار عجيبة غاية العجب ستسمعنها

بعد لحظة »

ودخل بعمرته الفناء .

وبعد لحظات ظهر في الشرفة ومعه باستوف

وصاح وهو يضم زوجته إلى صدره : « وافرحته إن سرجى سيتزوج ! »
« من ؟ »

« ناتاليا طبعاً . لقد جاء صديقنا هذا بتلك الأنباء من موسكو . وثمّ خطاب لك أيضاً . » تم أردف وهو يختطف ابنه : « أسمع هذا يا ميشا ؟ إن خالك سيتزوج . ياله من فاتر الهمة فتوراً لا صلاح له ! ألا تقدر على شيء إلا أن تقطب ما بين حاجبيك ! »

وتجاسرت المرضع فقالت : « إنه نعسان »

وقال باستتوف وهو يمضى إلى السيدة ليزنيفا : « أجل لقد جئت اليوم من موسكو نزولاً على رغبة السيدة لاسونسكايا لأراجع حساب الضيعة ، وهاك الخطاب »

وفتحت السيدة ليزنيفا في عجلة خطاب أخيها . ولم يكن يشتمل إلا على بضعة أسطر . أنبأ بها أخته في نشوة الفرح الأولى التي تملكته أنه خطب ناتاليا . وحصل على موافقتها وموافقة أمها ، ثم وعدها بأن يكتب في إسهاب أكثر بالبريد القادم ، وأرسل تحياته وقبلاته إلى الجميع . وكان من الجلى أنه كتب خطابه في شيء من الدهول .

وقدم الشاي ، وأجلس باستتوف في مقعده . وانهالت عليه الأسئلة ، وقد استخف الفرح الجميع ، حتى ييجاسوف . لسماع الأخبار التي حملها باستتوف . وسأله ليزنيف عرضاً : « أفلا تخبرني عن الشائعات التي بلغتنا عن رجل اسمه السيد كورشاجين ، فإنني أظن أنها كاذبة ؟ »

(وكان كورشاجين شاباً وسيماً . وفارساً من فرسان الطبقة العليا ، ممعناً في

الغطرسة والزهو . وكان يسير في مهابة وجلال ، حتى بدا أنه ليس من طينة البشر قط ، وإنما هو أقرب إلى تماثل بصور شخصه هو . وقد اكتسب الناس فأقاموه (وأجاب باستتوف وعلى شفثيه ابتسامة : « ليس الأمر كما تقول على وجه الدقة . ولكن السيدة لا سونسكايا كانت تعطف عليه أشد العطف . إلا أن الآنسة ناتاليا لم تكن لتحتمل رؤيته . »

وقاطعه بيجاسوف : « وى ! إننى أعرف الرجل . يا إلهى ! إنه لىخى . بل هو مثال الغباوة ! ولو كان الناس جميعاً على شاكلته ما رضيت أن أحيأ إلا إذا أعطيت كوماً من الذهب ! »

وقال باستتوف : « ربما كان القول ما قلت . ولكنه مع ذلك شخص بارز فى

المجتمع »

وصاحت السيدة ليزنيزا : « لا عليك . دع الرجل وشأنه . آه . ما أسعدنى

يا ألى ! وهل ناتاليا سعيدة مستبشرة ؟ »

« أجل . إنها هادئة كشأنها دائماً . وأنت بها عليمه . ولكن يلوح أنها راضية »

وانقضى المساء فى حديث تمتع ينعش النفس . ثم جلس القوم لتناول العشاء .

وقال ليزنيف لباستتوف . وهو يصب له شيئاً من الخمر :

« ألا قل لى : هل سمعت شيئاً عن رودين ؟ »

« لم أسمع عنه شيئاً منذ زمن طويل . وكان قد جاء إلى موسكو فى الشتاء الماضى

وقضى مدة قصيرة فيها . ثم ذهب إلى سميرسك فى صحبة أسرة من الأسر . وظللنا

نراسل زمناً . وقد أخبرنى فى خطابه الأخير أنه سيغادر سميرسك . ولم يفصح عن

وجهته . ولم أسمع منذ ذلك الحين شيئاً عنه . »

وقال بيجاسوف : « إنه لقادر على أن يعنى بأمر نفسه . وإني لأتصور أنه جالس يعط في مكان ما . فإن ذلك السيد يستطيع دائماً أن يجد اثنين أو ثلاثة من المعجبين ينصتون إليه فاغرين أفواههم ويقرضونه بعض المال ، ولتذكر كلمتي هذه ! إن الأمر سينتهي به إلى الموت في جحر مهجور مثل تساريفو كوكشايسك 'وشوخلوما بين ذراعي عانس عجوز مستطارة اللب تظن أنه أعظم عباقرة هذا العالم »
وقال باستوف في صوت خافت ثم عن استنكاره : « إنك تقسو غاية القسوة في حديثك عنه » .

فأجاب بيجاسوف : « كلا ثم كلا . فإني أتوخى في حديثي غاية الإنصاف . ومن رأي أنه لا يبدو أن يكون طفيلياً »

ثم التفت إلى ليزنيف ومضى يقول : « لقد نسيت أن أخبرك بأنني تعرفت بتارلاخوف الذي كان رودين في صحبته عندما كان في الخارج ، وى ، وى ! إن ما رواه لي عنه من أخبار لأبعد من أن يتصورها خيالك . بل هي أغرب من أن توصف ! ما أعجب أن ينقلب جميع أصدقاء رودين وأشياعه أعداء له بمرور الزمن »

وقاطعه باستوف في حرارة : « أخرجني من هذه الزمرة »

« أنت ؟ إنك تختلف عنهم . ولم أكن أتحدث عنك »

وسأله السيدة ليزنيفا : « وما الذي أنباك تارلاخوف من أمره ؟ »

قال لي الكثير ، ولا أستطيع أن أذكره كله ، ولكن أحسن ما سمعت عنه هذه النادرة : كان رودين ينضج دائماً - وهذا شأن جميع السادة الذين على غراره .

أما غيرهم فحسبهم أن يأكلوا ويناموا ، وهم حين يأكلون أو ينامون ينضبجون .
 أليس الأمر كذلك يا سيد باستوف ؟ : (ولم يجر باستوف جواباً) . وهكذا ظل
 رودين ينضج حتى انتهى فلسفياً إلى نتيجة هي أن الوقت غداً ملائماً للحب ، فأخذ
 يتطلع إلى هدف جدير بالنتيجة المدهشة التي انتهى إليها . وابتسم له الحظ فتعرف
 بصانعة أزياء فرنسية غاية في الحسن ، ولأذكر بهذه المناسبة أن وقائع هذه القصة
 حدثت في بلدة ألمانية على نهر الراين وشرع رودين يزورها ويعيرها الكتب على
 اختلافها ويحدثها عن الطبيعة وعن هيجل ، ولكن ما جدوى هذا في نظر صانعة
 أزياء ؟ وظلته الفتاة من أرباب الفلك ، على أنك تعلم أنه ليس بالفقير الدميم ، وقد
 نال الخطوة عندها بحكم أنه أجنبي روسي . ودبر آخر الأمر موعداً معها . موعداً
 توافرت له جميع أسباب الخيال في جندول على صفحة الراين . ووافقت
 الفرنسية ، وارتدت أفخر ما ترتديه أيام الأحد من ثياب ، وخرجت معه في
 الجندول ، وليثا فيه ساعتين كاملتين . فكيف قضى كل هذا الوقت فيما تظن ؟ لقد
 كان يرت رأس المرأة ويحرق حالملاً في السماء . وردد على مسامعها عدة مرات أنه
 يشعر نحوها بخنان الأب ، وعادت الفرنسية إلى دارها حانقة غاضبة . ثم قصت
 القصة بجذافيرها على تارلاخوف من بعد ، وهذا هو طراز ذلك السيد ! » .
 وضحك ييجاسوف .

وانتهرت السيدة ليزيفا قائلة : « يالك من رجل جبلت على الاستهانة بكل
 شيء ! وإني لأزداد على الأيام اقتناعاً بأن شائى رودين أنفسهم لا يجدون فيه شيئاً
 قبيحاً »

« لا يجدون شيئاً قبيحاً ! يا إلهي ! وماقولك في تطفله على الناس ، ومادرج

ليه من اقتراض المال ؟ لاشك أنه لم يعفك أنت أيضاً من ذلك يا ميخائيل
يخائيلوفتش ؟ »

وأنشأ ليزنيف يقول وقد علت وجهه سيماء الجد : « إنك لتعلم يا أفريكان
عميونوفتش ، كما تعلم زوجتي ، أنني كنت بصفة خاصة لا أميل إلى رودين في
لأيام الأخيرة . بل الحق أنني كثيراً ما أخذت عليه أشياء . ولهذا كله . . . » وهنا
لأليزنيف الأقداح بالشمبانيا ومضى يقول « . . . إني أقترح بعد أن شربنا نخب
حيننا العزيز وخطيبته أن نشرب الآن نخب ديمتري رودين »

وحملق فيه كل من السيدة ليزنيفا وبيجاسوف وقد أخذتهما الدهشة ، واعتدل
استتوف في جلسته ، وقد جحظت عيناه وطفح وجهه فرحاً وبشراً .
ومضى ليزنيف يقول : « إنني أعرفه حق المعرفة ، وأنا لا أغمض عيني عن
عيوبه . فهي تتجلى وتتجسم لأنه هو نفسه ليس رجلاً تافهاً » .

وهتف باستتوف : « إن رودين رجل عبقرى ! »
ووافق ليزنيف قائلاً : « قد يكون فيه قبس من عبقرية ، أما الرجل في ذاته فإن
سنه أنه ليس مكتمل الرجولة . . . ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا ، ذلك أنني
أحب أن أتحدث عن صفاته الطيبة النادرة ، فهو من أهل الحماسة والغيرة . وخذ
عني أنا الرجل البارد الطبع ، أن هذه الصفة لا تُقوِّم بمال في أيامنا هذه ، فقد
غدونا جميعاً من المفكرين الأحرار لا نبالي شيئاً ولا يحرِّكنا شيء ، وهذا أمر
لا يطاق ، لقد أخذتنا سنة من النوم فتحجرنا ، وأخلق بنا أن نعترف بفضل كل من
يحرِّكنا ويبعث الحرارة فينا ولو لحظة فحسب ! لقد آن أوان ذلك وحل ! وإنك
لتذكرين يا ألكسندرة أنني كنت أناقشه مرة وإياك فاتهمته بالبرود وكنت في ذلك

مصيباً ومخطئاً في وقت معاً ، فالبرود في دمه ، وليس هذا خطأه هو ، ولكنه ليس في رأسه ، وليس رودين بممثل ، كما ألفت أن أدعوه ، ولا هو بالدجال أو الوغد ، فهو يعيش على حساب الناس لا لأنه رجل ماكر داهية بل لأنه طفل . . . أجل وأغلب الظن أنه سيموت في مكان ما شقياً فقيراً ، ولكن أينحى لنا من أجل هذا أن نرجمه بالحجارة ؟ إنه لن يحقق عملاً بيديه هو لا لشيء إلا أنه رجل بارد الدم لا قوام له ، ولكن من ذا الذي ينحى له القول بأنه لا يرجى منه نفع ، أو أنه لم يكن نافعاً فعلاً ، أو أن كلماته لم تلق كثيراً من البذور الصالحة في نفوس الشباب الذين لم تحرمهم الطبيعة ، كما حرمته ، القدرة على العمل ، والقدرة على تنفيذ نواياهم ؟ وى ! إننى أنا نفسى مدين له بهذا ، وألكسندرة نفسها تعلم ما كان لرودين عندى من شأن في أيام شبابه وإنى لأذكر أيضاً أننى قلت إن كلمات رودين لا يمكن أن تؤثر في نفوس الرجال ولكننى كنت أتحدث عن رجال من طرازى وفي السن التى أنا عليها الآن . رجال عركوا الحياة وعرفوا حلوها ومرها . فإن نعمة نائية واحدة تشوب حديث رجل لكافية أن تفسد في نظرنا مجرى الحديث واتساقه . إلا أن أذن الشباب ، وما أسعدهم بهذا ، ليست مرهفة إلى هذا الحد ، ولاهى سريعة التأثير بهذا المقدار . فإذا راق لهم الحديث في جوهره فما الذى يعينهم من نعمته ؟ ذلك أنهم يجدونها بلاشك في أعماقهم .

وصاح باستتوف قائلاً : « مرحى ؟ مرحى ! ما أصوب قولك ! أما عن أثر رودين في النفوس فإنى أقسم لك أن الرجل لا يعلم كيف يشرك فحسب ، بل يعلم أيضاً كيف يطلقك من عقالك ويظل هذا حالك ؛ إنه يقتلعك من جذورك ويشعل النار فيك ! »

ومضى ليزنيف يقول وهو يلتفت إلى بيجاسوف : « أوقد سمعت ؟ وأي دليل بعد هذا تريد ؟ إنك تهجم الفلسفة ، ولا تجرد في حديثك عنها من الكلمات المعيبة ما يشقى الغليل منها ، وأنا شخصياً لا أحفل بها كثيراً ، وفهمي لها أقل من اهتمامي بأمرها ، ولكن الفلسفة ليست هي السبب في متاعبنا الكبرى ، فالشعوذة الفلسفية والهديان الفلسفي لا يجوزان على الروسي ، فهو أوسع إدراكاً من أن يتأثر بهما ، ولكن لا يمكننا أن نسمح بوصم كل شوق صادق إلى الحق والمنطق أنه من الفلسفة ، ومصيبة رودين أنه لا يعرف روسيا ، ولا شك أنها مصيبة عظيمة ، إن روسيا يمكن أن تستغنى عن أي واحد فينا ، ولكن ليس منا من هو في غنى عنها ، والويل لمن يظن أنه يستطيع ذلك ، والويل كل الويل لمن يعمل بدونها ! ؛ فذهب من يتخذ العالم كله وطناً له هراء في هراء ، والآخذ بهذا المذهب رجل تافه ، بل هو أتفه من التفاهة ، ولا وجود لفن ، ولا حق ، ولا حياة ، بل لا وجود لشيء خارج الوطنية ، ومالنا نذهب بعيداً ووجه الإنسان في خير صورته له سيماء خاصة به ، وإنما الوجه المسيح هو الذي لا سيماء له تعرف ، ولكني أعود فأقول إن هذا ليس خطأ يحاسب عليه رودين ، بل هو حظه ، حظه العائر الشقي ، وليس لنا أن نلومه على ذلك . وإنما لنبعد عن جوهر الموضوع كثيراً لو أننا سعينا إلى معرفة الأسباب التي جعلت رودين يظهر بيننا . وأحرى بنا أن نقر له بالفضل على الخير الذي نلمسه فيه ، وذلك أيسر من أن نظلمه ، وقد كنا له من الظالمين ، وليس من شأننا أن نفتص منه ، ومان حاجة تدعونا إلى هذا ، لقد اقتص هو من نفسه قصاصاً أشد كثيراً مما يستحق . نسأل الله أن تذهب المصيبة بما فيه من شر وتبقى على ما فيه من خير ! إني لأشرب نخب رودين ؛ أشرب نخب رفيق أجمل سنين مرت

بحياتي ، أشرب نخب الشباب ، وآماله وجهاده وإيمانه وصدقه ، نخب كل ما كان يجعل قلوبنا تنبض ونحن في العشرين بأسرع مما تنبض الآن . . نخب « ما هو إلى ذلك خير من أى شيء تعلمناه أو نتعلمه في هذه الحياة . . . أشرب نخب تلك الأيام الغر ، وأشرب نخب رودين ! »

وقرع الجميع كئوسهم بكأس ليزنيف ، وأوشك باستتوف أن يحطم كأسه من فرط حماسه ، ثم شربه جرعة واحدة ، وضغطت السيدة ليزنيفا على يد زوجها . وقال بييجاسوف : « ما كنت أحسب قط أنك قادر على كل هذه الفصاحة ،

عجباً إنك لتبلغ في ذلك مبلغ رودين ، وحتى أنا قد هيجت أشجاني ! » وأجاب ليزنيف في لهجة تشوبها خشونة : « لست من الفصاحة في شيء ، وإني لأظن أنه يكاد يكون في حكم المستحيل أن أستطيع تهيج أشجانك ، ولكن كفانا الحديث عن رودين ، ولنتقل إلى موضوع آخر » ثم أردف وهو يلتفت إلى باستتوف « أما زال .. ما اسمك ؟ .. بندالفسكى يقيم مع السيدة لاسونسكايا ؟ »

« أى نعم لقد حصلت له على منصب مرتبه كبير جداً »
وابتسم ليزنيف في تهكم وسخرية قائلاً : « هاكم رجلاً لم يموت فقيراً ، وإني أراهن على ذلك »

وانتهى العشاء وانصرف الضيفان ، وأصبحت السيدة ليزنيفا وحدها مع زوجها ، فنظرت إليه والابتسامه تداعب شفثيه ، وتمتمت تقول وهي تربت جيبيته في محبة وود :

« لقد كنت رائعاً اليوم يا حبيبي ؛ لشد ما كنت بارعاً نبيلاً في حديثك عن رودين ؛ ولكن لا تنكر أنك بالفت قليلاً في تمسكك في الدفاع عنه ، كما كنت

تبالغ من قبل في تمسكك للنيل منه »

« لا أستطيع النيل من رجل نبا به الدهر ، وقد كنت في تلك الأيام أخشى أن يدير رأسك » .

وقالت له زوجه بأسلوبها الساذج : « كلا ، فقد كان يدولى دائماً أكثر علماء مما أطيق ، وكنت أخشاه ولا أدري ما أقول في حضوره ، نعم ، ثم ألم يكن قبيحاً من بيجاسوف أن يسخر اليوم من رودين ؟ » .

فقال ليزنيف : « بيجاسوف ! إنما انسقت في الدفاع عن رودين لأن بيجاسوف كان موجوداً ، لقد اجترأ فوصم رودين بأنه طفيلي ؛ وعندى أن بيجاسوف أسوأ منه مائة مرة ، إنه رجل أوفى ما يكفيه من أسباب المعاش ، ويسخر من كل إنسان ، ولكن انظري كيف يصانع عليه القوم وذوى البأس منهم ! أتعلمين أن بيجاسوف ، ذلك الذى يسمى إلى كل شيء وكل إنسان بجنث بالغ ، ويحمل على الفلسفة وعلى النساء ، كانت تمتد يده للرشوة وهو في خدمة الحكومة . . . وعلى أى صورة ؟ أجل ، هذه حقيقة » .

وهتفت زوجه : « ما كنت أظن فيه ذلك قط ! ما كنت أتوقع هذا منه ! » ، ثم سكنت لحظة ومضت تقول : « هناك أمر كنت أريد أن أسألك عنه . . . »

« وماهو »

« أتظن أن أخى سيحظى بالسعادة مع ناتاليا ؟ »

« حسناً . . . أغلب الظن أن يتم له ذلك . . . لعمري ولتكونن هى صاحبة الكلمة العليا ، وليس ثمَّ ما يدعونا إلى تجاهل هذه الحقيقة ، فهى أهم منه وأبرع ،

بيد أنه رجل ولا كالرجال ، وهو يحيا من صميم قلبه ، وماذا يطلب المرء أكثر من هذا ؟ . . .

وما لنا نذهب بعيداً ، ألسنا متحابين ترفرف علينا السعادة ؟ » فابتسمت وضغطت على يده .

وفي اليوم الذى كانت الحوادث التى قصصناها عليك تجرى فى منزل السيدة ليزيفيا ، كانت عربية حقيرة غطيت بالحصير ، يجرها ثلاثة جياد من جياد الفلاحين تضرب متناقلة فى قيظ الظهيرة مصعدة تجتاز طريقاً بناحية روسية نائية ، وقد جلس فلاح أشيب الشعر محنى الظهر يرتدى معطفاً مهلهلاً فى مقعد الحوذى ووضع ساقيه جانباً على « سوء اس » العربية ، ولم يتقطع قط عن لطم الجياد بالعنان المصنوع من الحبال ولف سوطه الصغير القصير ؛ وجلس تحت سقف العربية رجل طويل القامة يرتدى قبعة مستدقة الطرف وعباءة قديمة مغبرة ، وقد استوى على حقيبته الصغيرة الهزيلة ، كان الرجل هو رودين ، وقد جلس منكس الرأس ، وشد قبة قبعته على عينه ، وبدا أنه لا يحس إطلاقاً بتأرجح العربية تأرجحاً عجيباً راح يقذف به من جانب إلى آخر كأنما كان فى غفوة ثم اعتدل فى جلسته آخر الأمر .

وسأل الفلاح الذى كان يعتلى مقعد الحوذى : « ترى هل نصل إلى المحطة فى يوم من الأيام ؟ »

وقال الفلاح متظاهراً بشد العنان : « حسناً يا صديقى ، متى بلغنا قمة الثل الذى هناك لا يبقى لنا إلا فيرستان » ، ثم صاح يقول وهو يضرب الجواد الأمين بسوطه « اصح ، أتراك تفكر ؟ سأعلمك كيف تفكر ! »

وقال رودين : « أخشى أن تكون سائقاً لا تحسن مهنتك فما زلنا منذ الصباح

نجر أنفسنا جرّاً ولم نبليغ بعد بغيتنا ، ولعلك تغنينا على الأقل شيئاً »
 « لاحيلة لى فى الأمر يا صديق ، فالجياذ على ما ترى منهوكة القوى ، وما أنا
 بمستطيع أن أعنى ، فلست من عمال المحطات الذين يغنون » ، ثم صاح فجأة فى
 عابر طريق يرتدى ستره قذرة وحذاء من ليف النبات أكل الدهر عليه وشرب :
 « أنت يا هذا الحمل المسكين ، أفسح الطريق أيها الحمل المسكين ! »
 ووقف الرجل ، وشيع الحوذى متمتماً : « يا له من حوذى ظريف ! » ، ثم
 مضى يقول فى صوت غلبت عليه الملامة : « أظن أنه من أهل موسكو ! » ، وهز
 رأسه ثم مضى يسير متقارب الخُطى .
 وصاح السائق وهو يشد عنان « السوء اس » : « الزم الطريق أنت أيها الشيطان
 الخبيث ! » .

ومضت الجياذ منهوكة القوى فى خُطى ثقيلة حتى انتهى بها المسير إلى المحطة ،
 وخرج رودين من العربة يجر نفسه جرّاً ودفع للفلاح أجره (ولم ينحن له الفلاح بل
 أخذ يقلب النقود فى يده برهة طويلة ، والظاهر أن النفحة التى نفحه بها كانت
 تافهة) ، ثم حمل حقييته بنفسه إلى المنزل .
 وقد قال لى مرة صديق أكثر من الطواف فى أنحاء روسيا : إن المرء سرعان
 ما يصيب طلبته من الجياذ إذا وجد جدران المحطة مزدانة بصور تمثل مشاهد من
 « سجين القوقاز » أو صوراً لبعض القواد الروس ، أما إذا كانت الصور تمثل حياة
 جورج دى جرماني المقامر المشهور فأخلق بالمسافر أن يتخلى عن كل أمل فى الرحيل
 سريعاً ، ذلك أنه سيجد الوقت للإعجاب بمحصلات الشعر المنتصبة لذلك المقامر
 فى شبابه ، وبصداره الأبيض ، وسراويله العجيبة فى إحكامها والتصاقها بحمسه

وقصرها . ووجهه المتقلص المربد ، وقد وقف عندما تقدمت به السن في كوخ يعلوه سقف شديد الانحدار ، يلوح بكرسى ويقتل به ابنه . وكانت هذه الصور نفسها المأخوذة من قصة « ثلاثون عاماً أو حياة مقامر » ، معلقة على جدران الغرفة التي دخلها رودين ، ونادى رودين صاحب التزل فأجابه رجل يداعب الكرى أجفانه (وبهذه المناسبة هل اتفق لأحد منكم أن رأى صاحب نزل لا يداعب الكرى أجفانه ؟) وقال الرجل في استهتار دون أن يكلف نفسه مشقة انتظار سؤال رودين : إنه ليس لديه جياذ .

وسأله رودين : « ماذا تعنى بقولك : ليس لديك جياذ وأنت لا تعلم من أمر المكان الذي أقصد إليه شيئاً ؟ لقد جئت إلى هنا مستعيناً بجياذ بعض الفلاحين » . فأجاب صاحب التزل : « ليس لدينا جياذ تمضى إلى أى مكان ، ترى ماذا قلت عن مقصدك ؟ »
« أقصد - سك » .

وأعاد صاحب التزل قوله : « ليس لدينا جياذ » ، ثم خرج . وشخص رودين إلى النافذة ، وألقى بقبضته على المائدة لما أصابه من غيظ وحنق ، وكانت الستان اللتان مرتا به لم تنالا منه كثيراً . إلا أن وجهه غدا شاحباً وخطط المشيب شعره المجدد ، وبدا أن عينيه اللتين ظللتا على جاهلها ، قد فقدتا بعض بريقها ، وظهرت على شفثيه وعلى وجنتيه وصدغيه تجاعيد دقيقة من فرط ما انتابه من انفعالات مضطربة مريرة ؛ وكانت ملابسه قديمة رثة . لا يشاهد فيها أثراً لقميص ، ولاح للعين أنه قد ودع ربيع العمر ، أو أن عوده قد ذوى كما يقول البستانيّة .

وأخذ رودين يقرأ النقوش التي على الجدران . وهي عادة محببة إلى قلوب
المسافرين الذين تدرکہم الملالة والسأم ، وإذا بالباب يصير ويدخل صاحب التزل .
وقال الرجل : « ليس ثم جیاد تمضى إلى . . . سك . ولن تتيسر قبل مضى
مدة طويلة . ولكن ثم جوادین سيعودان إلى . . . أوف »

وهتف رودین : « إلى . . . أوف ؟ ، ولكنها تبعد كل البعد عن طريقى . فإني
ذاهب إلى بتزا . ولكن . . . أوف فيما أحسب على طريق تمبوف !
« وأى ضمير فى ذلك ؟ تستطيع أن تبلغ . . . سك عن طريق تمبوف أو تختصر
الطريق إليها بوسيلة ما من . . . أوف »

وتدبر رودین الأمر . ثم قال أخيراً : « حسناً ! قل لهم يسرجون الجیاد فالأمر
يستوى عندى . سأذهب إلى تمبوف »

وسرعان ما جهزت الجیاد . وحمل رودین حقيته الصغيرة ، وتسلق العربة .
ثم جلس وقد ران عليه اليأس والقنوط كما كان حاله من قبل . وأفصح ظهره المحنى
عما يساوره من بؤس العاجز واستسلام الحزين المفجوع . ومضت العربة ثقيلة
الخطى . تتنفض وتهتز وأجراسها تصلصل وتجلجل .

خاتمة

ومرت عدة سنوات أخرى .

وكان ذلك في يوم بارد من أيام الخريف ، وقد وقفت عربة من عربات السفر عند درج الفندق الكبير في بلدة س . . . من أعمال الريف ، وهبط منها سيد ، ثم تمطى وهو يتهد ويتأهب ، ولم يك هذا السيد متقدماً في السن ، إلا أنه كان قد أوتى تلك البسطة في الجسم التي ألف الناس أن يعدوها سمة من سمات الاحترام والمهابة ، وارتقى الدرج إلى الطبقة الأولى ، ووقف في مدخل دهليز واسع ، وتلفت حوله فلم يجد أحداً ، فهتف يطلب غرفة بصوت مرتفع ، وانصفق الباب من مكان ما ، وقفز نُدُل هزيل من خلف دريئة منخفضة وقاد التزليل مسرع الحُطى يطلع ، وكان ظهره الأملس وكماه المرفوعان تتألق في ضوء المشى الخافت ، وما إن دخل المسافر غرفته ، حتى خلع معطفه ووشاحه ، وجلس على أريكة وأسند يديه المثنيتين على ركبتيه ، ثم نظر حوله نظرة وسنانة ، ونادى خادمه ، فانصرف النُدُل يطلع كشأنه ، ولم يكن المسافر إلا ليزنيف ، وقد جاءت به الحملة السنوية للتجنيد إلى س . . .

ودخل خادم ليزنيف ، وكان شاباً مجهداً الشعر مورد الخد يرتدى معطفاً أشهب وحزاماً أزرق وحذاء طويلاً من اللباد ، فقال ليزنيف : « إيه يا غلام ، ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، ولم تنخلع العجلة التي كنت شديد القلق عليها » وأجاب الخادم وقد أخفت ابتسامته بنية معطفه المرفوعة : « ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، أما السبب في أن العجلة لم تنخلع . . . »

وارتفع صوت من المشى يقول : « هل من أحد هنا ؟ » واعتدل ليزنيف في جلسته وأرهف السمع .

وصاح الصوت مرة أخرى يقول : « أنتم يا من هناك ! » ونهض ليزنيف ، ومضى إلى الباب ، ودفعه فانفتح .

وألنى أمامه رجلاً متصبباً طويل القامة محدودب الظهر أتى المشيب على شعره كله أو كاد ، وقد ارتدى سترة قديمة من المخمل لها أزرار من نحاس ، وعرفه ليزنيف في الحال

فهتف : « رودين ! » ، والتفت رودين ، ولم يستطع أن يميز ملامح ليزنيف ، لأن ليزنيف كان يقف وظهره إلى الضوء ، فأخذ ينظر إليه متعجباً .
وسأله ليزنيف : « ألا تعرفني ؟ »

فصاح رودين : « ميخائيل ميخائيلوفتش ! » ، ومد إليه يده ، ثم تردد ، وسحبها مرة أخرى ، وأسرع ليزنيف وأمسك بها بكليتا يديه .

وقال رودين : « تعال ، تعال إلى غرفتي » ، وأدخله غرفته ثم قال ليزنيف بعد سكون دام برهة قصيرة وهو يخفض صوته كرها عنه : « لقد تغيرت كثيراً ! » فأجاب رودين ، وعيناه تجولان في الغرفة : « نعم ، هكذا يقولون ، والسنوات

تغير، ولكنك لم تتغير قط ، كيف حال ألكسندرة . . . زوجتك ؟ »
« إنها بخير وشكراً لك ، ولكن ماذا تفعل هنا ؟ »
« أنا ؟ إنها قصة طويلة ، ولعمري لقد هبطت هذا المكان مصادفة . كنت
أبحث عن رجل أعرفه ، ومع ذلك فإني سعيد كل السعادة . . . »
« أين تتناول غداءك ؟ »
« أنا ؟ لست أدري ، في أى مطعم . فإني مضطر أن أغادر البلدة اليوم »
« مضطر ؟ »
« وابتسم رودين ابتسامة ذات مغزى : « أجل . مضطر . فإنهم سيحملونني إلى
قرية لأقيم فيها .
« فلتناول الغداء معي »
« والتقت نظرات رودين ونظرات ليزنيف للمرة الأولى . وقال له : « أوتدعوني
لتناول الغداء معك ؟ »
« أجل يا رودين . كشأننا في الأيام الحوالي ، وكخير الأصدقاء . أو قد اتفقنا ؟
ما كنت أتوقع أن أراك ، ويعلم الله متى يقيض لي أن ألقاك مرة أخرى ، ولا يمكن
أن نفرق على هذا النحو ! »
« لا بأس ، وإني لأوافق »
« وضغط ليزنيف على يد رودين ، ونادى خادمه وأمره بإعداد الغداء . وأن
يثلج زجاجة من الشمبانيا .
« وراح ليزنيف ورودين يتحدثان في أثناء الغداء . كأنها قد اتفقا على ذلك
ضمناً : يتحدثان عن أيام الدراسة . ويذكران كثيراً من الأحداث ، والناس أحياء

وأمواتا ، والترم رودين جانب التحفظ أول الأمر . إلا أن الدم جرى في عروقه بعد أن تناول كتوساً قليلة من الخمر . وجاء النُدُل بالطبق الأخير . ونهض ليزنيف وأغلق الباب واتخذ مجلسه أمام رودين وجهاً لوجه . ثم أسند ذقنه على يديه في هدوء . وأنشأ يقول : « وبعد ، فلتحدثني بكل ما وقع لك مذ التقينا آخر مرة » .

ونظر رودين إلى ليزنيف

وعاد ليزنيف يحدث نفسه قائلاً : « يا إلهي ! لشد ما تغير هذا البائس

المسكين ! »

ولم تتغير ملامح رودين إلا قليلاً مذ افترقنا عنه في المحطة . بالرغم من أن الكبر المحيق به كان قد ألقى عليها ظلاله . ومع ذلك فإنها كانت تفصح عن شيء آخر لم نعهده فيه . لقد تبدلت نظرات عينيه . بل إن كيانه كله . والطريقة التي كان يتحرك بها متكاسلاً تارة ومتفوضاً تارة أخرى . ثم حديثه الذي فقد حميته وغشيه الانكسار والفتور - كل أولئك كان يتم عن ملل مضمّن وحزن دفين صامت لا يشبه في شيء أبداً تلك الكآبة المشوبة بالانفعال التي كان يتظاهر بها من قبل ، شأنه في ذلك شأن جميع الشبان الذين يملأ صدورهم الأمل والاعتزاز بالنفس في براءة وسذاجة .

وقال رودين : « أحدثك بكل ما وقع لي . لا أستطيع أن أقصر عليك كل شيء . ولست أرى ضرورة لهذا . . . لقد شقيت كثيراً ، وأبعدت في الرحلة والتجول . لا بالجسم فحسب بل بالروح أيضاً - رياه ! لشد ما خاب مني الرجاء في الناس وفي الأشياء ! ويا للصلوات التي لا آخر لها ! » ، ثم ردد قوله (وقد لاحظ أن ليزنيف ينظر في عينيه بعطف عجيب) « أجل . لا آخر لها ! وما أكثر

ما عصنتى كالماتى ، فلم تجمد على شفتى فحسب ، بل جمدت على شفاه قوم كانوا يشاركونى فى آرائى ! وما أكثر ما استحالت شكاسة الطفل عندى إلى بلادة فى الحس أشبه ببلادة الجواد يضرب بالسوط فلا يهترله ذيل ! وما أكثر ما هزنى الفرح وداعبنى الأمل ، وشهرت الحرب على الناس ، وأذلت نفسى ، فما عاد ذلك على بشيء ! وما أكثر ما كنت أنقض كالنسر الجسور وأرتد متخاذلاً كالقوطة تحطمت صدفتها ! فأين أين الآفاق التى لم أجبها ؟ وأين أين الطريق الذى لم أسلكه ؟ ، ثم أردف رودين مشيحاً بنظراته : « فهل تعلم أيها السيد . . . »

وقاطعه ليزنيف قائلاً : « أفصح ، فما كنا نصطع فيما بيننا هذا التكلف فى الأيام الحالية . . . فلنستعد تلك الأيام ، ولنشرب نخب الأخوة ! »

وتشدد رودين ، وانتصب واقفاً ، وكانت النظرة العابرة إلى عينيه أفصح من كل كلام .

وأجاب رودين : « أجل ، شكراً يا أخى ، ولنشرب نخب الأخوة ! »

وأفرغ ليزنيف ورودين كأسيهما

واسترسل رودين يقول مبتسماً وقد أسقط لفظ « ياسيد » ، « ألا تعلم أن بين جوانحى ناراً لا تنفك تهشى نهشاً وتأكل لحمى أكلا ، فلا أشعر بالهدوء أبداً ، وتحملنى على النيل ممن يقعون فى أول الأمر تحت سلطانى ثم . . . » ، وأوماً رودين بيده إيحاء قطع بها حديثه ، ثم أردف : « مذ لقيتك آخر مرة ياسيد . . . بل مذ افترقنا وأنا ماضٍ أضرب فى خضم الحياة وأجرب أموراً كثيرة . . . فقد كنت بين الفينة والفينة أبدأ الحياة من جديد ، وأخطو خطوة جديدة ، وإنك لتستطيع أن ترى بعينيك إلى أين انتهى لى المطاف ! »

وقال ليزنيف كمن يفكر بصوت عال : « إنما كانت تتصلك قوة الاحتمال »
 « لقد كنت على ما قلت مفتقراً إلى قوة الاحتمال ، ولم أخلق قطّ بناءً ، وكيف
 يتاح للمرء ، بربك ، أن يبني ويشيد والأرض من تحت قدميه هشة لا صلابة فيها ؟
 بل كيف يتأتى له ذلك وهو مضطر أن يضع الأساس لنفسه أولاً ؟ لن أحاول أن
 أصف لك كل ما خضتته من مغامرات ، أو كل ما أصابني من خذلان ، بل
 سأحدثك عن حادثين أو ثلاثة ، وأعني بها تلك الوقائع من حياتي التي بدا لي منها
 أن الزمن قد أخذ يتسم لي آخر الأمر ، أو أن النجاح فيها كان يراود نفسي بتعبير
 أدق ، وبين الأمرين فارق ملحوظ »

وأصلح رودين من شعره الأشيب ، الذي كان قد نخل ، على نحو ما عهدناه
 فيه عندما كان يدفع خصلات شعره الأسود الكثيفة إلى الوراء .

وأنشأ يقول : « حسناً ، أنصت إلي ، لقد وقعت في موسكو على سيد فيه من
 غرابة الأطوار شيء كثير ، ولم يك هذا السيد يعمل في خدمة الحكومة ، بل كان
 رجلاً واسع الثراء يمتلك ضياعاً واسعة ، وقد شغف قلبه وملك عليه حياته شيء
 واحد هو حب العلم ، حب العلم عامة ، ولست أفهم حتى اليوم كيف نما في قلبه
 هذا الحب ؟ هذا الحب الذي اختلط بدمه واحتواه السرج للبقرة ، وما لي
 شك أن عقله لم يبلغ المستوى الذي كانت تصبو إليه نفسه ، لقد كان يعجز عن
 الكلام أو يكاد ، وكل ما كان يستطيعه هو أن يدير عينيه دوراناً معبراً ، ويهز رأسه
 في رزائة ووقار ، ولم أصادف قطّ يا صديقي رجلاً أقل منه ذكاء ولا أغنى منه
 عقلاً . . . ، وفي ناحية سمولنسك أماكن لا تجد فيها إلا رمالا وبعض العشب
 متناثراً هنا وهناك يأنف أي حيوان أن يصيب منها شيئاً ، وكان كل شيء يحاوله

الرجل يخيب فيه خيبة ذريعة ، كان كل شيء يروغ منه ويفلت من قبضته . وخاصة أنه كانت تملكه نزوة تحمله على أن يجعل من الشيء السير عسيراً ، وصدقني أن الأمر لو كان بيده لجعل الناس يأكلون بكعوب أقدامهم لا بأفواههم ؛ كان يكدح ويكتب ويقراً بهمة لا تعرف الكلل ، وكان يحطّب ود العلم في شيء من الإصرار العنيد والمثابرة التي لا هوادة فيها ، ولم يكن لغروره حد ، وكانت إرادته من حديد ، وقد عاش في عزلة وعرف بغرابة الأطوار .

« عرفته ، ومن عجب أنه مال إلى . ولا أخفى عنك أنني سرعان ما أدركت تفاهته ، ولكن تعصبه لرأيه أثر في نفسي . ثم إن موارده كانت من الجسامة والوفرة حتى كان من المستطاع تحقيق الخير الكثير على يديه ، وأقمت معه ، ثم صحبته آخر الأمر إلى ضيعته في الريف . لقد كانت خططي يا صديقي عظيمة ، رحمت أنجيل ضرورياً شتى من الإصلاح والتجديد . . . »

وقال ليزنيف وهو يتسم ابتسامة تم عن سلامة الطوية « كما فعلت في منزل السيدة لاسونسكايا »

« كلا ، كلا فقد كنت عندها أحس في قرارة نفسي أن كلماتي تذهب سدى ، أما في هذه المرة . . . أما في هذه المرة فقد تهيأت لي فرصة عظيمة . . . وحملت معي عدداً كبيراً من الكتب التي تبحث في الزراعة ، ولا أخفيك أنني لم أقرأ واحداً منها حتى نهايته ، ثم شرعت في العمل ، ولم تجر الأمور بادئ ذي بدء على ما أشتى ، ولكنها استقامت فيما يظهر من بعد ، وكان صديقي الذي اكتشفته حديثاً يرقب ما أفعل ولا يقول شيئاً ، لم يكن يدس أنفه في أموري بالقدر الذي ينجم عنه ضرر ، وكان يأخذ باقتراحاتي ، ولكنه كان يفعل ذلك في نفور بالغ .

ويلازمه شك ملح خفي . ثم يعود دائماً أبداً إلى سابق عهده ، ذلك أنه كان يعترز أيما اعتزاز بكل فكرة من أفكاره ، ويكابدها مكابدة تقتضيه أشد الجهد وأعنفه . مثله كمثل أنني الطير تعلى نصل عشب من العشب تقيع عليه وتسوى جناحيا بمنقارها متهيئة للطيران . ثم لا تلبث أن تسقط . وتبدأ كل ذلك من جديد . . . ولا يأخذتك العجب من هذه المقارنات ، فقد ظلت تساور نفسي منذ ذلك الحين . وهكذا كافحت سنتين ، وسار العمل سيراً سيئاً بالرغم من كل ما بذلت من جهود ، وبدأت أضيق بهذا كله . فقد أضجرتي صديق وبعث في نفسي الملامة والسأم ، فجنحت إلى التهمك ، كان يضيق على الأنفاس كأنني أرقد في فراش من ريش ، واستحال عدم ثقته في إني تبرم صامت ، وطفى على نفس كل منا شعور من الحقد المتبادل فلم نعد نستطيع أن نناقش أمراً من الأمور بهدوء . وكان لا ينفك يحاول بطريقة خفية أن يبين لي أنه قد برم بنفوذى إما بتشويه خططي أو بإلغائها إلغاء . وتجلى لي آخر الأمر أنني إنما كنت طفيلياً يوفى لي المأكل والمسكن نظير ما أكفله للسيد المالك من رياضة عقلية ، وكان يحز في نفسي ما اتضح لي من أنني أضيع وقتي وجهدي سدى . وأن آمالي قد أنهارت مرة أخرى . والشيء الوحيد الذي كنت أعلمه حق العلم هو مقدار ما يصيبني من خسارة بالتخلي عن عملي . بيد أنني لم أعد أحتمل السكوت على هذه الحال . وقد حدث ذات يوم أن شاهدت منظرًا أليماً تشمئز منه النفس أظهر صاحبي في صورة كريمة جداً . فتشاجرنا مشاجرة كانت هي الأولى والأخيرة ، ورحلت تاركاً ذلك السيد المتحذلق الذي صنع من عجيبة اختلط فيها الدقيق الروسي والعسل الأسود الألماني . . . »

وتمم ليزنيف وقد وضع كلتا يديه على كفتي رودين : « أي أنك تركت

ما يكفل لك أسباب القوت »

« أجل ، ووجدت نفسى مرة أخرى خالى الوفاض جائعاً أضرب فى الفراغ حراً
أنطلق حيث أشاء... ايه ، فلنشرب ! »

وقال ليزنيف وهو ينهض ويطّيع قبلة على جبين رودين « فى صحتك ، فى
صحتك وفى ذكرى بوكورسكى ، فقد أوتى هو أيضاً الشجاعة على احتمال الفقر .
وسكت رودين برهة وجيزة ثم قال : « كانت هذه إذن هى المغامرة » رقم
واحد « أو أمضى فى الحديث ؟ »

« أرجوك أن تفعل »

« تالله إن نفسى قد عافت الكلام ، وسمت الحديث يا صديقى ! ولكن ليكن
ما تريد ، لقد انطلقت من بعد أضرب فى أماكن أخرى مختلفة ، وقد يحمل لى أن
أنتبك فى معرض هذا الحديث كيف أصبحت كاتب سر موظف إمبراطورى سليم
الطوية ، وما انتهى إليه أمرى معه ، إلا أن ذلك يخرج بنا عن الموضوع
كثيراً ، . . . أقول إننى اضطلعت بأمر عدة ثم عقدت العزم على أن أصبح آخر
الأمر - وأرجوك ألا تضحك - رجلا من رجال الأعمال ، رجلا ينظر إلى الأمور
بمنظار الواقع ، وشاءت المقادير أن أتعرف برجل يسمى كوريبيف ، ولعلك سمعت
عنه ، ألا تستبين من الاسم شيئاً ؟ »

« كلا ، لم أسمع به قط ، ولكن بالله عليك يا رودين كيف فاتك ، وأنت
الرجل الذكى الأريب ، أنه ليس من عملك أن تكون رجل أعمال ، وعفواً لهذا
الجناس ؟ »

« أعرف أن ذلك ليس من عملى ، ولكن ترى ما عملى ؟ » كنت أتمنى أن

ترى كورييف ، وأرجو ألا يذهب بك الظن إلى أنه رجل ثرثار كالطبل الأجوف (يقولون : إنني كنت فصيحاً في يوم من الأيام) ولكنني لو قورنت به ما كنت شيئاً ، فقد كان رجلاً عجبياً في عمله ، رجلاً لودعياً ، له عقل مبدع يا صديقي في التجارة والصناعة . لقد كان رأسه حافلاً بأعظم المشروعات جرأة . وأشدّها ابتعائاً للدهشة والعجب ، فوضعت يدي في يده وقررنا أن نكرس أنفسنا لعمل من الأعمال التي تعود على الجمهور بالخير . . . » .

« أفلا تحدثني عن هذا العمل ؟ »

وخفض رودين بصره وأجاب بقوله : « سيحملك ذلك على الضحك »
« عجباً ! لن أضحك »

فقال رودين مبتسماً ابتسامة يغلب عليها الحياء :

« لقد قررنا أن نعهد نهراً في ناحية ك - آيا ونجعله صالحاً للملاحة »

« بشس ما فعلت ! إذن فقد كان كورييف هذا رأساً مالياً ؟ »

فأجاب رودين وهو يحنى رأسه الأشيب خائراً الغزم مكتئباً : « لقد كان أشد فقراً مني » .

وانفجر ليزنيف ضاحكاً ، ولكنه أمسك بغتة ، وأخذ يد رودين ثم قال :

« أرجوك أن تصفح عني يا صديقي ، فقد أخذت على غرة ، حسناً ، ولا شك

أن مشروعك قد ظل حبراً على الورق »

« لم يكن الأمر كما تقول بالضبط ، فقد شرعنا نضع خططنا موضع التنفيذ ،

فاستأجرنا العمال ثم بدأنا العمل ، وسرعان ما صادفتنا عقبات شتى ، ذلك أن أصحاب المطاحن لم يكونوا راضين عن المشروع . وأشد من هذا وأنكى أننا كنا

عاجزين عن تسوية النهر للملاحة وقد خلا وفاضنا من الآلات ، وما كنا لنستطيع شراء الآلات بالمال القليل الذى تيسر لنا ، فعشنا ستة أشهر فى أكواخ من الطين . وكان كوربييف يعيش على الخبز دون سواه ، أما أنا فلم يكن لدى من الزاد إلا القليل ، على أنى لست نادماً على ما فعلت ؛ فقد كانت مناظر تلك الناحية رائعة ، ومضينا فى كفاحنا وحاولنا أن نثير فى التجار الاهتمام بمشروعنا ، وكتبنا الخطابات والمنشورات ، وانتهى الأمر بإنفاق آخر كوكب فى جيبى على المشروع .

وقال ليزنيف : « لم يكن هذا بالأمر العسير فيما أحسب ! »

« لم يك حقاً بالأمر العسير ! »

ونظر رودين من خلال النافذة : « ولكننى أقسم أن المشروع لم يك سيئاً ،

ولعله كان حرياً بأن يسفر عن خير عميم »

وسأله ليزنيف : « وما الذى حدث لكوربييف ؟ »

« إنه فى سيربى الآن يبحث عن الذهب ، وسرى أنه سيواتيه حظه من بعد ،

ولن يصاب بالخذلان »

« ربما واتاه حظه ، أما أنت فلن يواتيك حظك أبداً . »

« أنا ؟ واعجباً ! ، ولكن لا غرو فقد كنت تحسبى دائماً لا أصلح لشيء . »

« أنت - لا تصلح لشيء ! على رسلك يا صديقى ؛ صحيح أنه قد مر بى زمن

لم أتبين فيه إلا نواحي الضعف فىك . ولكنى أؤكد لك أننى قد عرفت مقدارك

حقاً . إنك لن تصيب حظك . . . ومن أجل ذلك أحبك . أحبك حقاً . . . »

وابتسم رودين ابتسامة فاترة ثم قال : « حقاً ؟ »

وردد ليزنيف : « إني أحترمك من أجل ذلك . ولاشك أنك تدرك ما أعنى » .

ولاذ الرجلان بالصمت برهة

« حسناً . هل لي أن أنتقل إلى المغامرة « رقم ثلاثة ؟ »

« افعل ولك الفضل . »

« حسناً جداً . إذن . أما المغامرة الثالثة والأخيرة فقد خرجت منها منذ عهد

قريب . ولكن أليست أبعث في نفسك الملالة والسأم ؟ »

. امض في حديثك .

فاسترسل رودين يقول : « لقد طرأ لي في لحظة من لحظات الحمول والكسل .

وما أكثر ما نحلّ بي هذه اللحظات ، أنني تدبرت أمر نفسي كما يقولون ، ووجدت

أنني رجل واسع العلم أسعى لخير الناس . . . أتراك تنكر على هذا ؟ »

« كلا وإيم الحق »

« لقد حلت بي الحتية في كل ما عدا ذلك من أمور . . . فلم لا أغدو معلم

أحداث ، أو مدرساً إذا شئت الوضوح ؟ ومالى أضيع حياتي هباءً ؟ . . . » ونخت

صوت رودين رويداً رويداً وانتهى بزفرة ، ثم مضى يقول : « ومالى أضيع حياتي

هباءً على حين أنه يجدر بي أن أسعى إلى تلقين غيرى ما أصبت من علم ، لعلهم

يفيدون منه بعض الفائدة ؟ ودار في نفسي أن كفاياتي فوق المستوى العادى ، ثم

إننى أوتيت فوق ذلك لساناً ذلقاً يضطرب في رأسى ، فصح عزمى على أن أكرس

نفسى لهذا العمل الجديد ، ووجدت مشقة كبيرة في الحصول على وظيفة ، ذلك

أننى لم أشأ أن أعطى دروساً خاصة ، ولم يكن في مقدورى أن أصنع شيئاً في

المدارس الأولية ، وأفلحت آخر الأمر في الحصول على وظيفة مدرس في المدرسة الثانوية هنا .

وسأله ليزنيف : « وأى مادة كنت تدرسها ؟ »

« الأدب الروسي ، ولا أكتمك أنى ما أقبلت على عمل بمثل هذه الغيرة والحماسة ؛ فقد كانت صياغة عقول الشباب من الأفكار التي تلهمني ، وقضيت ثلاثة أسابيع أكتب المحاضرة التي أستهل بها دروسى »

وقاطعه ليزنيف قائلاً : « ألدك نسخة منها ؟ »

« كلا لقد فقدتها في مكان ما ، وكانت محاضرة جيدة نجحت نجاحاً كاملاً ، . إنى لأستطيع الآن أن أتمثل وجوه الحاضرين - وجوهاً شابة لطيفة تضيئها أمارات لانتباه الجاد ، ويشوبها العطف ، بل التعجب ، وارتقيت المنصة وألقيت محاضرتى وأنا كالمحموم ، وحسبت أنها ستستغرق أكثر من ساعة ، إلا أننى قرأتها في عشرين دقيقة ، وكان المفتش حاضراً ، وكان شيخاً نحيلاً يضع على عينيه عوينات ذات إطار من الفضة ويرتدى شعراً مستعاراً قصيراً ، وكان يجهد نفسه من حين إلى حين فيميل إلى الأمام ليسمعنى في جلاء ووضوح ، وفرغت من إلقاء محاضرتى ، وقفزت من كرسى فقال لى : « أحسنت ، ولكن المحاضرة أقرب إلى التهويل والمبالغة والغموض ، ولم تتناول الموضوع إلا لماماً » ، إلا أننى أؤكد لك أن الطلبة كانوا يتبعوننى بنظرات تم عن الاحترام ، وهذا هو الشيء الرائع حقاً في الشباب ؛ وكتب محاضرتى الثانية ، والثالثة . . . ثم أخذت أرتجل الكلام من بعد .

« وهل نجحت ؟ »

« نجحت نجاحاً باهراً ، ورحت ألقنهم كل ما كان في جمعتى من علم ، وكان

ثلاثة فتيان أو أربعة منهم مدهشين حقاً . أما بقيتهم فقد تعذر عليهم أو كاد أن يفهموا عنى شيئاً قط ، على أنى لا أنكر عليك أن أولئك الذين فهموا عنى كانوا فى بعض الأحيان يشيرون فى نفسى الحيرة والاضطراب بما يوجهون إلى من أسئلة . إلا أن ذلك لم يفت فى عضدى ، لقد كانوا جميعاً يجهلونى ، وكنت أمنحهم جميعاً الدرجات النهائية فى الامتحانات ، ولكن لاحت فى الجو دسياسة دبرت لى : كلا . لقد أخطأت التعبير ، فلم يكن ذلك دسياسة ، وغاية ما فى الأمر أنى لم أكن فى حالتى الطبيعية ، لقد أوقعت غيرى فى حيرة ، ووقعت أنا فيها . كنت أحاضر طلبة المدرسة الثانوية على نحو لم يعهده طلبة الجامعة إلا نادراً ، ولم يفد المستمعون من محاضرتى إلا القليل ، وكنت أنا نفسى أعرف الحقائق ، ولكن معرفتى بها كانت ناقصة ، ثم إنى لم أكن راضياً عن المنهج الذى كلفت أن أنهض بالتدريس فى حدوده ، وهذا فيما تعلم من نواحي الضعف فى ، لقد كنت متعطشاً إلى استحداث إصلاحات جوهرية ، وأقسم أنها كانت إصلاحات عملية ممكنة التحقيق ، وكنت أرجو أن أضعها موضع التنفيذ بمعاونة ناظر المدرسة ، وهو رجل فاضل أمين كان لى عليه أول الأمر شىء من السلطان ، وعاونتنى زوجه ، ولم أصادف فى حياتى يا صديقى إلا القليل من هذا الطراز من النساء ، كانت قد تجاوزت الثلاثين بكثير ، إلا أنها كانت تؤمن بالخير والصلاح ، وتحب كل ما هو جميل حباً حاراً لا تجده إلا فى ابنة الخامسة عشرة ، وكانت لا تهاب التصريح بما تعتقد أمام أى إنسان مهما كان شأنه ، وإن أنس فلا أنس غيرها الخالصة ونفسها الطاهرة . ورسمت خطة بناء على مشورتها ... إلا أنهم نصبوا لى شركاً بالحط من شأنى أمامها ؛ فقد كان مدرس الرياضيات رجلاً حقيراً حاد الطبع غَضُوباً ، لا يؤمن بشىء . مثله مثل

بيجاسوف ، إلا أنه كان أقدر منه بكثير . وألحق بي هذا الرجل أبلغ الضرر... وبهذه المناسبة كيف حال بيجاسوف ؟ ، هل هو على قيد الحياة ؟ .
« أجل ، ولكن أيدور بجلدك أنه تزوج امرأة من أهل المدينة تضربه على ما تقول

الشائعات ؟ »

« إنه يستحق ما يليق . حسناً . وهل تنعم ناتاليا لاسونسكايا بصحبة جيدة ؟ »

« أجل »

« أسعيدة هي ؟ »

« أجل »

ولاذ رودين بالصمت لحظة قصيرة . ثم قال :

« إلى أين بلغ بي الحديث ؟ أى نعم . مدرس الرياضيات . لقد تولد في نفسه الحقد على . وشبه محاضراتي بالصواريخ . وكان يقيم الدنيا ويقعدها إذا شاب عبارة واحدة من عباراتي أى غموض . وقد اكتشف مرة خطأ في إشارة عن ملحة من ملاحم القرن السادس عشر . وأسوأ ما رماني به هو بذور بذور الشك في نواياي . ودق آخر مسمار في نعشى ففضى على . ذلك أن المفتش الذى عجزت عن التفاهم معه منذ البداية . قد أثار ناظر المدرسة على . ووقعت الواقعة بيني وبينه . وأبيت أن أذعن له واستشطت غضباً . واتصل الأمر بذوى الشأن . فأكرهت على الاستقالة . ولم أترك الموضوع عند هذا الحد . بل أردت أن أبين للقوم أنه لا يمكن معاملتي على هذه الصورة . . . ولكن الأمر انتهى على هذه الصورة . . . وكان لا بد لي حينئذ أن أغادر هذه البلدة »

ولزم رودين الصمت . وجلس الصديقان منكسى الرأس .

وكان رودين أول من تكلم وقال : . أجل يا صديقي . أستطيع الآن أن أردد قول كولتسوف^(١) : « ايه يا شباني . لقد أترعت قلبي بالألم حتى ضاقت لي سبل الخلاص جميعاً » . ولكن أتراني حقاً لا أصلح لشيء . ولا أستطيع أن أنهض بشيء في هذا العالم ؟ ألا ما أكثر ما سألت نفسي هذا السؤال ! ومهما بلغ من تحقيري لنفسي في نظر نفسي فإني لا أملك إلا الشعور بأن في أعماق قوَى لم توهب للناس جميعاً . فلماذا تظل هذه المواهب إذن عقيماً لا تثمر ؟ ثم إني لأذكر الأوقات التي قضيتها أنا وأنت في خارج البلاد . لقد كنت حينئذٍ منافقاً ممتلئ النفس بالغرور . والحق أنني لم أكن أدرك وقتئذٍ ما أريد حق الإدراك ؛ كنت أطرب للألفاظ وأستعذبها وأجد في أثر الأشباح والأوهام . ولكنني الآن والله على ما أقول شهيد ، أستطيع أن أجاهر أي إنسان بما أريد ، وليس عندي قط ما أخفيه ، بل إني الآن رجل حسن النية بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وأنا على استعداد لإذلال نفسي والمواءمة بينها وبين الظروف ، ولست أبتغي إلا القليل . أريد أن أبلغ أقرب هدف إليّ ، وأن أنفع الناس بعض النفع مهما كان حظه من التفاهة . ولكن ذلك يتأني على فلا أستطيعه . فما السر في ذلك ؟ وما الذي يحول بيني وبين الحياة والعمل كغيري من الناس . . . ؟ إن هذا هو كل ما يراودني الآن . على أنني ما إن انتهت إلى وضع من الأوضاع واستقرت عند نقطة بعينها حتى يتزعني القدر انتزاعاً . . . لقد بدأت أخشى مصري . . . فما حيلتي في هذا ؟ حل لي هذا اللغز ! » .

وردد ليزنيف قوله : « لغز حقاً ! أجل ، إنك كنت دائماً لغزاً في عيني حتى

(١) كولتسوف (١٨٠٩ - ١٨٤٢) . شاعر ديمقراطي من فحول الشعراء . وقد أخذ هذا البيت من قصيدته « مفترق الطرق » (١٨٤٠) - المترجم .

فى شبابك ، فقد كنت إذا وقع أمر تافه تنطلق بغتة فى الحديث فتملك على شغاف قلبى ، ثم . . . وأنت تعلم ما أعنى . . . بل إننى كنت أعجز عن فهمك حيثئذ ، ولهذا بدأت أكرهك ، إن مواهبك عظيمة جداً ، وسعيك فى سبيل المثل الأعلى لا يفيل ولا يميل . . . »

وقاطعه رودين قائلاً : « كلمات ، إن هى إلا كلمات ! كلمات لا يتحقق من ورائها شىء ! »

« يتحقق ؟ وأى شىء وراءها كان خليقاً بالتحقيق ؟ »
 « أى شىء ؟ أن يعمل المرء ويعول امرأة عجوزاً كفيفة البصر هى وأسرته جميعاً كما فعل بريازنتسوف على ما تذكر ، وهذا شىء تحقق »
 « أجل . ولكن الكلمة الطيبة هى أيضاً عمل طيب »
 ونظر رودين فى صمت إلى ليزنيف وهز رأسه فى بطء وتمهل ، وكان ليزنيف على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه مر بيده على وجهه . وسأله آخر الأمر : « والآن أذهب أنت إلى قريتك ؟ »

« نعم »

« ولكن أتعنى القول بأنك ما زلت تملكها ؟ »

« ما زال بعضها ملكى ، وعندى بعض العبيد وركن توى إليه عظامى ، ولعلك تحدث نفسك فى هذه اللحظة قائلاً : « ها هو ذا لا يستطيع حتى الآن أن يستغنى عن اللفظ الحسن ! » ، صحيح . أن الألفاظ كان فيها دمارى والقضاء على ، ومع ذلك فإنى لا أستطيع إلى اليوم الخلاص منها ، على أن ما قلته الآن لا يعد ألفاظاً فحسب ، وما هذا الشعر الأبيض وهذه التجعيدات وهذان

المرفقان الهزيلان بألفاظ تقال ، لقد كنت دائماً تقسو في الحكم على ، إلا أنك كنت تصيب جادة الحق ، ولكن ما جدوى ذلك الآن ؟ وقد انتهى كل شيء ، وأقفر المصباح من الزيت ، وأخذت ذبائله تحبو وتحمند . . . ولا بد يا صديقي أن يأتي الموت أخيراً فيصلح . . . »

وقفز ليزنيف من مقعده وصاح قائلاً : « رودين ! ما بالك تقول لى هذا القول ؟ وهل أستحق ذلك منك ؟ فن أكون بين القضاة حتى أجلس مجلس الحكم على الناس ؟ وماذا تكون صفى بين الرجال إذ أرى الحدود الغائرة والتجاعيد الملمة فأفكر فى الألفاظ الحسان ؟ أتحب أن تعرف رأى فىك ؟ إليك إذن قولى : هاكم رجلا قد كفلت له مواهبه كل مطلب لو أراد ، فأى شيء يمتنع عليه ؟ وأى كتر من كنوز الأرض يقف دونه ؟ ولكنى أراه جائعاً ، شريداً . . . »

وقال رودين فى صوت أجوف : « إنك ترى الحالى »

« كلا ، إنك مُخطئ فى ذلك ، وإنما أنا أحترمك ، وهذا كل ما فى الأمر ، فما الذى كان يحول بينك وبين الإقامة سنة بعد أخرى مع ذلك المالك صديقك ، الذى لا شك عندى فى أنه كان خليفاً بأن يعينك على التوفيق فى حياتك لو أنك تخليت عن طبيعتك لإرضائه ؟ ولماذا تعثرت خطواتك فى المدرسة الثانوية ؟ ولماذا أيها الرجل العجيب كنت تحم دائماً كل مشروع تكرس له نفسك ، مها كانت بواعثك إليه ، بتضحية مصالحك الخاصة ، ورفضك التمكن لنفسك فى تربة غريبة عليك مها كان حظها من الحصب والنماء ؟ »

فقال رودين ، وعلى شفثيه ابتسامة حزينة : « لقد فطرت على أن أكون حجراً دواراً ، ولا أستطيع الكف عن الدوران »

« صحيح ، ولكن ليست علة ذلك هي النار التي ترعى بين جوانحك على حد قولك . . . إنها ليست ناراً خبيثة ولا هي بروح من القلق الحامل ، بل هي حب للحق ملتهب يضطرم بين جوانحك ، وإني لأحسب على الرغم من جميع أوهامك أنه أشد اضطراباً في نفسك منه في نفوس كثير من أولئك الذين لا يرون ما هم فيه من « أنانية » ، وربما رموك بأنك أفاق ، ولو أني كنت في موضعك لأطفأت منذ زمن بعيد تلك النار الخبيثة التي تنهش قلبي ، ورضت نفسي على كل أمر ، أما وهذه النار لم تفسد عليك جوانب نفسك جميعاً ، فإني لوائق أنك على استعداد حتى الآن للبدء في مشروع جديد بكل ما أوتى الشباب من غيرة وحمية »
 وغمغم رودين : « كلا يا صديقي ، لقد حل بي التعب الآن ، وحسي ما لقيت »

« التعب ! لو أن أى شخص آخر لقي ما لقيت لطواه الموت منذ زمن بعيد ، وأنت القائل إن الموت يصلح الأمور ، أفلا تظن أن هذا يصدق أيضاً على الحياة ؟ إن من عاش ولم تعلمه الحياة أن يكون سمحاً كريماً مع الناس فهو خليق ألا يلقى منهم سماحة ولا كرمًا ، ومن ذا الذى يجرؤ على القول بأنه في غنى عن سماحة الآخرين وكرمهم ؟ لقد بذلت كل ما في وسعك وناضلت حتى النهاية . . . فأى شيء كنت مستطيعاً أن تفعله أكثر مما فعلت ؟ لقد اختلفت بنا السبل . . . »
 فقاطعه رودين وهو يتنهد : « أنت يا صديقي شخص تختلف عنى كل الاختلاف »

واسترسل ليزنيف يقول : « لقد اختلفت سبلنا ، ولعل علة العلل في ذلك أن حظي الموفق وفتور همتي وغير ذلك من الظروف السعيدة ، لم تمنعني من أن

أضرم يديّ إحداهما إلى الأخرى ثم أضعهما في حجري وأنزوي في مقعد المتفرجين .
 أما أنت فلم تجد بداً من أن تخرج إلى الميدان ، وتشمر عن ساعدك وتعمل ، لقد
 اختلفت سبلنا . . . ولكن انظر كيف أن كلينا وثيق الصلة بصاحبه ، فنحن نتكلم
 لغة واحدة أو نكاد . ويفهم كل منا صاحبه للوهلة الأولى . وقد شببنا ونحن نؤمن
 بمثل واحد ولم يبق منا إلا نفر قليل يا صديق . والحق أنني أمثل أنا وأنت آخر سلالة
 من أهل البلاد الأقدمين الأصلاء ، وقد كنا في الأيام الحالية نستطيع أن نختلف بل
 نتقاتل . لأن فسحة الحياة كانت ممتدة أمامنا ، أما الآن . فإن صفوفنا ترق .
 والأجيال الجديدة تمر بنا ، عاقدة العزم على بلوغ أهداف غير أهدافنا . وما أحرانا
 أن نتماسك كما لم نتماسك من قبل ، ولتفرع كأسينا يا صديق وننشد أنشودتنا القديمة
 « جواد يا موسى أجيئور »

وقرع الصديقان كأسيهما ، وبلغ بهما التأثر كل مبلغ . فأخذنا يغنيان في نشاز
 أغنية الطلبة القديمة على خير ما يفعل الروس .

وقال ليزنيف : « إنك ذاهب إلى الريف الآن . وأنا لا أومن لحظة بأنك
 ستظل هناك طويلاً ، ولا أستطيع أن أتخيل أين وكيف ينتهي بك المطاف . فلتذكر
 مهما ألم بك من أحداث ، أن لك دائماً مكاناً ، بل عشاً تستطيع أن تأوى إليه .
 وأنا أتحدث بهذا عن منزلي . . . أو قد سمعت يا صديق ؟ إن للفكر أيضاً مرضاه .
 وهؤلاء أيضاً يجب أن يكون لهم مأوى يلجئون إليه . »

وانتصب رودين واقفاً وقال : « شكراً لك يا صديقي العزيز . شكراً لك ؛ لن
 أنسى ذلك . وكل ما في الأمر أنني غير جدير به ، لقد بددت حياتي ولم أخدم
 الفكر كما كان ينبغي لي . . . »

وهتف ليزنيف : « أمسك ؛ فإن كل إنسان رهين بما أودعته الطبيعة إياه . ولا يمكن أن يطلب منه أكثر من ذلك ، لقد اتخذت لنفسك اسم اليهودى التائه ؛ فمن أدراك ؟ لعله قد كذب عليك أن تظل في تيهك إلى ما شاء الله ، ولعلك تؤدي بذلك رسالة رفيعة لا تعلم من أمرها شيئاً ، وليس بعجيب ما جاء على لسان العامة من حكمة تقول : « إننا جميعاً بين يدي الله » وسأله ليزنيف إذ رآه يهم بالتقاط قبعته : « أذهب أنت ، وهلا تقضى الليلة هنا ؟ » .

« إني لراجل ؛ إلى اللقاء ، وشكراً لك ؛ أجل ، ستكون نهايتي سيئة »

« هذا في علم الله وحده ، أوقد صحح عزمك على الرحيل الآن ؟ »

« أجل ، إلى اللقاء ، ولتذكرني بالخير »

« ولتذكرني أنت أيضاً بالخير . . . ولا تنس ما قلته لك ، وإلى اللقاء »

وتعانق الصديقان ، وخرج رودين مسرعاً

وراح ليزنيف يذرع الغرفة ، وظل على ذلك وقتاً طويلاً ، ثم وقف بجوار النافذة مستغرقاً في تأملاته وتمتم : « يا للبائس المسكين ! » ، ثم جلس إلى المنضدة وشرع يكتب خطاباً إلى زوجته «

وهبت ريح خارج الدار ، وأخذت تصفر صغيراً كثيراً وتضرب النوافذ المقعقة ، وكان ليل الخريف الطويل قد بدأ يرخي سدوله ؛ الأطوبى لأولئك الذين يقبعون في مثل تلك الليالي تحت سقوف منازلهم ، ويجدون ركناً دقيئاً يهجمون إليه . . . وكان الله في عون الضالين يهيمون على وجوههم بلا مأوى ولا نصير .

• • •

وفي السادس والعشرين من يونية سنة ١٨٤٨ ، وفي عصر هذا اليوم الذي

تميز بالحرارة والرطوبة ، كانت فتنة « المصانع الأهلية » في باريس تلفظ أعضائها الأخيرة ، وقد راحت سرية من جنود المشاة النظاميين تهاجم دريئة أقامها المفتنون في شارع ضيق من شوارع ضاحية سانت أنطوان ، كانت القنابل قد دمرته ، وشرع من بقى على قيد الحياة من المدافعين عنه يهجره ، ولا هم لهم إلا النجاة بأنفسهم ، وعلى حين غرة ظهر فوق قمة الدريئة نفسها ، وعلى هيكل منبعج لسيارة عامة مقلوبة ، رجل طويل القامة يرتدى ستره رسمية عتيقة ويتمنطق بجزام أحمر ، ويضع على شعره الأشيب الأشعث قبعة من القش ، وقد أمسك بيده علماً أحمر وباليد الأخرى سيفاً مثلوماً ؛ كان يهتف بشيء في صوت حاد مجهد متسلقاً القمة وملوحاً بعلمه وسيفه ، وصوب إليه جندي من مشاة أهل فانسين بندقيته ، وأطلق النار . فوق العلم من يد الرجل الطويل ، وسقط الرجل ووجهه إلى الأرض كأنه يلقى بنفسه على قدمي شخص . . . واخترقت الرصاصة قلبه .

وقال أحد العصاة لزميل له : « انظر ؛ لقد قتلوا البولندي لتوهم ؛ »
 وأجابه زميله قائلاً : « وما شأننا ؟ » ، واندفع كلاهما إلى قبو منزل من المنازل أغلقت مصاريع نوافذه وشوه الرصاص وقنابل المدافع جدرانها .
 وكان البولندي هو : ديمتري رودين !



رقم الإيداع	١٩٨٠/٤١٦٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٢٤-٨

١/٧٩/٢٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)